محمود الشرقاوي

القرآن المجيد

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠

بسم الله الرحمن الرحيم

« كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ » .

« صدق الله العظيم »

مقدمة

القرآن المجيد معجزة محمد بن عبد الله الخالدة ... وهو كتاب فصلت آياته من لدن حكيم خبير لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ليكون للعالمين نذيراً وبشيراً .. والقرآن دستور دولة ، وقانون حكم ، وإصلاح مجتمع ... أخرج به محمد رسول الهدى ، الناس من الظلمات إلى النور ، ومن الجاهلية إلى البر والتقوى ، أخرجهم من الضلال إلى الهدى ، ومن البغى إلى الرشد ، ومن الجهل إلى المعرفة ...

(هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

قال العلامة « فيني » (١) : إن القرآن ليس بكتاب دينى فقط بل كتاب علم وآداب ، ونجد فيه بيان الحياة السياسية والاجتماعية حتى أنه يرشد الإنسان إلى وظائفه اليومية والأحكام السياسية التى إن لم توجد فى القرآن توجد فى السنة ، والتى لا تكون واضحة لا بالقرآن ولا بالسنة توجد فى الفقه الواسع الذى هو علم الحقوق .

لم يستطع الذين صاولوا الدعوة الإسلامية أول عهد الإسلام أن يجحدوا إعجازه أو ينكروا بلاغته مع استمرار العناد فى نفوسهم ،

---

(١) المنار : ٣٢ ، ج ٣ .

واستفحال المكابرة فى صدورهم ، وذلك لأن القرآن المجيد فى طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق قد حاكم الناس إلى عقولهم ؛ وفتح عيونهم إلى الكون وما فى الكون من سماء وأرض ، وحيوان ونبات ، وخصائص وظواهر ونواميس وسنن ، وكان فى طريقة عرضه معجزاً ، لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها الخبير بدقائقها ، المحيط بعلومها ومعارفها على حين أن هذا الذى جاء بالقرآن رجل أمى ، نشأ فى أمة أمية لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها ، ولا إلمام لها بكتبها ومباحثها ؛ بل إن بعض تلك العلوم لم تنشأ إلا بعد عهد النبوة بقرون وأجيال ، فأنى يكون لرجل أمى كمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك السجل الجامع لتلك العلوم والمعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم ؟ »

قال الله تعالى مقرراً لهذا الإعجاز : «وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قبله من كتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ آياتٌ بيِّناتٌ فى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وما يجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ » .

وقد توفر المسلمون على دراسة القرآن واستخراج كنوز هداياته ، يستعينون على هذه الثقافة العليا بمواهبهم الفطرية وملكاتهم السليمة من ناحية ، وبما يشرحه الرسول الكريم ويبينه لهم بأقواله وأعماله ، كما قال الله تعالى :

« وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ولَعلَّهُمْ يتَفَكَّرُونَ(١) » .

كان همهم الأول هو القرآن المجيد يحفظونه ويفهمونه ، ثم يعملون بتعاليمه بدقة ، ويهتدون بهديه . وبهذا وحده صفت أرواحهم ، وطهرت نفوسهم ، وعظمت آثارهم ، لأن الروح الإنسانى هو أقوى شئ فى هذا الوجود ، فمتى صفى وتهذب ، وحسن توجيهه وتأدب أتى بالعجب العجاب .

وقد أتت الأمة العربية بالعجب فى الهداية والإرشاد وإنقاذ العالم وإصلاح البشر ، وكتب الله لهم النصر العزيز ، حتى على أقوى الدول المعادية لدعوة الحق والعدل فى ذلك العهد : دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب ، ثم دانت لهم الدنيا ففتحوا بعض دول أوربا ، وأقاموا فيها دولة عربية ، كانت النواة الناجحة فى نهضة أوربا المعاصرة ... تلك هى دولة الأندلس .

قال السير ريتشارد وود(٢) فى تقرير رسمى طبع ونشر عام ١٨٧٨ : « إن القرآن يتضمن أحكام الدين وفى نفس الوقت يشمل الأمور المدنية والأصول السياسية » .

وإن كثيرا من مؤلفى الإفرنج يزعمون أن المسلمين لا يتسنى لهم التقدم والارتقاء فى معارج الحضارة ما داموا مقيدين بنصوص القرآن

---

(١) سورة النحل : ٤٤ .

(٢) أنور الجندى : الإسلام فى غزوة جديدة للفكر الإنسانى ، ص ١٣٣ .

التى يقولون إنها لا تلائم المعارف واكتساب الفنون ، وهذا وهم نشأ من الجهل بمقاصد القرآن ، ويكفى برهاناً على بطلانه تاريخ صدر الإسلام وعناية علماء العرب بالمعارف والفنون ، ودروسهم كتب الحكماء الأقدمين مثل أرسطو وأقليدس وأبقراط وبطليموس وغيرهم » .

وقال الفيلسوف الألمانى « جوته » : إن تعاليم القرآن عملية ومطابقة للحاجات الفكرية .

* * *

وهذا الكتاب يتحدث عن القرآن المجيد ، ونزوله بأرق صور الوحى ، وكيف جمع القرآن ودون فى المصحف . ويتكلم عن إعجاز القرآن ، وقد تحدى بأقصر سورة مصاقع الخطباء من العرب العرباء ، وأفحم من تصدى لمعارضته من فصحاء عدنان وبلغاء قحطان حتى حسبوا أنهم سحروا ...

قال تعالى : « وإنْ كُنتُمْ فى رَيْب ممَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدنَا فَأْتُوا بِسُورة منْ مِثْلِهِ ، وادْعُوا شهداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُمْ صادقِين . فَإن لَّمْ تَفْعلُوا ولَنْ تَفْعلُوا فَاتَّقُوا النَّار التِى وَقودُها النَاس والْحجارةُ أُعدّتْ للْكَافِرين[1] » .

ويتحدث الكتاب عن العقائد فى القرآن : العقيدة الإلهية ، الإيمان برسالات السماء ، والإيمان بعوالم الغيب . الملائكة ، الجن ، الروح . ويوم القيامة .

---

(١) سورة البقرة : ٢٣ — ٢٤ .

ويتكلم عن الإنسان فى القرآن ، وقصة خلق آدم ، ويناقش نظرية النشوء والارتقاء ويثبت بالأدلة العلمية أن آدم خلق من تراب ، وأن الإنسان روح وجسد ، ولذلك فإن القرآن يحض على الارتقاء بالروح والمحافظة على الجسد معاً . فالروح والجسد فى القرآن ملاك الذات الإنسانية تتم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما فى سبيل الآخر ، فلا يجوز للمؤمن أن يبخس للجسد حقاً ليوفى حقوق الروح ، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقاً ليوفى حقوق الجسد . وليس السعى فى سبيل الدنيا ضلالا عن سبيل الآخرة :

« وابْتَغِ فِيما آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرةَ ولاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيا » [1] .

وقد خلق الله آدم من تراب .

والناس كلهم من بنى آدم .

فالإنسانية جميعها أسرة واحدة ، لا فضل لإنسان على آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح . ولذلك شجب القرآن التفرقة العنصرية ، فلا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى .

وإنى أرجو أن أكون قد وفقت إلى ما قصدت إليه ، والله تعالى ولى التوفيق .

محمود على الشرقاوى

---

(١) سورة القصص ، آية : ٧٧ .

الكتاب الأول

عن القرآن

الفصل الأول

معنى القرآن

القرآن المجيد « كتابٌ مُبين . يهْدى بِهِ اللهُ من اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُل السَّلامِ ويخْرِجُهُمْ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذْنِهِ ، ويهْدِيهمْ إلى صراطٍ مُسْتَقِيمٍ [1] » .

بمثل هذا حدث القرآن عن نفسه ، فكان أبين وأدل من بيان أصحاب الفقه له ، بمثل قولهم أنه « اللفظ العربي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، للتدبر والتذكر ، المنقول متواتراً ، وهو ما بين الدفتين ، المبدوء بسورة الفاتحة ، المختوم بسورة الناس » . فإن ما يقولون عن التدبر والتذكر لا يفي بمكان القرآن الذى هو فى العربية قاموس لغتها وتاج أدبها ، وهو فى الإسلام معجزة دعوته ودعامة شريعته ، وهو فى الإنسانية دعوة خالدة إلى سبل السلام والخير [2] .

وذكر الشيخ محمد الخضرى : « الكتاب هو القرآن وهو أجل من أن يعرف [3] .

(١) سورة المائدة : ١٥ – ١٦ .
(٢) أمين الخولى – القرآن – دائرة معارف الشعب ، ج ١ ص ٧ .
(٣) محمد الخضرى : تاريخ التشريع الإسلامى ، ص ٦ .

وقال محمد فريد وجدى : القرآن علم للكتاب الذى يقدسه المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ويتبركون به ويتبعون سنته وفرائضه ، ويعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه أنزل على النبى العربى محمد ابن عبد الله وأنه آخر الكتب السماوية نزولا (١) .

وقال الراغب الأصبهانى فى المفردات :

القرآن فى الأصل مصدر — على وزن فعلان — بالضم مثل رجحان وكفران ، قال الله تعالى :

« إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ . فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ »(٢) .

قال ابن عباس : إذا جمعناه وأثبتناه فى صدرك فأعمل به .

وأورد السيوطى خمسة أقوال فى لفظ القرآن(٣) ، هى :

أولا : ما ذهب إليه الشافعى أن لفظ القرآن المعرف بأل ليس مهموزاً ولا مشتقا بل وضع علما على الكلام المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : ما نقل عن الأشعرى وأقوام أنه مشتق من قرنت الشئ بالشئ إذا ضممته إليه ، ثم جعل علماً على اللفظ المنزل ، وسمى بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه بعضها ببعض .

(١) دائرة معارف القرن العشرين ، ج ٧ ، ص ٦٦٦ .
(٢) سورة القيامة : ١٧ .
(٣) السيوطى ، الاتقان فى علوم القرآن ، ص ٦٤ .

ثالثاً : ذهب الفراء إلى أنه مشتق من القرائن لأن الآيات فيه يصدق بعضها بعضاً ، وجعل علماً على اللفظ المنزل لذلك وهو على هذين غير مهموز أيضاً ، كالذى قبلهما ونونه أصلية .

رابعاً : قال الزجاج هو وصف على وزن فعلان مهموز مشتق من القرء بمعنى الجمع ، ومنه قرأت الماء فى الحوض إذا جمعته . وسمى الكلام المنزل على النبي المرسل به قرآناً لأنه جمع السور أو جمع ثمرات الكتب السابقة .

خامساً : ما ذهب إليه اللحيانى وجماعة من أنه مصدر مهموز بوزن الغفران سمى به المقروء من تسمية المفعول بالمصدر .

وينقل كتاب الاتقان(١) عن الجاحظ أن الله سمى كتابه اسما مخالفاً لما سمى العرب كلامهم ... سمى جملته قرآناً كما سمى العرب جملة كلامهم ديواناً ، وسمى بعضه سورة كقصيدة ، وسمى بعض السورة آية كالبيت . وسمى آخر السورة فاصلة كقافية .

ويورد الاتقان (٢) رواية عن كلمة مصحف فيقول : حكى المظفرى فى تاريخه ، قال : لما جمع أبو بكر القرآن قال : سموه ، فقال بعضهم : سموه انجيلا ، فكرهوه . وقال بعضهم : سموه السفر فكرهوه من يهود . فقال ابن مسعود : رأيت بالحبشة كتاباً يدعوه المصحف فسموه به .

كما يذكر أن كتب الأنبياء السابقين أسميت فى المصحف بأسماء القرآن فسميت التوراة الفرقان فى قوله : « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان » وسمى الزبور قرآناً فى قوله : « خفف على داود القرآن » .

---

(١) ص : ٦٣ . (٢) ص : ٦٤ .

كما يذكر أن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين اسما(١) : سماه كتاباً ومبيناً فى قوله : « حم والكتاب المبين » . وقرآناً وكريماً فى قوله : « إنه لقرآن كريم » . وكلاما : « حتى يسمع كلام الله » : ونورا : « وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » : وهدى ورحمة : « هدى ورحمة للمؤمنين » . وفرقاناً : « نزل الفرقان على عبده » . وشفاء : « وننزل من القرآن ما هو شفاء » . وموعظة : « قد جاءتكم موعظة من ربكم » وشفاء لما فى الصدور ، وذكرا ومباركاً « وهذا ذكر مبارك أنزلناه » ؛ وعليا ، « وأنه فى أم الكتاب لدينا لعلى » . وحكمة : « حكمة بالغة » وحكيما : « تلك آيات الكتاب الحكيم » . ومهيمناً مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه . وحبلا : « واعتصموا بحبل الله » ؛ وصراطاً مستقيما : « وإن هذا صراطى مستقيما » . وقيما : « قيما لتنذر به » . وقولا وفصلا : « إنه لقول فصل » : ونبأ عظيما : « عم يتساءلون عن النبأ العظيم » . وأحسن الحديث ومثانى ومتشابها : « الله أنزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى » : وتنزيلا : « وإنه لتنزيل رب العالمين » : وروحاً : « أوحينا إليك روحاً من أمرنا » ؛ ووحياً : « إنما أنذركم بالوحى » : وعربياً : « قرآناً عربياً » ؛ وبصائر : « هذا بصائر » وبياناً : « هذا بيان للناس » . وعلماً : « من بعد ما جاءك من العلم » . وحقاً : « إن هذا لهو القصص الحق » ؛ وهادياً : « إن هذا القرآن يهدى » . وعجباً : « قرآناً عجباً » ؛ وتذكرة : « وإنه لتذكرة » . والعروة الوثقى : « استمسك بالعروة

---

(١) ص : ٦٣ .

الوثقى » ؛ وصدقاً : « والذى جاء بالصدق » : وعدلا : « وتمت كلمات ربك صدقاً وعدلا » . وأمراً : « ذلك أمر الله أنزله إليكم » ؛ ومنادياً : « سمعنا منادياً ينادى للإيمان » . وبشرى : « هدى وبشرى » ومجيداً : « بل هو قرآن مجيد » . وزبورا : « ولقد كتبنا فى الزبور » ؛ وبشيراً ونذيراً : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً » . وعزيزاً : « وإنه لكتاب عزيز » . وبلاغاً : « هذا بلاغ للناس » وقصصاً : « أحسن القصص » .

وسماه أربعة أسماء فى آية واحدة فى « صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة » .

وقد سمى القرآن « النور » لأنه يدرك به غوامض الحلال والحرام ، « وأما الهدى » فلأن فيه الدلالة على الحق . وأما « الفرقان » فلأنه فرق بين الحق والباطل . « وأما الشفاء » فلأنه يشفى من الأمراض القلبية كالكفر والجهل والغل والبدنية أيضاً . « وأما الذكر » فلما فيه من المواعظ وأخبار الأمم الماضية ، والذكر أيضاً الشرف قال تعالى : « وإنه لذكر لك ولقومك » أى شرف لأنه بلغتهم . « وأما الحكمة » فلأنه نزل على القانون المعتبر من وضع كل شئ فى محله أو لأنه مشتمل على الحكمة . وأما الحكيم ، فلأنه أحكمت آياته بعجيب النظم وبديع المعانى وأحكمت عن تطرق التبديل والتحريف والاختلاف والتباين . وأما « المهيمن » فلأنه شاهد على جميع الكتب والأمم السالفة ، « وأما الحبل » فلأنه من تمسك به وصل إلى الجنة أو الهدى والحبل السبب . « وأما الصراط المستقيم » فلأنه طريق إلى الجنة قويم

لا عوج فيه . وأما « المثانى » فلأن فيه بيان قصص الأمم الماضية ، فهو ثان لما تقدمه . وأما « المتشابه » فلأنه يشبه بعضه بعضاً فى الحسن والصدق . وأما « الروح » فلأنه تحيى به القلوب والأنفس ، وأما « المجد » فلشرفه ، وأما « العزيز » فلأنه يعز على من يروم معارضته ، وأما « البلاغ » فلأنه أبلغ منه الناس ما أمروا به ونهوا عنه ، ولأن فيه بلاغة وكفاية عن غيره .

وتبدأ دائرة المعارف الإسلامية بحثها فى مادة « قرآن » ، بذكر اختلاف المسلمين فى نطق واشتقاق ومعنى كلمة قرآن ... فبعضهم يقول القرآن من غير همز ويذهب إلى أنها كلمة وضعت كما وضعت كلمة توراة وإنجيل . وهو كما نرى قول الشافعى الذى سبق ذكره . ثم تمضى الدائرة فى ذكر بقية الأقوال الخمسة . وتضيف إليها قولا سادساً وهو ما ذهب إليه شفالى (Schwally) وفلهاوزن (Wellhausen) من أن الكلمة عبرية أو سريانية تكتب هكذا (Kiryani-keryani) ومعناها ما يقرأ .

وتميل دائرة المعارف مع هذين العالمين ، إلى رأيهما الذى يقول بأن « قرأ » بمعنى تلا ليست كلمة عربية النسب ولكنها دخيلة على اللغة .

ويقول الدكتور محمد عبد الله دراز[1] : « روعى فى تسميته قرآناً كونه متلوا بالألسن ، كما روعى فى تسميته كتاباً كونه مدوناً بالأقلام ، فكلتا التسميتين من تسمية شئ بالمعنى الواقع عليه » .

---

(١) النبأ العظيم — نظرات جديدة فى القرآن ، ص ٧ .

وفى تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه فى موضعين لا فى موضع واحد ، أعنى أنه يجب حفظه فى الصدور والسطور جميعاً ، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب ، المنقول إلينا جيلا بعد جيل على هيئته التى وضع عليها أول مرة ، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر .

وبهذه العناية المزدوجة التى بعثها الله فى نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقى القرآن محفوظاً فى حرز حريز ، إنجازاً لوعد الله الذى تكفل بحفظه حيث يقول :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١) » .

ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند ، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها إلى حفظ الناس ، فقال تعالى :

« وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ (٢) » .

أى بما طلب إليهم حفظه . والسر فى هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جئ بها على التوقيت لا التأبيد ، وأن هذا القرآن جئ به مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليها ، فكان جامعاً لما فيها من

---

(١) سورة الحجر : ٩ .
(٢) سورة المائدة : ٤٤ .

الحقائق الثابتة ، زائداً عليها بما شاء الله زيادته ، وكان سادا مسدها ولم يكن شئ منها ليسد مسده ، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه ، وهو الحكيم العليم ».

« ولما كان القرآن بهذا المعنى الاسمى جزئياً حقيقياً كان من المتعذر تحديده بالتعاريف المنطقية ذات الأجناس والفصول والخواص ، وذلك شأن كل الجزئيات الحقيقية لا يمكن تحديدها بهذا الوجه ، لأن أجزاء التعاريف المنطقية كليات ، والكلى لا يطابق الجزئى مفهوماً ، لأنه يقبل الانطباق على كل ما يفرض مماثلا له فى ذلك الوصف ذهناً وإن لم يوجد فى الواقع ، فلا يكون مميزاً له عن جميع ما عداه ، فلا يكون حدا صحيحاً .

« وإنما يحدد الجزئى بالإشارة إليه حاضراً فى الحس ، أو معهوداً فى الذهن فاذا أردت تعريف القرآن تعريفاً تحديدياً فلا سبيل لذلك إلا بأن تشير إليه مكتوباً فى المصحف أو مقروءاً باللسان فتقول : هو ما بين هاتين الدفتين ، أو تقول : هو (بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين .... إلى : من الجنة والناس) ».

« أما ما ذكره العلماء من تعريفه بالأجناس والفصول كما تعرف الحقائق الكلية فانما أرادوا به تقريب معناه وتمييزه عن بعض ما عداه مما قد يشاركه فى الاسم ولو توهماً ؛ ذلك أن سائر كتب الله تعالى والأحاديث القدسية وبعض الأحاديث النبوية تشارك القرآن فى كونها وحياً إلهياً ، فربما ظن أنها تشاركه فى اسم القرآن أيضاً ، فأرادوا بيان

اختصاص الاسم به ببيان صفاته التى امتاز بها عن تلك الأنواع ، فقالوا :

« القرآن هو كلام الله تعالى ، المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المتعبد بتلاوته » .

« فالكلام » جنس شامل لكل كلام ، وإضافته إلى « الله » تميزه عن كلام من سواه من الإنس والجن والملائكة .

و « المنزل » مخرج للكلام الإلهى الذى استأثر الله به فى نفسه ، أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به لا لينزلوه على أحد من البشر ، إذ ليس كل كلامه تعالى منزلا ، بل الذى أنزل منه قليل من كثير :

« قُلْ : لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا[1] » .

« وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ[2] » .

وتقييد المنزل بكونه « على محمد » لإخراج ما أنزل على الأنبياء من قبله ، كالتوراة المنزلة على موسى ، والإنجيل المنزل على عيسى ، والزبور المنزل على داود ، والصحف المنزلة على إبراهيم ، عليهم السلام .

---

(١) سورة الكهف : ١٠٩ .
(٢) سورة لقمان : ٢٧ .

وقيد « المتعبد بتلاوته » . أى المأمور بقراءته فى الصلاة . وغيرها من وجه العبادة — لإخراج ما لم نؤمر بتلاوته من ذلك ، كالقراءات المنقولة إلينا بطريق الآحاد » .

وقد أورد كتاب « الإسلام عقيدة وشريعة(1) » تعريف العلماء للقرآن بأنه : « اللفظ العربى المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المنقول إلينا بالتواتر » . ثم ذكر أن هذا التعريف يرشدنا إلى أن العناصر القرآنية أربعة :

أولا : كونه لفظاً .

ثانياً : كونه عربياً .

ثالثاً : كونه منزلا على محمد صلى الله عليه وسلم .

رابعاً : نقله إلينا بالتواتر ، وذلك بأن يتلقاه الجمع العظيم عن النبى صلى الله عليه وسلم ثم ينقله جمع عن جمع ، وهكذا حتى يصل إلينا كما نطق به النبى صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تبديل ولا نقص ولا زيادة . والنقل بهذه الطريقة هو السبيل الوحيد لصيانة القرآن وحفظه على الوجه الذى أنزل عليه ، وقد كان تلقى الناس له بهذه الكيفية وحفظه إياه فى صدورهم هو الأصل المحكم عند الاختلاف فى كتابة حرف أو كلمة منه ، وهو طريق حفظه الذى وعد الله به فى كتابه إذ يقول :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » .

---

(1) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ٣٩٩ .

ويتفرع على العنصر الأول وهو كونه « لفظاً » أن ما يوحيه الله من المعانى إلى النبى ثم يعبر عنه النبى بألفاظ من عنده لا يكون قرآناً ، ولا يأخذ حكم القرآن من جواز الصلاة به ، وطهارة قارئه ، وما إلى ذلك من الأحكام التى تتعلق بنفس القرآن ، فالأحاديث المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم وإن كانت من وحى الله ليست قرآناً ، وكذلك ليس بقرآن ما يبينه الناس من معانى القرآن ، ويعبرون عنه بألفاظهم كالتفسير ، ولا يقال له قرآن .

وبعنصر « العربية » نعلم أن ترجمة القرآن إلى غير لغة العرب مهما روعى فيها من الدقة لمسايرة الأصل ومحاذاته ، لا تكون قرآناً ولا تأخذ شيئاً من أحكام القرآن التى أشرنا إليها ، بل ولا تكون مصدر تشريع لأنها تعبر عما يفهمه المترجم من القرآن ، كما يعبر التفسير عما يفهمه المفسر ، فلا يكون الاستنباط من أحدهما استنباطاً من كتاب الله وإنما يكون أخذاً بفهم من لا تقوم بفهمه حجة .

وليس معنى هذا أن ترجمة القرآن ، على معنى بيان معانيه وما احتوى عليه من آداب وإرشاد بغير لغة العرب محظورة ، بل قد تكون فيما نرى طريقاً متعيناً لنشر ما تضمنه من عقائد وأخلاق وأحكام .

والعنصر الثالث للقرآنية هو عنصر التنزيل على محمد ، وهذا العنصر يدلنا على أن ما أنزل على الأنبياء السابقين كابراهيم ، وموسى ، ولم يحك فى القرآن لا يكون قرآناً ، أما ما أنزل عليهم وقص علينا فى القرآن بالإنزال على محمد فهو قرآن قطعاً تثبت له سائر أحكام

القرآن . ولكن هل يكون — إذا تضمن حكماً كلفوا به — مصدر تشريع لنا فنلزم به أيضاً كما كانوا ملزمين ؟

هذه هى المسألة التى بحثها علماء الأصول تحت عنوان « شرع من قبلنا » . وخلاصة ما قالوه فيها أنه إذا قرنت حكاية الشرائع السابقة فى القرآن بما يدل على نسخها عندنا فليست تشريعاً لنا باتفاق ، وإذا قرنت بما يدل على تقريرها وكتابتها علينا كما كتبت على الذين من قبلنا فهى تشريع لنا باتفاق . أما إذا ذكرت مجردة عما يدل على نسخها أو تقريرها فهى محل خلاف بين العلماء : فذهب جمهور المالكية ، والحنابلة ، والحنفية إلى أنها شرع لنا ، وذهب جمهور الشافعية ، والأشاعرة ، والمعتزلة ، إلى أنها ليست شرعاً لنا . وقد تكفلت كتب أصول الفقه ببيان آراء الفريقين ومناقشة الأدلة .

والعنصر الرابع للقرآنية عنصر التواتر فى النقل . وهذا العنصر يخرج ما نقل بطريق الآحاد عن أن يكون قرآناً ، ولا خلاف لأحد من العلماء فى هذا وإن اختلفوا فى أنه حجة ، فرأى بعضهم أنه وإن لم يثبت قرآنيته لعدم تواتره فقد ثبت أنه خبر عن النبى صلى الله عليه وسلم . والعمل بخبر الواحد واجب ، ورأى آخرون أنه لا يصح الاحتجاج به نظراً إلى أنه ليس بقرآن قطعاً ، ولم ينقل على أنه خبر .

الفصل الثانى

نزول القرآن

نزل القرآن مفرقاً ، وفى أوقات متباعدة ، وتاريخه هو تاريخ الرسالة المحمدية ، ومدته هى مدتها أو قريباً من ذلك .

وقد صرح القرآن بأن نزوله كان فى رمضان ، وفى ليلة القدر منه على الخصوص كما قال تعالى :

« شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذى أُنزِلَ فيه الْقُرْآنَ »[1] .

وقال : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ »[2] .

وأكد ذلك بالنسبة إلى الليلة المذكورة قوله فى الآية الأخرى :

« إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ »[3] .

ورمضان مختص بإنزال الكتب السماوية السابقة ، فقد جاء فى مسند الإمام أحمد من حديث واثلة بن الأسقع رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنزلت صحف إبراهيم عليه الصلاة والسلام فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان ، وأنزل الله تعالى القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » .

---

(١) سورة البقرة : ١٨٥ .

(٢) سورة القدر : ١ .

(٣) سورة الدخان : ٣ .

ومعنى إنزاله لأربع وعشرين خلت أنه نزل بعد تمام أربع وعشرين ليلة فيكون إنزاله فى ليلة خمس وعشرين :

وهذه الكتب المنزلة ما عدا القرآن نزل كل منها على الرسول الذى نزل عليه جملة واحدة :

وأما القرآن المجيد فمعلوم أنه نزل على محمد بن عبد الله مفرقاً من حين رسالته إلى قرب وفاته ، بيد أن ظاهر هذه الآيات يدل على أنه نزل كله جملة واحدة فى ليلة من ليالى شهر رمضان ، وهو أيضاً ظاهر حديث واثلة السابق :

وهذا يثير فى النفس تساؤلا : كيف يتسنى القول بنزول القرآن كله جملة واحدة مع ما هو معلوم يقيناً من أنه نزل على محمد بن عبد الله مفرقاً فى اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر تقريباً ، حتى أن الكافرين قالوا كما حكى الله تعالى عنهم فى سورة الفرقان : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة » :

وقد يجيب بعض الناس عن هذا التساؤل فيقول : إن الذى أنزل فى ليلة القدر إنما هو أول القرآن نزولا وهو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » فيكون قوله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » معناه شهر رمضان الذى ابتدئ فيه إنزال القرآن :

وقوله : « إنا أنزلناه » معناه إنا ابتدأنا إنزاله .

وهذا الجواب ليس بسديد لأن فيه حمل الآيات على غير ظاهرها .

والجواب السديد هو ما أجاب به ابن عباس فى آثار صحيحه مروية عنه نكتفى منها بما يلى :

أولا : أخرج الحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « فصل القرآن من الذكر فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبى صلى الله عليه وسلم[1] ومعنى قوله « فصل القرآن من الذكر » أن الملائكة كتبوا القرآن الكريم نقلا من اللوح المحفوظ ثم أنزلوا ما كتبوه إلى مكان فى السماء الدنيا يسمى بيت العزة .

ثانياً : أخرج النسائى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا ليلة القدر ثم أنزل بعد فى عشرين سنة . وقوله « فى عشرين سنة » فيه إيجاز بالاقتصار على ذكر العقدين الكاملين وحذف الكسر وهو سنتان وخمسة أشهر تقريباً .

ثالثاً : أخرج ابن مردويه والبيهقى وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه سأله عطية بن الأسود ، فقال : وقع فى قلبى الشك قول الله تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » وقوله : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » وقوله : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » وقد أنزل فى شوال وفى ذى القعدة وفى ذى الحجة وفى المحرم وصفر وشهر ربيع ، فقال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر

(١) الزركشى : البرهان : ص ٢٢٩ .

وفى ليلة مباركة جملة واحدة ، ثم أنزل على مواقع النجوم رسلا فى الشهور والأيام[1] ، وقوله « وقع فى قلبى الشك » لا يقصد به حقيقة الشك ، فإن القرآن لا يشك فيه مسلم وإنما مقصوده أن هذا التعارض الذى يبدو لأول وهلة يثير فى النفس حيرة فى الفهم مع إيمان بأن القرآن حق لا ريب فيه .

وقوله : « أنزل على مواقع النجوم » معناه أنه أنزل مفرقاً على مثل مساقط النجوم فان النجوم تسقط أمام الأنظار فى أوقات مختلفة يتبع بعضها بعضاً .

وقوله « رسلا » بكسر الراء — معناه « تؤدة » أى فى زمن طويل .

ولا شك أن نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى موضع مخصوص فى السماء الدنيا يسمى بيت العزة — لا يقوله ابن عباس رضى الله عنهما اجتهاداً ولا تخميناً ، فإنه من علم الغيب الذى لايطلع الله عليه إلا رسوله صلى الله عليه وسلم .

وهذا النزول الغيبى إن كان مما يحمل على القول به هو إبقاء الآيات الواردة فى نزول القرآن على ظاهرها من نزوله جملة واحدة ، فانه لا يعارض نزوله الحسى فى التاريخ المذكور ، أى ابتداء نزوله على الرسول صلى الله عليه وسلم مفرقاً ، بل إن الرواية نفسها تشير إلى ذلك وتبين المراد به ، فهما إذن نزولان ، غيبى وحسى وتاريخهما واحد[2] .

---

(١) السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن : ص ٥٠ .

(٢) عبد الله كنون : ذكرى نزول القرآن ، ص ٧ .

ويتساءل العلامة الزركشى[1] عن السر فى هذا النزول ، ويجيب عن ذلك بقوله : « فإن قيل : ما السر فى إنزاله جملة إلى السماء ؟ قيل فيه تفخيم لأمره وأمر من نزل عليه وذلك باعلان سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم قربناه إليهم لننزله عليهم » .

وقد بين الله تعالى حكمة نزول القرآن مفرقاً لا جملة واحدة فى موضعين فى الكتاب العزيز :

الموضع الأول : قوله تعالى فى سورة الإسراء :

« وقُرْآناً فرقْنَاهُ لِتَقْرأَهُ على النَّاسِ علَى مُكْثٍ ونَزَّلْنَاه تَنْزِيلاً » .

الموضع الثانى : قوله تعالى فى سورة الفرقان :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآن جُمْلَةً وَاحِدَةً ، كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلَا يَأْتُونَك بِمثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا » .

وصدر آية الإسراء « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْث » يرشد إلى حكمة من حكم التفرقة وهى أن يتيسر على الناس حفظه وفهمه ، وتخليهم عن عقائدهم وأعمالهم الفاسدة بالتدريج وتحليهم بالعقائد والأعمال الصالحة بالتدريج أيضاً وآخرها « ونزلناه تنزيلا »

(١) البرهان ، ص ٢٣٠ ، الاتقان ، ص ٥٠ .

يرشد إلى حكمة أخرى من حكم التفرقة وهى الدلالة على أن القرآن منزل من الله تعالى وليس من قول البشر ، فإنه مع نزوله مفرقاً حسب الحوادث وإعجازه بهذا الترتيب الزمنى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر الكتبة كلما نزلت آية أن يضعوها بأمر الله تعالى بعد آية كذا من سورة كذا ، فكان ترتيبه فى التلاوة غير ترتيبه فى النزول وكان مع ذلك متناسباً أعظم التناسب ، بل معجزا للخلق جميعاً أن يأتوا بمثله ، فهذا إعجاز متكرر مرتين .

أولاهما : بترتيبه النزولى الزمنى المتسق مع الوقائع .

وثانيتهما : بترتيبه فى التلاوة آيات وسورا طوالا وقصاراً وأوساطاً .

والآية الأولى من آيتى « الفرقان » : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » ترشد إلى حكمة ثالثة وهى تثبيت قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بتجدد الوحى ونزول الملك وهو أمر يدعو إلى طمأنينة القلب والشراح الصدر مع ما فى ذلك من تيسر الحفظ وتكرار انتصاره على الأعداء بتكرار عجزهم عن الإتيان بمثله كلما تحداهم .

والآية الكريمة الثانية من آيتى الفرقان : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا » ترشد إلى حكمة رابعة وهى مسايرة الحوادث بإجابة السائلين ، وبيان حكم الله تعالى فى الوقائع المتجددة وتوجيه أنظار المسلمين إلى ما يقعون فيه من أخطاء أولا فأول ،

وهتك أستار المنافقين والمشككين كلما هموا بأمر فيه كيد للإسلام والمسلمين (١) .

وكان أول ما نزل هو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك » كما تفيده السنة الصحيحة ، ففي البخاري عن عائشة قالت : « أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذني فغطني ، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت ما أنا بقارئ . فأخذني فغطني الثانية ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت ما أنا بقارئ ، فأخذني ، فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم » فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ... الحديث (٢) .

لكن جاء في صحيح مسلم عن جابر : « أول ما نزل من القرآن سورة المدثر » (٣) ، وهذا محمول عند العلماء على ما بعد فترة الوحي التي تلت النزول الأول (٤) .

---

(١) الاتقان ص٥٣ ، شهر القرآن ، للشيخ علي البولاق — الوعي الإسلامي ، العدد ٥٧ .
(٢) البخاري ، جـ ١ ، ص ٣ .
(٣) جـ ١ ، ص ٦٦ .   (٤) الزركشي : البرهان ، جـ ١ ، ص ٢٠٦ .

والروايات المختلفة الألفاظ للحديث عند البخارى وعند مسلم نفسه تؤيد ذلك ، ونورد هنا رواية البخارى لوضوحها واختصارها ، وهى عندهما معاً من طريق ابن شهاب الزهرى عن أبى سلمة عن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : وهو يحدث عن فترة الوحى : « بينا أنا أمشى ، إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصرى فاذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت : زملونى زملونى ، زاد مسلم فدثرونى ، فأنزل الله تعالى : « يأيها المدثر قم فأنذر إلى قوله والرجز فاهجر » فحمى الوحى وتتابع[١] .

فبان بهذا أن الأولية الحقيقية هى التى فى حديث عائشة ، وأن التى فى حديث جابر إنما هى أولية إضافية ، لأن الحديث عن فترة الوحى لا يكون إلا بعد وحى سابق زيادة على أن مضمون الآيات المفتتح بها سورة المدثر وافتتاحها هذا ، مما يؤذن بسبق خطاب اقرأ على خطاب يا أيها المدثر .

وإذا كانت أول ما نزل هو قوله تعالى : « اقرأ باسم ربك » كما ثبت لدينا بالدليل القاطع فإن آخر ما نزل على الراجح والمعتمد هو قوله تعالى : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » الآية[٢] ، أخرجه النسائى وابن مردويه والطبرى عن ابن عباس[٣] .

---

(١) صحيح البخارى ، ج ١ ، ص ٤ .
(٢) سورة البقرة : ٢٨١ .
(٣) السيوطى : الاتقان ، ج ١ ، ص ٢٧ .

وهذا يرشدنا إلى أن ثمرة المعرفة هى التقوى التى تعنى حسن السلوك ومحاسبة النفس . فالعلم فى الإسلام ليس غاية فى ذاته ، ولكنه وسيلة إلى تزكية النفس ونفع العباد حتى يكون الإنسان خليقاً بهذا المنصب الرفيع الذى أهل له منذ وجود أول فرد منه ، وهو خلافة الله فى أرضه ، المقتضية لإعلاء منار شريعته الكفيلة بسعادة الدنيا والآخرة .

وقد نزل القرآن بأرق صور الوحى[١] . إذ ورد فى القرآن أن الله تعالى يكلم الناس فى صور ثلاث ، قال تعالى :

(وما كَانَ لِبَشَر أَنْ يكَلِّمهُ اللهُ إلاَّ وحْياً أَوْ مِنْ ورَاء حِجَابٍ أَوْ يرْسِل رَسُولاً فَيوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ[٢]) .

فأول صورة لكلام الله سبحانه وتعالى للإنسان ، هى الإيحاء ، ومعناه الإشارة السريعة ، تلقى فى روع الإنسان ، وفى هذه الحالة يتكلم الأنبياء وغيرهم من المتقين بنفث من روح القدس ، فيلقى فى نفس الموحى إليه فكرة تشع فى روعه بنور خاطف كأنه البرق ، ولا يكون الإيحاء فى هذه الصورة مصاغاً بكلام ، بل يكون خطرة تخطر بالبال لا يسبقها تفكير وتجلى بها شكوك .

---

(١) الدين الإسلامى ، تأليف مولاى محمد على ، وترجمة محمد سعيد أحمد (جـ ١ ، ص ٤) .

(٢) سورة الشورى : ٥١ .

وثانى صورة لكلام الله سبحانه وتعالى للإنسان : هى الكلام من وراء حجاب . وثالث صورة لكلام الله للإنسان : الحالة التى يرسل الله سبحانه وتعالى بها كلاماً منه يحمله ملك رسول إلى الموحى إليه .

وهذه الصورة[١] هى أعلى مراتب التنزيل حيث اختص الله سبحانه وتعالى بها أنبياءه ورسله دون سواهم لتبليغ رسالاته إلى الناس ، وأما الصورتان الأوليان : الإيحاء والكلام من وراء حجاب ، فتقل مرتبتهما عن الصورة الثالثة ، ويشترك فيهما الأنبياء ومن عداهم ممن سلكوا نهجهم من عباد الله المتقين . وأما الرسل فقد أمرهم الله بأن يبلغوا رسالاته إلى الناس وينذروهم بها ، وذلك لتجنيبهم مواطن الضلال ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم المفضى إلى نجاتهم وإسعادهم . ورسالة هذه غايتها تكون أشد شأناً مما عداها ، ويكلم الله فيها رسوله بأعلى صور الكلام مرتبة ، فلا تكون فكرة عابرة ، ولا كلاماً يسمعه الرسول وينطق به بنفث من روح القدس ، بل يرسل الله تعالى كلاماً يحمله روح القدس إلى الرسول ويسمى كلام الله هذا الوحى المتلو ، وبه نزل القرآن كله بدون استثناء . فالقرآن وحى متلو على النبى ، نزل به الروح الأمين على قلب النبى ، بكلام عربى مبين وبأرقى صور الوحى .

وهناك صور أخرى للوحى ، فقد ورد أن النبى كان يرى قبل نزول القرآن الرؤيا الصادقة « إن أول ما بدئ به من الوحى الرؤيا الصادقة ، فكان رسول الله لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح » .

---

(١) المصدر السابق ، ص ٥ .

ويتبع هذه الصورة من الوحى ما ورد من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسمع أصواتاً خفية ، وهذه الصورة يعبر عنها بالوحى الخفى يوحى بها الله إلى الرسول .

وتختلف حالة الإنسان أثناء تلقى الوحى باختلاف صوره : فنى القسمين الأولين تعترى الإنسان حالة غير عادية ، سواء أتاه الإيحاء فى وقت النوم أو اليقظة ، ولا يحدث تغيير بين فى الموحى إليه ؛ وأما فى الصورة الثالثة وهى التى اختص الله بها أنبياءه ورسلة فتتغير حالة الموحى إليه تغيراً كبيراً ، فينتقل معها من عالم إلى آخر ؛ ولا يزال الموحى إليه يقظاً تمام اليقظة غير مصروع ولا غائب عن وعيه ، شاعراً بوطأة الوحى ، ويستطيع من حوله من الناس أن يشاهدوا هذا التغير المحسوس أثناء الوحى : عن عائشة رضى الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحى ؟ فقال الرسول : أحياناً يأتينى مثل صلصلة الجرس وهو أشده على ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال : وأحياناً يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول .

قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه : وإن جبينه ليتفصد عرقاً .

وبهاتين الحالتين نزل القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ففى كلتيهما كان الرسول يرى جبريل ، وفى كلتيهما كان جبريل ينقل كلام الله إليه فيفصم عنه فيعى ما يقول ، ولا فرق بين الحالتين سوى

أنه فى إحداهما كان جبريل يظهر على صورة رجل ينقل كلام الله بصوت هادئ لين ، وأما فى الحالة الثانية فكان الوحى يأتى كصلصلة الجرس ، أى أن جبريل كان ينقل كلام الله بصوت قوى شديد ، وكان الوحى على هذا أشد وطأة على الرسول صلى الله عليه وسلم من الحالة السابقة ، وكان الحامل لكلام الله تعالى فى كلا الحالتين جبريل عليه السلام . وكان الرسول الكريم وقت نزول الوحى ينتقل — كما ذكرنا — من عالم إلى آخر ، وكان يبلغ منه الجهد مبلغاً كبيراً حتى كان جبينه يتصبب عرقاً فى أشد أيام البرد .

وسواء أظهر جبريل عليه السلام فى صورة رجل أم لا ، وسواء أبلغت الرسالة فى صوت هادئ لين ، أم فى صوت قوى شديد ، فإنه لا ريب فى أن الموحى به كان كلاماً من الله يحمله جبريل إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . ونزل القرآن جميعه بهذه الصيغة منجماً على الرسول بواسطة جبريل . وقد كان الرسول يتلقى التنزيل بصورتيه وهو جالس مع أصحابه أحياناً ، ويستخلص من ذلك أن الرسول كان يرى جبريل ويسمع منه التنزيل .

وكان القرآن ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل . وقد صح نزول عشر آيات فى قصة الإفك جملة . وصح نزول عشر آيات من أول المؤمنين جملة ، وصح نزول جملة « غير أولى الضرر » وحدها وهى بعض آية .

والحكمة فى نزول الآيات قليلة العدد على هذا النحو هى فى أن يتمكن النبى صلى الله عليه وسلم من حفظها ومن تعليمها للناس ، ومن إملائها على كتابه ليدونوها .

ولنزول القرآن حسب الحوادث الجارية شواهد كثيرة وهى كل القرآن تقريباً . . فمن ذلك مثلا ما اتصل بعمر بن الخطاب ، وكان هو سبباً فى نزوله . فقد روى عنه أنه قال : وافقت ربى فى ثلاث : قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزلت الآية :

« وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » .

وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب . واجتمع على رسول الله نساؤه فى الغيرة فقلت لهن : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن » فنزلت كذلك .

وفى رواية أخرى أنه لما نزلت الآية : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » قال عمر بن الخطاب قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فنزلت الآية كما نطق عمر : « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وفى طبقات ابن سعد عن الواقدى : حمل مصعب بن عمير اللواء يوم أحد فقطعت يده اليمنى فأخذ اللواء بيده اليسرى وهو يقول :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ » .

ثم قطعت يده اليسرى فحنى على اللواء وضمه بعضديه إلى صدره وهو يقول : « « وما محمد إلا رسول » ثم قتل فسقط اللواء . قال محمد بن شرحبيل وما نزلت هذه الآية « وما محمد إلا رسول » يومئذ حتى نزلت بعد ذلك .

وذكر البخارى من حديث زيد بن ثابت أن رسول الله أملى عليه: « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله » فجاء ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى، فأنزل الله « غير أولى الضرر »: وكذلك قوله تعالى:

« وَإِنْ خِفْتُمْ عِيلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » بعد قوله تعالى: « إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ».

كانت الآيات التشريعية وهى آيات الأحكام تنزل على الرسول صلى الله عليه وسلم فى الغالب جواباً لحوادث فى المجتمع الإسلامى، وتعرف هذه الحوادث بأسباب النزول وقد اعتنى بها جماعة من المفسرين وألفوا فيها كتباً وجعلوها أساساً لفهم القرآن(١)، وأحياناً كانت تنزل الآيات جواباً عن أسئلة يسألها بعض المؤمنين وقليلا ما كانت تنزل الأحكام مبتدأة.

ولنضرب أمثلة لكل من هذين القسمين:

١ — أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرثداً الغنوى إلى مكة ليخرج منها قوماً مسلمين مستضعفين فلما وصلها عرضت امرأة مشركة نفسها عليه وكانت ذات جمال ومال فأعرض عنها خوفاً من الله ثم أقبلت عليه تريد زواجه فقبل ووقف ذلك على إذن رسول الله صلى

(١) محمد الخضرى: تاريخ التشريع الإسلامى، ص ١٤ — ١٦.

الله عليه وسلم ، فلما قدم المدينة عرض قضيته على رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب إجازة ذلك النكاح فنزل قوله تعالى فى سورة البقرة :

« وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ » .

٢ — ورد فى القرآن أحكام كثيرة عقب أسئلة صدرت من المؤمنين أو من غيرهم من ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ . فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » . « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِى الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ » .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ » .

وفى سورة النساء : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ » .
إلى غير ذلك من الآيات .

أما الأحكام التى أنزلت بدون حادث أو سؤال فقليلة وقلما نرى حكماً لم يذكر له المفسرون حادثاً أنزل الحكم مرتباً عليه .

ولسعة زمن نزول القرآن واختلاف أماكنه نسبت سور القرآن وآياته إلى أزمانها وأماكنها ، فكان من أشهر ما أطلق على الآيات أنها « مكية » أو « مدنية » : نسبة إلى مكة ، وهى المهد الأول للدعوة الإسلامية ، وإلى المدينة ، وهى مستقر هذه الدعوة . كما قد ينسب منه شئ إلى غير هاتين المدينتين : كالحديبية والجحفة ، والطائف ، لكن النسبة إلى هاتين المدينتين هى أشهر نسبة ، وإليها وجهت العناية ببيان المكى والمدنى من آى القرآن ، وتعيينه وترتيبه ووصفه وما إلى ذلك .

وقد ذكر السيوطى(1) اصطلاحات يمكن التفريق فيها بين المكى والمدنى ، قال :

اعلم أن للناس فى المكى والمدنى اصطلاحات ثلاثة أشهرها :

---

(1) الاتقان : ص ١٠ .

١ — أن المكى ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار .

أخرج عثمان بن سعيد الرازى بسنده إلى يحيى بن سدم قال : ما نزل بمكة ، وما نزل فى طريق المدينة قبل أن يبلغ النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فهو مكى ، وما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم فى أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدنى ، وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل فى سفر الهجرة مكى اصطلاحاً .

٢ — أن المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة ، وعلى هذا تثبت الواسطة . فما نزل بالأسفار لا يطلق عليه مكىّ ولا مدنى ، وقد أخرج الطبرانى أن رسول الله قال : أنزل القرآن فى ثلاثة أمكنة : مكة والمدينة والشام . (وقيل فى تفسير الشام إنها بيت المقدس أو تبوك وهذا أرجح) .

قال السيوطى : ويدخل فى مكة ضواحيها كالمنزل بمنى وعرفات والحديبية . وفى المدينة ضواحيها كالمنزل ببدر وأحد وسلع .

٣ — أن المكى ما وقع خطاباً لأهل مكة والمدنى ما وقع خطاباً لأهل المدينة . قال القاضى أبو بكر فى الانتصار : إنما يرجع فى معرفة المكى والمدنى لحفظ الصحابة والتابعين . ولم يرد عن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك قول ، لأنه لم يؤمر به ، ولم يجعل الله علم ذلك من فرائض الأمة ، وإن وجب فى بعضه على أهل العلم معرفة تاريخ الناسخ والمنسوخ ، فقد يعرف ذلك بغير نص الرسول .

وأخرج البخارى عن ابن مسعود أنه قال : والذى لا إله غيره ، ما نزلت آية من كتاب الله تعالى إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت . وقال أيوب سأل رجل عكرمة عن آية من القرآن ، فقال : نزلت فى سفح ذلك الجبل ، وأشار إلى سلع .

وهناك ضوابط أحصاها القدماء تميز المكى من المدنى وهذه الضوابط هى من قبيل الإحصاء ، إذ أنها بنيت على ما جاء فى مصحف عثمان بن عفان .

أولا : إن آيات المكى(١) على الجملة قصار بخلاف الآيات المدنية وشاهد ذلك أن السور المدنية تزيد قليلا على ١١/٣٠ من القرآن وعدد آياتها ١٤٥٦ أى أنها تزيد قليلا على ربع مجموع آياته . ومن الأمثلة القريبة على ذلك جزء قد سمع كله مدنى وعدد آياته ١٣٧ ، وجزء تبارك مكى وعدد آياته ٤٣١ ، وجزء عم مكى وعدد آياته ٥٧٠ . ومن ذلك الأنفال والشعراء كلتاهما نصف جزء من القرآن لكن الأولى مدنية عدد آياتها ٧٥ والثانية المكية عدد آياتها ٢٢٧ .

وهذا المميز أغلبى فقد يوجد فى بعض الآيات المكية طول وأكثره فى السور الطوال .

ثانياً : خطاب الجمهور فى الآيات المدنية يغلب أن يكون بقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا » ، وقلما يرد بقوله : « يا أيها الناس » . وأما خطابه فى الآيات المكية فبالعكس ، ولم نر فى السور المكية « يا أيها الذين آمنوا » .

---

(١) محمد الخضرى : تاريخ التشريع الإسلامى ، ص ١٦ .

أما فى السور المدنية فورد « يا أيها الناس » سبع مرات :

(١) يا أيها الناس اعبدوا ربكم . (٢) يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيباً . كلتاهما بالبقرة . (٣) يا أيها الناس اتقوا ربكم . (٤) إن يشأ يذهبكم أيها الناس . (٥) يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم . (٦) يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم بالنساء . (٧) يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . بالحجرات .

ثالثاً : آيات المكى ليس فيها شئ من التشريع التفصيلى ، بل معظم ما جاء فيها يرجع إلى المقصد الأول من الدين وهو توحيد الله سبحانه وتعالى وإقامة البراهين على وجوده والتحذير من عذابه ووصف يوم الدين وأهواله ونعيمه والحث على مكارم الأخلاق التى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكملها ثم ضرب الأمثال بما أصاب الأمم الماضية حينما خالفت ما دعاها إليه أنبياؤها .

أما التشريع التفصيلى فمعظمه وارد فى الآيات المدنية .

ولمعرفة أماكن نزول السور والآيات أهمية كبيرة ، لأنها تعين على معرفة أسباب النزول وتواريخ الحوادث التى عرض لها القرآن وبذا تكون آياته أكثر وضوحاً وقرباً من الأذهان . وقد بدأت عناية الأقدمين المبكرة بالتأليف فى أسباب نزول القرآن ، وجعلوها نوعاً من أنواع الدراسات القرآنية التى سموا مجموعتها « علوم القرآن » . واشتملت كتب التفسير على هذه الأسباب عند تفسير آياتها . كما وضعت الكتب المفردة فى تلك الأسباب ، مثل كتاب « الباب المنقول ، فى أسباب النزول » للسيوطى ، وغير ذلك من كتب فى أسباب النزول .

وقالوا : « لا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن عللها(١) ».

كما قدروا ما قد يقع من وهم الراوى للأسباب ، وأشاروا إلى بعض مسببات الوهم ، « كأن تتلى الآية عند الحادثة ، فيهم الراوى فيقول : فنزل عند ذلك كذا(٢) » وبهذه الدقة يجب النظر فى أسباب النزول فهماً للقرآن المجيد .

* * *

وفيما يلى بيان للمكى والمدنى :

١ — سورة الفاتحة ، مكية ، عدد آياتها سبع ، وقد نزلت بعد سورة المدثر .

٢ — سورة البقرة ، مدنية ، ما عدا الآية ٢٨١ ، فقد نزلت بمنى فى حجة الوداع ، وعدد آياتها ٢٨٦ ، وهى أول سورة نزلت بالمدينة .

٣ — سورة آل عمران ، مدنية ، وعدد آياتها ٢٠٠ ، وقد نزلت بعد الأنفال .

٤ — سورة النساء ، مدنية ، وعدد آياتها ١٧٦ ، وقد نزلت بعد الممتحنة .

---

(١) السيوطى ، نقلا عن الواحدى ، الاتقان ، ج ١ ، ص ٣٨ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٤ .

٥ — سورة المائدة ، مدنية ، ما عدا الآية ٣ ، فقد نزلت بعرفات في حجة الوداع ، وعدد آياتها ١٢٠ ، وقد نزلت بعد سورة الفتح .

٦ — سورة الأنعام ، مكية ، ما عدا الآيات : ٢٠ ، ٢٣ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١١٤ ، ١٤١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، فمدنية ، وعدد آيات السورة ١٦٥ ، وقد نزلت بعد سورة الحجر .

٧ — سورة الأعراف ، مكية ، ما عدا الآيات ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، فمدنية ، وعدد آيات السورة ٢٠٦ ، وقد نزلت بعد سورة ص .

٨ — سورة الأنفال مدنية ، ما عدا الآيات ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، فمكية ، وعدد آياتها ٧٥ ، وقد نزلت بعد سورة البقرة .

٩ — سورة التوبة ، مدنية ، ماعدا الآيتين ١٢٨ ، ١٢٩ فقد نزلتا بمكة ، وعدد آيات السورة ١٢٩ ، وقد نزلت بعد سورة المائدة .

١٠ — سورة يونس ، مكية ، ما عدا الآيات ٤٠ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، فمدنية ، وعدد آياتها ١٠٩ ، وقد نزلت بعد سورة الإسراء .

١١ — سورة هود ، مكية ، ما عدا الآيات ١٢ ، ١٧ ، ١١٤ فمدنية ، وعدد آياتها ١٢٣ ، نزلت بعد سورة يونس .

١٢ — سورة يوسف ، مكية ، ماعدا الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٧ ، فمدنية ، وعدد آياتها ١١١ ، وقد نزلت بعد سورة هود .

١٣ — سورة الرعد ، مدنية ، وعدد آياتها ٤٣ ، وقد نزلت بعد سورة محمد ؛

١٤ — سورة إبراهيم ، مكية ، ماعدا الآيتين ٢٨ ، ٢٩ فمدنيتان وعدد آياتها ٥٢ ، وقد نزلت بعد سورة نوح ؛

١٥ — سورة الحجر ، مكية ، ماعدا الآية ٨٧ فمدنية وعدد آياتها ٩٩ ، وقد نزلت بعد سورة يوسف ؛

١٦ — سورة النحل مكية ، ما عدا الآيات ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ فمدنية ، وعدد آياتها ١٢٨ ، وقد نزلت بعد سورة الكهف ؛

١٧ — سورة الإسراء ، مكية ، ماعدا الآيات ٢٦ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٧ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ فمدنية ، وعدد آياتها ١١١ ، وقد نزلت بعد سورة القصص ؛

١٨ — سورة الكهف ، مكية ، ماعدا الآيات ٢٨ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ فمدنية ، وعدد آياتها ١١٠ ، وقد نزلت بعد سورة الغاشية ؛

١٩ — سورة مريم ، مكية ماعدا الآيتين ٥٨ ، ٧١ فمدنيتان ، وعدد آياتها ٩٨ ، وقد نزلت بعد سورة فاطر ؛

٢٠ — سورة طه ، مكية ، ماعدا الآيتين ١٣٠ ، ١٣١ فمدنيتان ، وعدد آياتها ١٣٥ ، وقد نزلت بعد سورة مريم ؛

٢١ — سورة الأنبياء ، مكية ، وعدد آياتها ١١٢ ، وقد نزلت بعد سورة إبراهيم :

٢٢ — سورة الحج ، مدنية ، ماعدا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ فقد نزلت بين مكة والمدينة ، وعدد آيات السورة ٧٨ ، وقد نزلت بعد سورة النور :

٢٣ — سورة المؤمنون مكية ، وعدد آياتها ١١٨ ، وقد نزلت بعد سورة الأنبياء :

٢٤ — سورة النور مدنية ، وعدد آياتها ٦٤ ، وقد نزلت بعد سورة الحشر :

٢٥ — سورة الفرقان ، مكية ، ما عدا الآيات ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ فمدنية ، وعدد آياتها ٧٧ : وقد نزلت بعد سورة يس :

٢٦ — سورة الشعراء ، مكية ، ماعدا الآيات ١٩٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ فمدنية ، وعدد آياتها ٢٢٧ ، وقد نزلت بعد سورة الواقعة :

٢٧ — سورة النمل ، مكية ، وعدد آياتها ٩٣ ، وقد نزلت بعد سورة الشعراء :

٢٨ — سورة القصص ، مكية ، ماعدا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٨٥ ، فقد نزلت بالجحفة فى أثناء الهجرة ، وعدد آياتها ٨٨ ، وقد نزلت بعد سورة النمل .

٢٩ — سورة العنكبوت ، مكية ، ماعدا الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١ فمدنية ، وعدد آياتها ٦٩ ، وقد نزلت بعد سورة الروم :

٣٠ — سورة الروم ، مكية ، ماعدا الآية ١٧ فمدنية ، وعدد آياتها ٦٠ ، وقد نزلت بعد سورة الإنشقاق .

٣١ — سورة لقمان ، مكية ، ماعدا الآيات ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ فمدنية ، وعدد آياتها ٣٤ ، وقد نزلت بعد سورة الصافات .

٣٢ — سورة السجدة ، مكية ، ماعدا الآيات ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ فمدنية ، وعدد آياتها ٣٠ ، وقد نزلت بعد سورة المؤمنون .

٣٣ — سورة الأحزاب ، مدنية ، وعدد آياتها ٧٣ ، وقد نزلت بعد سورة آل عمران .

٣٤ — سورة سبأ ، مكية ، ماعدا الآية ٦ فمدنية ، وعدد آياتها ٥٤ ، وقد نزلت بعد سورة لقمان .

٣٥ — سورة فاطر ، مكية ، وعدد آياتها ٤٥ ، وقد نزلت بعد سورة الفرقان .

٣٦ — سورة يس ، مكية ، ماعدا الآية ٤٥ فمدنية ، وعدد آياتها ٨٣ ، وقد نزلت بعد سورة الجن .

٣٧ — سورة الصافات ، مكية ، وعدد آياتها ١٨٢ ، وقد نزلت بعد سورة الأنعام .

٣٨ — سورة ص ، مكية ، وعدد آياتها ٨٨ ، وقد نزلت بعد سورة القمر .

٣٩ — سورة الزمر ، مكية ، ماعدا الآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ فمدنية ، وعدد آياتها ٧٥ ، وقد نزلت بعد سورة سبأ .

٤٠ — سورة غافر ، مكية ، ماعدا الآيتين ٥٦ ، ٥٧ فمدنيتان ، وعدد آياتها ٨٥ ، وقد نزلت بعد سورة الزمر .

٤١ — سورة فصلت، مكية ، وعدد آياتها ٥٤ ، وقد نزلت بعد سورة غافر :

٤٢ — سورة الشورى، مكية ، ما عدا الآيات ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، فمدنية ، وعدد آياتها ٥٣ ، وقد نزلت بعد سورة فصلت :

٤٣ — سورة الزخرف، مكية ، ما عدا الآية ٥٤ فمدنية ، وعدد آياتها ٨٩ ، وقد نزلت بعد سورة الشورى :

٤٤ — سورة الدخان، مكية ، وعدد آياتها ٥٩ ، وقد نزلت بعد سورة الزخرف :

٤٥ — سورة الجاثية، مكية ، ماعدا الآية ١٤ فمدنية ، وعدد آياتها ٣٧ ، وقد نزلت بعد سورة الدخان :

٤٦ — سورة الأحقاف، مكية ، ما عدا الآيات ١٠ ، ١٥ ، ٣٥ فمدنية ، وعدد آياتها ٣٥ ، وقد نزلت بعد سورة الجاثية :

٤٧ — سورة محمد، مدنية ، ماعدا الآية ١٣ فقد نزلت فى الطريق أثناء الهجرة ، وعدد آياتها ٣٨ ، وقد نزلت بعد سورة الحديد :

٤٨ — سورة الفتح، مدنية ، وقد نزلت فى الطريق عند الانصراف من الحديبية ، وعدد آياتها ٢٩ ، وقد نزلت بعد سورة الجمعة :

٤٩ — سورة الحجرات، مدنية ، وعدد آياتها ١٨ ، وقد نزلت بعد سورة المجادلة :

٥٠ — سورة ق، مكية ، ما عدا الآية ٣٨ فمدنية ، وعدد آياتها ٤٥ ، وقد نزلت بعد سورة المرسلات :

٥١ — سورة الذاريات ،مكية ، وعدد آياتها ٦٠ ، وقد نزلت بعد سورة الأحقاف ؛

٥٢ — سورة الطور ،مكية ، وعدد آياتها ٤٩ ، وقد نزلت بعد سورة السجدة ؛

٥٣ — سورة النجم ،مكية ، ما عدا الآية ٣٢ فمدنية ، وعدد آياتها ٦٢ ، وقد نزلت بعد سورة الإخلاص ؛

٥٤ — سورة القمر ،مكية ، ما عدا الآيات ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ فمدنية ، وعدد آياتها ٥٥ ، وقد نزلت بعد سورة الطارق ؛

٥٥ — سورة الرحمن ،مدنية ، وعدد آياتها ٧٨ ، وقد نزلت بعد سورة الرعد ؛

٥٦ — سورة الواقعة ،مكية ، ما عدا الآيتين ٨١ ، ٨٢ فمدنيتان ، وعدد آياتها ٩٦ ، وقد نزلت بعد سورة طه .

٥٧ — سورة الحديد ،مدنية ، وعدد آياتها ٢٩ ، وقد نزلت بعد سورة الزلزلة ؛

٥٨ — سورة المجادلة ،مدنية ، وعدد آياتها ٢٢ ، وقد نزلت بعد سورة المنافقين ؛

٥٩ — سورة الحشر ،مدنية ، وعدد آياتها ٢٤ ، وقد نزلت بعد سورة البينة ؛

٦٠ — سورة الممتحنة ،مدنية ، وعدد آياتها ١٣ ، وقد نزلت بعد سورة الأحزاب ؛

٦١ — سورة الصف، مدنية ، وعدد آياتها ١٤ ، وقد نزلت بعد سورة التغابن .

٦٢ — سورة الجمعة، مدنية ، وعدد آياتها ١١ ، وقد نزلت بعد سورة الصف .

٦٣ — سورة المنافقون، مدنية ، وعدد آياتها ١١ ، وقد نزلت بعد سورة الحج .

٦٤ — سورة التغابن، مدنية ، وعدد آياتها ١٨ ، وقد نزلت بعد سورة التحريم .

٦٥ — سورة الطلاق، مدنية ، وعدد آياتها ١٢ ، وقد نزلت بعد سورة الإنسان .

٦٦ — سورة التحريم، مدنية ، وعدد آياتها ١٢ ، وقد نزلت بعد سورة الحجرات .

٦٧ — سورة الملك، مكية ، وعدد آياتها ٣٠ ، وقد نزلت بعد سورة الطور .

٦٨ — سورة القلم، مكية ، ماعدا الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ فمدنية ، وعدد آياتها ٥٢ ، وقد نزلت بعد سورة العلق .

٦٩ — سورة الحاقة، مكية ، وعدد آياتها ٥٢ ، وقد نزلت بعد سورة الملك .

٧٠ — سورة المعارج، مكية ، وعدد آياتها ٤٤ ، وقد نزلت بعد سورة الحاقة .

٧١ — سورة نوح، مكية ، وعدد آياتها ٢٨ ، وقد نزلت بعد سورة النحل .

٧٢ — سورة الجن، مكية ، وعدد آياتها ٢٨ ، وقد نزلت بعد سورة الأعراف .

٧٣ — سورة المزمّل، مكية ، ما عدا الآيات ١٠ ، ١١ ، ٢٠ فمدنية ، وعدد آياتها ٢٠ ، وقد نزلت بعد سورة القلم .

٧٤ — سورة المدّثر، مكية ، وعدد آياتها ٥٦ وقد نزلت بعد سورة المزمّل .

٧٥ — سورة القيامة ،مكية ، وعدد آياتها ٤٠ ، وقد نزلت بعد سورة القارعة .

٧٦ — سورة الإنسان، مدنية ، وعدد آياتها ٣١ ، وقد نزلت بعد سورة الرحمن .

٧٧ — سورة المرسلات،مكية ، ما عدا الآية ٤٨ فمدنية ، وعدد آياتها ٥٠ ، وقد نزلت بعد سورة الهمزة .

٧٨ — سورة النبأ،مكية ، وعدد آياتها ٤٠ ، وقد نزلت بعد سورة المعارج .

٧٩ — سورة النازعات، مكية ، وعدد آياتها ٤٦ ، وقد نزلت بعد سورة النبأ .

٨٠ — سورة عبس،مكية ، وعدد آياتها ٤٢ ، وقد نزلت بعد سورة النجم .

٨١ — سورة التكوير،مكية ، وعدد آياتها ٢٩ ، وقد نزلت بعد سورة المسد .

٨٢ — سورة الإنفطار،مكية ، وعدد آياتها ١٩ ، وقد نزلت بعد سورة النازعات .

٨٣ — سورة المطففين،مكية ، وعدد آياتها ٣٦ ، وهي آخر سورة نزلت بمكة ، وقد نزلت بعد سورة العنكبوت .

٨٤ — سورة الانشقاق،مكية ، وعدد آياتها ٢٥ ، وقد نزلت بعد سورة الانفطار .

٨٥ — سورة البروج،مكية ، وعدد آياتها ٢٢ ، وقد نزلت بعد سورة الشمس .

٨٦ — سورة الطارق،مكية ، وعدد آياتها ١٧ ، وقد نزلت بعد سورة البلد .

٨٧ — سورة الأعلى،مكية ، وعدد آياتها ١٩ ، وقد نزلت بعد سورة التكوير .

٨٨ — سورة الغاشية،مكية ، وعدد آياتها ٢٦ ، وقد نزلت بعد سورة الذاريات .

٨٩ — سورة الفجر،مكية ، وعدد آياتها ٣٠ ، وقد نزلت بعد سورة الليل .

٩٠ — سورة البلد،مكية ، وعدد آياتها ٢٠ ، وقد نزلت بعد سورة ق .

٩١ — سورة الشمس،مكية ، وعدد آياتها ١٥ ، وقد نزلت بعد سورة القدر .

٩٢ — سورة الليل،مكية ، وعدد آياتها ٢١ ، وقد نزلت بعد سورة الأعلى .

٩٣ — سورة الضحى،مكية ، وعدد آياتها ١١ ، وقد نزلت بعد سورة الفجر .

٩٤ — سورة الشرح،مكية ، وعدد آياتها ٨ ، وقد نزلت بعد سورة الضحى .

٩٥ — سورة التين،مكية ، وعدد آياتها ٨ ، وقد نزلت بعد سورة البروج .

٩٦ — سورة العلق،مكية ، وعدد آياتها ١٩ ، وهي أول ما نزل من القرآن .

٩٧ — سورة القدر،مكية ، وعدد آياتها ٥ ، وقد نزلت بعد سورة عبس .

٩٨ — سورة البينة،مدنية ، وعدد آياتها ٨ ، وقد نزلت بعد سورة الطلاق .

٩٩ — سورة الزلزلة،مدنية ، وعدد آياتها ٨ ، وقد نزلت بعد سورة النساء .

١٠٠— سورة العاديات ، مكية ، وعدد آياتها ١١ ، وقد نزلت بعد سورة العصر .

١٠١— سورة القارعة ، مكية ، وعدد آياتها ١١ ، وقد نزلت بعد سورة قريش .

١٠٢— سورة التكاثر ، مكية ، وعدد آياتها ٨ ، وقد نزلت بعد سورة الكوثر .

١٠٣— سورة العصر ، مكية ، وعدد آياتها ٣ ، وقد نزلت بعد سورة الشرح .

١٠٤— سورة الهمزة ، مكية ، وعدد آياتها ٩ ، وقد نزلت بعد سورة القيامة

١٠٥— سورة الفيل ، مكية ، وعدد آياتها ٥ ، وقد نزلت بعد سورة الكافرين .

١٠٦— سورة قريش ، مكية ، وعدد آياتها ٤ ، وقد نزلت بعد سورة التين .

١٠٧— سورة الماعون ، مكية ، وعدد آياتها ٧ ، والثلاث الآيات الأولى منها مكية والأربعة الأخيرة منها مدنية ، وقد نزلت بعد سورة التكاثر .

١٠٨— سورة الكوثر ، مكية ، وعدد آياتها ٣ ، وقد نزلت بعد سورة العاديات .

١٠٩— سورة الكافرون ، مكية ، وعدد آياتها ٦ ، وقد نزلت بعد سورة الماعون .

١١٠– سورة النصر ، تعد مدنية ، لأنها نزلت بمنى فى حجة الوداع ، وهى آخر ما نزل من السور ، وعدد آياتها ٣ ، وقد نزلت بعد سورة التوبة .

١١١– سورة المسد ، مكية ، وعدد آياتها ٥ ، وقد نزلت بعد سورة الفاتحة .

١١٢– سورة الإخلاص ، مكية ، وعدد آياتها ٤ ، وقد نزلت بعد سورة الناس .

١١٣– سورة الفلق ، مكية ، وعدد آياتها ٥ ، وقد نزلت بعد سورة الفيل .

١١٤– سورة الناس ، مكية ، وعدد آياتها ٦ ، وقد نزلت بعد سورة الفلق .

الفصل الثالث

جمع القرآن وتدوينه

كان تدوين آى القرآن الكريم موضع العناية الواضحة من الرسول صلى الله عليه وسلم ، منذ اللحظة الأولى ، فى صور من الاحتياط القوى ، أولها كتابة القرآن نفسه بالقدر الذى تسمح به الظروف الواقعة للحياة العربية الإسلامية ، ولعل ذلك قد بدأ منذ العهد المكى نفسه ، إذ نذكر فى الرواية الشائعة التى تقص عن إسلام عمر بن الخطاب أنه وجد فى يد أخته فاطمة (صحيفة) فيها آيات من القرآن ، وكان بينه وبينها ما كان مما أدى إلى إسلامه .

وكانت مكة — كما ذكر الأزرقى — طريق تجارة تدون حساباتها ووثائقها ، ومن هنا ما يروى عن وجود رجال كاتبين فى مكة ، بل وجود نساء كاتبات ، فان السيدة حفصة بنت عمر ، زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ، مثلا — كانت تعرف الكتابة .

وتبدو عناية الرسول بنشر الكتابة فى مجتمعه الجديد مما نعرفه من جعل تعليم الكتابة للمسلمين بدلا يفدى به الأسرى أنفسهم من الأسر فى غزوة بدر .

وكان للرسول كتبة وحى يكتبون بين يديه القرآن ، ويكتبون رسائله ، وقد بلغ عددهم إلى بضعة وعشرين شخصاً .

وقد نهى الرسول عن كتابة شئ آخر غير القرآن مما يسمعونه منه ، لئلا يختلط شئ من ذلك بالقرآن .

أخرج مسلم فى صحيحه من حديث أبى سعيد قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تكتبوا عنى شيئاً غير القرآن) .

وعلق السيوطى على هذا الحديث بقوله : « لا ينافى ذلك ، لأن الكلام فى كتابة مخصوصة على صفة مخصوصة . وقد كان القرآن كتب كله فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن غير مجموع فى موضع واحد ولا مرتب السور » . ونظل نجد أثر الأنتباه إلى هذا المعنى من المحافظة على النص القرآنى المكتوب من أن يشوبه شئ غيره ، فيروى أن عمر بن الخطاب ، فى خلافته ، يفكر فى كتابة السنة ، ويستشير الصحابة فيشيرون عليه بالكتابة . فيمضى عمر شهراً فى الاستخارة حتى يصبح يوماً — وقد عزم الله له — فلا يريد أن يكتب السنن . . إذ ذكر قوماً كانوا قبلهم ، كتبوا كتباً ، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله . وأنه والله لا يشوب كتاب الله بشئ أبداً(١) » .

فالقرآن — على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم — كان يكتب شيئا فشيئا وكان بعض كتابه يلازمونه للكتابة بين يديه فى الوحى وغيره . . ومن هؤلاء الملازمين معاوية بن أبى سفيان ، وزيد بن ثابت ، ثم الصحابة .

كان الكاتبون منهم يكتبون القرآن ولا يخلطون به غيره من النصوص الدينية ، ومن لا يكتب منهم كان يحفظ شفاها . وتنقل

(١) ابن عبد البر : جامع بيان العلم ، جـ ١ ، ص ٦٤ .

الرواية أسماء هؤلاء الذين كانوا يحفظون القرآن كله قبل أن يفارق الرسول صلى الله عليه وسلم الدنيا . فهم أربعة فى رواية ، وستة أو سبعة فى أخرى ، وأكثر من ذلك فى روايات ، وأشهر من تتفق الروايات على حفظهم القرآن كله هم : عثمان بن عفان ، وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل(1) .

وجاء فى « كتاب تاريخ القرآن »(2) :

« كان الكتبة يكتبون الآيات فى العسب واللخاف والرقاع ، وأحياناً فى الحرير وقطع الأدم والأكتاف على عادة العرب بالكتابة على تلك الأشياء . وكانت تطلق عليها الصحف . وكانت من تلك الصحف تكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتوضع فى بيته » .

اختار الرسول الرفيق الأعلى ، والقرآن فى الصدور وفيما كتبوه عليه ، ثم نهض أبو بكر بأمر الإسلام وكانت فى مدته حروب الردة ومنها واقعة اليمامة والمحاربون أكثرهم من الصحابة ومن القراء ، فقتل فى هذه المعركة وحدها سبعون قارئاً من الصحابة (ويقال سبعمائة) فهال ذلك عمر بن الخطاب فدخل على أبى بكر فقال :

— إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم باليمامة يتهافتون تهافت الفراش فى النار وإنى أخشى أن لا يشهدوا موطناً إلا فعلوا ذلك حتى يقتلوا وهم حملة القرآن فيضيع القرآن وينسى ولو جمعته وكتبته .

(1) الزركشى : البرهان ، ج 1 ، ص 241 ، 243 .
(2) عبد الله الزنجانى : تاريخ القرآن ، ص 22 .

فنفر منها أبو بكر وقال : أفعل ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتراجعا فى ذلك ثم أرسل أبو بكر إلى زيد بن ثابت ، قال زيد : فدخلت عليه وعمر مسزبل ، فقال لى أبو بكر : إن هذا قد دعانى إلى أمر فأبيت عليه وأنت كاتب الوحى فإن تكن معه اتبعتكما وإن توافقنى لا أفعل . فاقتص أبو بكر قول عمر . وعمر ساكت فنفرت من ذلك وقلت : يفعل ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ إلى أن قال عمر ، كلمة ، وما عليكما لو فعلتما ذلك ؟ فذهبنا ننظر فقلنا : لا شىء ، والله ما علينا فى ذلك شىء .

قال زيد : فأمرنى أبو بكر فكتبته فى قطع الأدم وكسر الأكتاف والعسب(١) .

قال زيد : فوالله لو كلفونى نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علىّ مما أمرنى به فى جمع القرآن .

قلت : فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر . فتتبعت القرآن أجمعه فى العسب واللخاف (٢) وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبى خزيمة الأنصارى ولم أجدها مع غيره :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ..) إلى آخر براءة . أى لم أجدها مكتوبة مع غيره لأنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة (٣) .

(١) العسب جمع عسيب ، وهو جريد النخل كانوا يكشطون الخوص عنه ويكتبون فى الطرف العريض . (٢) اللخاف جمع لخفة ، بفتح فسكون ، وهى صفائح الحجارة .
(٣) السيوطى : الاتقان ، ج ١ ، ص ٧٣ .

وقد أخرج ابن أشتة فى المصاحف عن الليث بن سعد قال : أول من جمع القرآن أبو بكر وكتبه زيد وكان الناس يأتون زيد بن ثابت فكان لا يكتب آية إلا بشاهدى عدل وأن آخر سورة براءة لم توجد إلا مع أبى خزيمة بن ثابت فقال اكتبوها فان رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل شهادته بشهادة رجلين .

فى هذه الظروف المسعفة كلها كتبت نسخة كاملة من القرآن ، إذ عهد إلى زيد بن ثابت بجمع القرآن ، وهو رجل ممن حفظوا الكتاب كله ، وحوله بضعة نفر يحفظونه كله مثل حفظه له ، وحوله مئات أو آلاف يحفظون متفرقات منه تصلح بمجموعها مرجعاً دقيقا لرقابة كل منهم على ما يحفظه . وهذا الرجل الجامع كاتب يعرف القراءة والكتابة . وقد مارس كتابة هذا القرآن مع الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم .

وإذا ما تمثلنا هذه الظروف كلها ، واستكملت الصورة الواضحة القسمات لها ، فهل من عجب أن يكلف زيد بن ثابت وحده ، بظروفه الخاصة وظروف الحياة العامة ، أن يفرغ لكتابة مجموعة من القرآن الذى يحفظه فى صحف سهلة التضام ، ممكنة الحفظ ، تكون أصلا محفوظاً مكتوباً لكتاب الدين الذى يوجد منه ما يوجد من المكتوب المدون ، والذى تضبطه ذاكرة حافظة قوية الحفظ لأتباع هذا الدين ؟.

ما أحسب أن شيئا من الغرابة فى أن يكتب زيد بن ثابت ، حتى من حافظته هو وحده ، نسخة من القرآن ، فكيف إذا رجع إلى المكتوب ، ورجع إلى حفظ الحفاظ الآخرين ، على أى وجه كان هذا الرجوع ؟

إن الحال التى تم فيها وبها هذا الجمع تهيىء من الاطمئنان إلى المجموع ما لا يكاد يتوافر مثله على التاريخ لما حفظت البشرية من نصوص وأصول (١) .

بقيت الصحف التى كتب فيها القرآن عند أبى بكر ينتظر بها وقتها أن يحين حتى إذا توفى سنة ١٣ هـ صارت بعده إلى عمر بن الخطاب فكانت عنده حتى مات ثم كانت عند حفصة ابنته صدراً من ولاية عثمان بن عفان .

روى البخارى عن أنس أن حذيفة بن اليمان ، قدم على عثمان وكان يغازى أهل الشام فى فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة . فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى .

فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف ثم نردها إليك .

فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها فى المصاحف .

وقال عثمان لرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم (٢) .

---

(١) أمين الخولى — القرآن — دائرة معارف الشعب ، جـ ١ ، ص ١٨ .
(٢) الاتقان ، جـ ١ ، ص ٧٤ .

ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ، رد عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل عثمان إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق .

وإنما أراد عثمان بن عفان بذلك حسم مادة الاختلاف لأنه أمر يمد مع الزمن و تتشعب الأيام به وهو إن أمن فى عصره لم يدر ما يكون بعد عصره وقد أدرك أن العرب لا يستمرون عرباً على الإختلاط والفتوح وأن الألسنة تنتقل واللغات تختلف ثم هورأى ما وقع فى الشعر وروايته وأن الاختلاف كان باباً إلى الزيادة والابتداع فلم يفعل شيئاً أكثر من أنه حصن القرآن وأحكم الأسوار حوله ومنع الزمن أن يتطرق إليه بشىء وجعله بذلك فوق الزمن(١) .

ولم تكن المصاحف التى كتبت قبل مصحف عثمان على هذا الترتيب المعروف فى السور إلى اليوم إنما هو ترتيب عثمان . أما فيما وراء ذلك فقد رووا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزلت آية دعا بعض من يكتب فقال ضعوا هذه الآية فى الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا فكان القرآن مرتب الآيات غير أنه لم يكن مجموعاً بين دفتين فلا يؤمن أن يضطرب نسق مجموعه فى أيدى الناس باضطراب القطع التى كتب فيها تقديما وتأخيراً . ولم يلزم الناس القراءة يومئذ بتوالى السور وذلك أن الواحد منهم إذا حفظ سورة أو كتبها ثم خرج فى سرية فنزلت سورة أخرى فإنه كان إذا رجع يأخذ فى حفظ ما ينزل بعد رجوعه وكتابته وتتبع ما فاته حسب ما تسهل له أكثره

(١) مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن ، ص ٤٣ .

أو أقله فمن ثم يقع فيما يكتبه تأخير المقدم وتقديم المؤخر ، فلما جمعه أبو بكر كتبوه على ما وقفهم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم كانوا فى أيام عمر بن الخطاب يكتبون بعض المصاحف منسقة السور على ترتيب ابن مسعود وترتيب أبى بن كعب . وقال ابن فارس إن السور فى مصحف على كانت مرتبة على النزول فكان أوله سورة اقرأ باسم ربك .: ثم المدثر ثم نون ثم المزمل ثم تبت ثم التكوير وهكذا إلى آخر المكى والمدنى .

أما ترتيب مصحف عثمان فهو نسق زيد بن ثابت .

قال البغوى فى شرح السنة : الصحابة (١) رضى الله عنهم جمعوا بين الدفتين القرآن الذى أنزله الله على رسوله من غير أن زادوا أو نقصوا منه شيئا خوف ذهاب بعضه بذهاب حفظته فكتبوه كما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير أن قدموا شيئا أو أخروا أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقن أصحابه ويعلمهم ما نزل عليه من القرآن على الترتيب الذى هو الآن فى مصاحفنا بتوقيف جبريل إياه على ذلك وإعلامه عند نزول كل آية أن هذه الآية تكتب عقب آية كذا فى سورة كذا فثبت أن سعى الصحابة كان جمعه فى موضع واحد لا فى ترتيبه فان القرآن مكتوب فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب أنزله الله جملة إلى السماء الدنيا ثم كان ينزله مفرقا عند الحاجة وترتيب النزول غير ترتيب التلاوة .

(١) الاتقان : ج ١ ، ص ٧٧ .

يتألف القرآن من ثلاثين جزءا ، وكل جزء يتألف من ثمانية أرباع ، تتوزع بينها سور القرآن البالغ عددها مائة وأربع عشرة سورة ، وقد بينا أن ترتيب هذه السورة بآياتها المقدرة لها ، قد تم وعرف فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعرفت سور بأسمائها ، وروى أكثر من اسم للسورة الواحدة :

وأما هذه التجزئة إلى ثلاثين فمن عمل العلماء ، مع ما عرف لهم من التتبع المستقصى لهذا القرآن : يعدون آياته ، بل يعدون كلماته وحروفه ، كما يلحظون خصائص فى ذلك كله .

ومع هذه العناية المناسبة لمكانة القرآن فى حياة الإسلام والمسلمين ، كانت تجزئاتهم للقرآن ، وأشهرها هذه التجزئة إلى ثلاثين جزءا ، وقد يقسمون الجزء إلى قسمين يسمون الواحد حزبا ... ويتتبعون ذلك كله بالبيان المفصل ، والآية التى يبدأ بها كل جزء وحزب ، وما إلى ذلك ... وهم يقصدون إلى توزيع الحفظ وتيسيره على القارئين لا أكثر ، مع رغبتهم فى المعرفة التفصيلية لكل ماحواه هذا الكتاب المبين [1] ؛

---

(1) دائرة معارف الشعب ، ج ١ ، ص ٣٤ .

الفصل الرابع

نظرات في القرآن

— ١ —

القرآن معجزة الرسول الأعظم ....وقد تحدى محمد رسول الله النبي العربي الأمي العرب بإعجازه ، وحكى لهم عن ربه القطع بعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله ، فظهر عجزهم على شدة حرص بلغائهم على إبطال دعوته ، واجتثاث نبتته ، ونقل جميع المسلمين هذا التحدى إلى جميع الأمم فظهر عجزها أيضا .

كان سادة قريش يجتمعون كثيراً ، ويطيلون البحث والجدال فى شأن الرسول وفى شأن هذا القرآن الذى ينزل عليه ...

اجتمع الوليد بن المغيرة وسادة قريش ، وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر موسم الحج ، فقال لهم :

— يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأيا واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا ، ويرد قولكم بعضه بعضا .

قالوا : -

— فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقل به .

قال :

— بل أنتم فقولوا أسمع .

قالوا :

— نقول : كاهن .

قال :

— لا والله ، ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة[١] ولا سجعه .

قالوا :

— فنقول : مجنون .

قال :

— ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته[٢] .

قالوا :

— فنقول : شاعر .

قال :

— ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه[٣] . فما هو بالشعر .

---

(١) زمزمة الكاهن : كلام خفى لا يفهم ، وسجعه أن يجعل لكلامه المنثور نهايات كنهايات الشعر .

(٢) الخنق : الاختناق الذى يصيب المجنون ؛ والتخالج : اختلاج الأعضاء وتحركها من غير إرادة ، والوسوسة ؛ ما يلقيه الشيطان فى نفس الإنسان .

(٣) هذه كلها أنواع من الشعر .

قالوا :

— فنقول : ساحر .

قال :

— ما هو بساحر لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم (١) .

قالوا :

— فما نقول يا آبا عبد شمس ؟

قال :

— والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا هو ساحر جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته . فتفرقوا عنه بذلك ؛ فجعلوا يجلسون بسبل الناس — حين قدموا موسم الحج — لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره .

فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة وفى ذلك من قوله : (٧٤ : ١١ — ٢٥) :

« ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا ، وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا

(١) بنفثهم ولا عقدهم : هذا إشارة إلى ما كان يفعل الساحر ، إذ كان يأخذ خيطاً فيعقده ثم ينفث عليه ، ومن ذلك قوله تعالى : « ومن شر النفاثات فى العقد » أراد الساحرات .

إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ » .

بيد أن هذا الحصار الذى ضربته الارستقراطية القرشية على دعوة الرسول ، وهذا الإنذار الذى وجهته قريش لكبرائها وسادتها .. كل أولئك لفت نظر وفود الجزيرة العربية إلى الرسول وحرصوا أشد الحرص على أن يعلموا من أمره كل شيء ، فذاع ذكره ، وانتشر أمره ، على ألسنة هذه الوفود بين قبائل العرب جميعاً .

وأدركت الارستقراطية القرشية أن أساليبها فى صد الدعوة المحمدية عن المضى فى طريقها لم يقدر لها النجاح ، وأنه لا بد من عمل آخر ، وخصوصا وقد فشا الإسلام فى مكة ..

تشاوروا على عادتهم ، وانتدبوا عتبة بن ربيعة لكى يذهب إلى الرسول يفاوضه فى ترك هذه الدعوة .

قال عتبة (١) : يا ابن أخى ، إنك منا حيث قد علمت : من السطة (٢) فى العشيرة والمكان فى النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها »

(١) ابن هشام ، ج ١ ، ص ٣١٣ .
(٢) السطة : بكسر السين وفتح الطاء مخففة : المنزلة الرفيعة .

فقال له الرسول : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

قال الرسول : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم .

قال الرسول : فاستمع منى .

قال : أفعل .

قال الرسول : (٤١ : ١ - ٥) :

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، حٰمٓ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ . وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » .

ثم مضى الرسول فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت إليها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه ، ثم انتهى الرسول إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال :

— قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

— نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا :

— ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعونى ، واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم : فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم .

* * *

وجدت قريش أن دخولها فى محاورات مع الرسول لن تجديها شيئا ، فإنها دائماً تعود مهزومة مدحورة ، إذ لا قبل لها بتحدى القرآن العظيم وسلطانه على النفوس والقلوب وجمعت أمرها على أن تلجأ إلى ما نسميه اليوم المقاومة السلبية بأن تمتنع عن سماع القرآن بتاتاً .

روى ابن إسحق(١) : جعلوا إذا جهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن وهو يصلى يتفرقون عنه ، ويأبون أن يستمعوا له ، وكان الرجل منهم إذا أراد أن يستمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ما يتلو من القرآن وهو يصلى استرق السمع دونهم فرقاً منهم ؛ فإن

(١) ابن هشام ، ج ١ ، ص ٣٣٦ .

رأى أنهم قدعرفوا أنه يستمع منه ذهب خشية آذاهم ، فلم يستمع : وإن خفض رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته فظن الذى يستمع أنهم لايستمعون شيئا من قراءته وسمع هو شيئا دونهم أصاخ له يستمع منه؛

وقد روى عبد الله بن عباس : إنما أنزلت هذه الآية : « ولاتجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » من أجل أولئك النفر؛

وإذا كان سادة قريش قد دعوا أهل مكة إلى الانصراف عن سماع القرآن فما كانت بهم هم طاقة على تنفيذ هذا الأمر لما يحسون فى أعماق قلوبهم من رقة ومن شغف لسماع هذا التنزيل الذى لا عهد لهم به ؛

روى ابن إسحق (١) : أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئا ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا ،

---

(١) المصدر السابق ، ص ٣٣٧ .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان فى بيته ، فقال :

— أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها .

قال الأخنس : وأنا والذى حلفت به كذلك ؟

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه فى بيته ، فقال :

— يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذبنا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يأتيه الوحى من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ، ولا نصدقه .. فقام عنه الأخنس وتركه .

وهكذا كانت قريش فى حيرة من أمرها ، ترق قلوبها للقرآن ولكن نزاع العصبية وشارات الرياسة وأوضاع الجاهلية كل ذلك كان يحجبها عن الإسلام وعن اتباع الرسول الكريم ؟

حاولت قريش أن تمنع الناس من سماع القرآن ، والتأثر به ،

فاصطنعت القصاص الذين يحفظون قصص الفرس لكى يتلوها (١) .
كما أن سويد بن الصامت عرض على الرسول مجلة لقمان التى تتضمن حكمه ، فلما تلى عليه الرسول آيات من القرآن ، قال سويد : إن هذا القول حسن ،.. ثم طوى صحفه وانصرف .

ولقد دعا القرآن قريشا إلى أن تحاول محاكاته ، وأن تجتهد ما وسعها الاجتهاد فى الإتيان بسورة أو آية من مثله ، وأباح لهم فى كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا .

قال لهم فى سورة : القصص (٢) :

— « قُلْ : فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ

---

(١) روى ابن اسحق : كان النضر بن الحرث من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله خلفه فى مجلسه إذا قام ، ثم قال : أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثاً منه فهلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار ، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثاً منى .

قال ابن عباس : نزل فيه ثمان آيات من القرآن . قول الله عز وجل (٦٨ : ١٥) : « إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين » وكل ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن .
« ابن هشام : ج ١ ، ص ٣٢٠ » .

(٢) القصص : ٤٩ — ٥٠ .

أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالمين » .

وفى سورة الإسراء :

– « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » .

وفى سورة هود :

– « أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

وفى سورة يونس :

– « وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ » .

وفى سورة الطور :

– أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ . فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ » .

وفى سورة البقرة :

– « وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا – وَلَنْ تَفْعَلُوا – فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » .

لقد تدرجت دعوة التحدى كما هو بين فى ترتيب الآيات الذى اخترناه ، فبدأ بأن طلب منهم إنشاء كتاب مثل هذا الكتاب ، وحارت قريش فى أمرها لا تدرى كيف تأتى بكلام مثل هذا الكلام ، ويبدو أنها حاولت أن ترد على هذا التحدى فعجزت ، ولذا قال القرآن لهم إنهم لن يستطيعوا ، ولن يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثل هذا القرآن .

ومضى القرآن فى تحديه فلم يطالب بكتاب ، ولكن طالب بعشر سور كما فى سورة هود .

ثم مضى خطوة أخرى فطالب بسورة واحدة – كما فى سورة يونس ..

كانت الدواعى تدفع إلى هذه المعارضة ، لإبطال دعوى الرسول ، والإبقاء على ما كانوا يعبدونه من دونه الله ، وتشتد حاجتهم إلى هذه المعارضة حتى لا يحملوا السلاح دفاعا عن معتقداتهم ، « فلما لم تقع المعارضة دل ذلك على العجز (١) منها » .

(١) أبو الحسن الرمانى ، النكت فى إعجاز القرآن ، ص ٦٩ .

ويرى الرمانى أنه متى ثبت أن العرب الذين نزل فيهم القرآن قد عجزوا عن المجىء بمثل القرآن ، فقد ثبت أنه معجز للجميع ، لأن العرب على البلاغة أقدر ، فإذا عجزوا عن ذلك فالمولدون عنه أعجز .

— ٢ —

القرآن — كقوله تعالى جل شأنه — عربى مبين . وقد نزل بلسان قريش . إذ كانت لغة قريش أفضل ما لدى العرب من لهجات ولغات ، فقد تهيأ لها من التهذيب والتنقيح مالم يتهيأ لسواها ، كما شرفت قبيلتها على سائر القبائل بمجاورة البيت العتيق وما كان لها من عمارة المسجد والحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة ؛ فجاءت لذلك لغة قريش حلوة الجرس ، دقيقة الوضع ، محكمة النظم ..

ومن اللغات التى نزل بها القرآن المجيد لهجة بنى سعد لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان قد استرضع فيهم ، وهى إحدى لغات العجز من هوازن ، وفيهم يقول أبو عمرو بن العلاء : أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش ، وأنى نشأت فى بنى سعد بن بكر » .

وقد جاء فى القرآن بعض ألفاظ لغات أخرى عربية ، كلغة بنى عبس ، كما جاء فيه ألفاظ معربة لها نظائرها التى يمكن أن ترجع إليها فى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة ... ومن هذه الألفاظ على سبيل المثال : جهنم ، السندس ، الاستبرق ... وغيرها .

وقد أفرد السيوطى لذلك فصلا خاصاً فى كتاب « الإتقان » قرر فيه أن العلماء فى حدود النظر إلى هذه الألفاظ قسمان : قسم يرى أنه ليس فى القرآن مطلقاً لفظ غير عربى لقوله تعالى :

« إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون » . ونحو ذلك من الآيات، ومن هذا الفريق الإمام الشافعى ، وابن جرير الطبرى .

والقسم الآخر يرى جواز أن يكون فى القرآن ألفاظ معربة ترجع فى أصولها إلى لغات غير لغة العرب ، ويذهب هذا الرأى إلى أن العرب متى نطقوا بكلمة أعجمية واستعملوها فى لغتهم وصقلوها على ألسنتهم ، وأجروها طبقاً لأوزانهم ، ونواميس كلامهم ؛ فقد صارت بتصرفهم فيها واستعمالهم لها عربية ، أو على وجه من الدقة معربة — ويكون حكمها اللغوى حكم ما سواها من الألفاظ التى وضعها العرب بداءة وبداهة ، وإلى هذا الرأى يميل السيوطى .

وخلاصة الرأى عندنا أن كل ما ورد فى القرآن المجيد من الألفاظ المعربة إنما هى من مشترك اللغات ، وأنها باستعمالها وصقلها فى لغة العرب قد صارت عربية خالصة .

وفيما يلى بيان ما ورد فى القرآن من الألفاظ التى اشتركت فيها اللغة العربية مع غيرها من اللغات والتى قال بعض العلماء عنها إنها معربة ، مع ذكر اللغة الأجنبية التى استعملت فيها هذه الألفاظ ، ومعناها فى اللغة العربية والأجنبية ، مرتبة على حسب السور والحروف الهجائية :

السورة	اللفظ فى السورة ومعناه	اللغة الأعجمية الوارد فيها اللفظ والمعنى
الفاتحة	الصراط : الطريق المستقيم	الرومية : الطريق
البقرة	أليم : موجع مؤلم	العبرية : موجع مؤلم
	حطة : توبة ومغفرة	العبرية : صواب
	راعنا : « بلغة الأنصار » احفظ مصلحتنا	العبرية والسريانية : كلمة سب تفيد الوصف بالرعونة والحماقة
	سجدا : خشعا متواضعين	السريانية : مقنعى الرءوس
	شطر : نحو وتلقاء	الحبشية : نحو وتلقاء
	صرهن : قطعهن حالة كونها مقربة محالة إليك	الرومية والنبطية الحبشية : بمعنى شق أو اقطع
	فومها : الحنطة أو سائر الحبوب التى تختبز	العبرية : الحنطة
	القيوم : القائم الحافظ لكل شىء	السريانية : الذى لا ينام
	هودا : هم اليهود الذين يدينون بالتوراة	فارسى أعجمى : بإهمال الذال ، اليهود الذين يدينون بالتوراة ويهوذا هو أخو يوسف الصديق
آل عمران	إصرى : عهدى ويطلق على الذنب أيضاً	النبطية : عهدى
	دينار : نوع من النقود المستعملة إذ ذاك	الفارسية : نقد مستعمل إذ ذاك
	ربيون : جموع كثيرة	السريانية : جموع كثيرة
	رب : « وردت فى مواضع كثيرة من سور القرآن » : واختلف معناها باختلاف موقعها ففسرت بالكبير أو بالمالك والسيد	العبرية والسريانية : مالك وسيد
	رمزاً : إشارة وإيماء بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو اليد أو اللسان وأصله مطلق التحرك	العبرية : تحريك الشفتين
النساء	قنطار : وزن مقدر بثقل خاص	الرومية : وزن مقدر بثقل خاص معين
	الجبت : الذى لا خير فيه وكل ما يعبد من دون الله ويطلق على الكاهن والساحر	الحبشية : الشيطان والساحر
	جهنم : دار العذاب فى الآخرة . وهى بعيدة الغور	الفارسية والعبرية : نار العذاب وجحيمها
	حوباً : الهلاك والبلاء والإثم والظلم	الحبشية : الإثم
	الطاغوت : الأوثان وما يعبد من دون الله	الحبشية : الكاهن

السورة	اللفظ فى السورة ومعناه	اللغة الأعجمية الوارد فيها اللفظ ومعناه
المائدة	الربانيون : العارفون بالله ، منسوبون إلى الرب	العبرانية والسريانية : العلماء الصابرون
الأنعام	أزر : معناه الأعرج ، وقيل الشيخ الهرم بالخوارزمية ، وقد ذكر فى القرآن بمعنى أعان كما فى سورة الفتح « فآزره » أى فأعانه	العبرانية : المخطىء
	درست : المدارس المقارف للذنوب ، والمقارىء للدروس	العبرانية : قرأت
	قراطيس : الورق المفرق الخالى من الكتابة	الحبشية : الصحيفة
الأعراف	أخلد : مال إلى النعيم	العبرية : ركن
	أسباطا : السبط الحفيد أو الولد أو القطعة	العبرية : الجماعة من بنى اسرائيل كالقبيلة من العرب
	طفقا : أخذا أو جعلا	الرومية : قصدا
	القسط : العدل والميزان	الرومية : العدل والميزان
	القمل : الدابة التى تكون فى الحنطة ، أو صغار الجراد	العبرية أو السريانية : صغار الجراد أو النمل
	هدنا : تبنا ورجعنا إلى الحق	العبرية : تبنا
التوبة	إلا : الرحم والقرابة ، أو العهد والميثاق	النبطية : اسم الله تعالى
هود	ابلعى : انشفى	الحبشية : ازدردى ؛ بمعنى اشربى
	أواه : كثير التأوه والتوجع من الذنوب	الحبشية : بمعنى موقن . أو العبرية بمعنى كثير الدعاء
	التنور : الكانون يخبز فيه ، ووجه الأرض ، وكل مفجر ماء	الفارسية : الكانون يخبز فيه
	سجيل : الطين المتحجر	الفارسية : الحجارة والطين
	غيض : قل ونقص	الحبشية : نقص
يوسف	بعير : هو الواحد من الإبل	العبرية : حمار ، وكل ما يحمل عليه
	سيدها : زوجها	القبطية : زوجها
	متكأ : طعاما ، أو ما يتكأ عليه من النمارق ، والوسائد التى يتكأ عليها ، أو مجلس الطعام	الحبشية : ما يتكأ عليه
	مزجاة : قليلة رديئة	القبطية أو الفارسية : قليلة
	هيت : أسرع	القبطية ، أو السريانية : أو الحورانية : بمعنى هلم وأسرع

السورة	اللفظ فى السورة ومعناه	اللغة الأعجمية الوارد فيها اللفظ ومعناه
الرعد	طوبى : فرح وغبطة وخير كثير	الهندية أو الحبشية : اسم للجنة
النحل	سكرا : خمرا	الحبشية : خلا
الإسراء	تتبيراً : هلاكا	النبطية : هلاكا
الكهف	سرادقها : ما حول الفسطاط	الفارسية : الدهليز
	الفردوس : الروضة	الرومية : البستان . والنبطية : الكرم
	كنز : مال مخزون	الفارسية : مال
	وراءهم : حيالهم أو خلفهم أو أمامهم	النبطية : أمامهم
مريم	تحتها : أسفلها	النبطية : بطنها
	سريا : عظيما نبيلا ، أو جدولا	السريانية والنبطية واليونانية : النهر
	عدن : إقامة	السريانية والرومية : الكروم والأعناب
طه	طه : فسر بأنه نداء لمن يطأ الأرض بالقدم ، لأن النبى كان يقوم فى تهجده على إحدى رجليه فأمر بأن يطأ الأرض بقدميه معا .	الحبشية ، والنبطية : يا رجل
	طوى : اسم واد	العبرية : ليلا أو رجل
	أليم : البحر	العبرية والسريانية والقبطية : البحر
الأنبياء	حصب : حجارة وما يرمى به فى النار من الوقود	الزنجية : حطب
	حرم (فى إحدى القراءات) وحرام : بمعنى المنع	الحبشية : واجب
	السجل : الكتاب	الحبشة : الرجل ، والفارسية : الكتاب
الحج	بيع : متعبد النصارى	الفارسية : الكنيسة
	صلوات : بيوت العبادة والصلاة	العبرية : كنائس اليهود
	المجوس : أصله رجل صغير الأذنين وضع دينا ودعا إليه	الفارسية : الذين على دين المجوسية
المؤمنون	طور سيناء : مركب من طور وسيناء والطور الجبل مضاف إلى تلك البقعة المجاورة له وهى المسماة سيناء أو سينين	الحبشية : كلمة سيناء فيها بمعنى الحسن

اللغة الأعجمية الواردفيها اللفظ ومعناه	اللفظ في السورة ومعناه	السورة
السريانية : أيام معدودة للتوقيت	شهر : المراد به العدد المعروف من الأيام لأنه يشهر بالقمر ، وأصله من شهر الشيء أظهره ، وهو لكونه ميقاتا للعبادات والمعاملات صار مشهوراً بين الناس ، ويطلق أيضاً على العالم والهلال والقمر إذا ظهر وقارب الكمال	
الحبشة : مضيء مشرق	درى : مضيء متلألىء	النور
الحبشية : الكوة	مشكاة : كوة فى الجدار غير نافذة	
العبرية والسريانية : حكماء	هونا : رفقاً ولينا	الفرقان
النبطية : قتلت	عبدت : ذللت واتخذت عبيدا	الشعراء
الرومية : العدل والميزان	القسطاس : العدل والميزان المستقيم	
القبطية : الأولى بمعنى الآخرة وبالعكس	الأولى والآخرة : دار الدنيا ودار الجزاء	القصص
السريانية : والقبطية : الجبل	الطور : الجبل الذى تجلى الله على موسى فيه	
الفارسية : يطلق على هذا الجيل من الناس .	الروم : قبيلة عظيمة من ولد روم ابن عجلان بن يافث بن نوح عليه السلام	الروم
البربرية : نضجه	أناه : غايته أو نضجه	الأحزاب
الحبشية : سبحى	أوبى : سبحى	سبأ
النبطية : الموضع يجمع فيه الماء ثم ينبثق منه .	العرم : الأحباس والسدود تبنى فى الأودية	
الحبشية : العصا	منسأته : العصا	
النبطية : الملك	ملكوت : المملكة والملك	يس
الحبشية : يا إنسان ويا رجل	يس : فى لغة طيء يا إنسان	
الحبشية : المسبح	أواب : الأواب الذى يذكر ذنوبه فى خلوته فيستغفر الله ويتوب	ص
النبطية : كتابنا	قطنا : النصيب والصك وكتاب المحاسبة	
النبطية : فرار	مناص : منجاة وفرار	
الفارسية : مفاتيح	مقاليد : الأمور والمفاتيح	الشورى
الحبشية : يضجون	يصدون . بكسر الصاد ترتفع لهم جلبة و ضجيج . وبضمها : يعرضون وينصرفون	الزخرف
الفارسية : بئر	الرس : ابتداء الشيء ، والبئر المطوية بالحجارة ودفن الميت ، وتعرف أمور القوم	ق

السورة	اللفظ فى السورة ومعناه	اللغة الأعجمية الواردفيها اللفظ و معناه
الرحمن	استبرق : الديباج الغليظ أو ديباج يعمل بالذهب	الفارسية : الديباج الغليظ
	آن : بالغ فى الحرارة أقصاها	البربرية : بالغ الحر
	بطائنها : البطانة السريرة والصاحب ومن الثوب خلاف ظهارته	القبطية : ظواهرها
	الرحمن : الكثير الرحمة	العبرية : وأصلهافيهابالخاء بمعنى الراحم
	المرجان : كبار اللؤلؤ ، أو نوع خاص من المستخرجات البحرية التى تستخدم للزينة .	الفارسية : نوع خاص من المستخرجات البحرية .
	وردة : النور المعروف	العبرية : زهرة خاصة
	ياقوت : من الجواهر والأحجار الكريمة	الفارسية : حجر كريم
الواقعة	أكواب : آنية لاعروة لها ولا خرطوم	النبطية : أكواز
	أباريق : آنية لها عرى وخراطيم	الفارسية : آنية خاصة
الحديد	كفلين : الكفل الضعف والنصيب والحظ	الحبشية : ضعفين
الحشر	لينة : النخلة : «بلسان يهود يثرب»	العبرية : النخلة
الصف	الحواريين : أنصار الأنبياء ، أو أصفياء عيسى عليه السلام	النبطية : الغسالين
الجمعة	أسفار : جمع سفر وهو الكتاب	العبريةوالسريانيةوالنبطية : الكتب
المزمل	منفطر : منشق	الحبشية : ممتلىء
	ناشئة الليل : أى النفس التى تنشأ من مضجعها إلى العبادة ، من نشأ مكانه إذا نهض منه . وقيل معناه العبادة التى تنشأ بالليل . وقيل بل معناه ساعات الليل أو الساعات الأولى من الليل	الحبشية : قومة الليل والنهوض من النوم .
المدثر	سقر : الحر الشديد ، وجهنم	الفارسية : النار
	قسورة : الأسد ، والشاب القوى	الحبشية : الأسد
الإنسان	الأرائك : جمع أريكة وهى السرير أو ما يتكأ عليه	الحبشية : السرر
	زنجبيلا : نبت يتخذ منه شراب لاذع	الفارسية : نبت
	سندس : ديباج رقيق	الفارسيةأو الهندية : الحرير المنسوج
	سلسبيلا : الشراب السائغ فى الحلق	الفارسية : شراباً
	كافورا : نبت طيب ، نوره كنور الأقحوان	الفارسية : نبت طيب الرائحة

السورة	اللفظ فى السورة ومعناه	اللغة الأعجمية الوارد فيها اللفظ ومعناه
النبأ	غساقا : ما يقطر من جلود أهل النار من الصديد	التركية : بارد منتن
عبس	أبا : الكلأ أو مرعى الأغنام	البربرية : الحشيش
	سفرة : كتبة أو سفراء بين الله تعالى وعباده	النبطية : قراء
التكوير	كورت : أى لفت ، من كورت العمامة إذا لففتها ، والمراد به فى الآية رفعت لأن الثوب إذا أريد رفعه لف . ويصح أن يقال كورت ، أى ألقيت عن فلكها	الفارسية : غورت ، وأزيلت
المطففين	سجين : كتاب مرقوم جامع لأعمال الفجرة من الجن والإنس	الفارسية : ديوان الشر
	مرقوم : مخطوط بين	العبرية : مكتوب
	مسك : نوع من الطيب	الفارسية : طيب معروف
الانشقاق	يحور : يرجع ويعود	الحبشية : يرجع
الغاشية	آنية : أى بلغت غايتها فى الحر	البربرية : حارة .

والسور(١) التى خلت من الألفاظ المعربة هى : الأنفال — يونس — ابراهيم — الحجر — النمل — العنكبوت — لقمان — السجدة — فاطر — الصافات — الزمر — غافر — فصلت — الدخان — الجاثية — الأحقاف — محمد — الفتح — الحجرات — الذاريات — النجم — المجادلة — الممتحنة — المنافقون — التغابن — الطلاق — التحريم — الملك — القلم — الحاقة — المعارج — نوح — الجن — القيامة — المرسلات — النازعات — الانفطار — البروج — الطارق — الأعلى — الفجر — البلد — الشمس — الليل — الضحى — الشرح — التين — العلق — القدر — البينة — الزلزلة — العاديات — القارعة — التكاثر — العصر — الهمزة — الفيل — قريش — الماعون — الكوثر— الكافرون — النصر — المسد —الإخلاص — الفلق — الناس .

---

(١) أطوار الثقافة والفكر فى ظلال العروبة والإسلام للأساتذة على الجندى ومحمد سمك ومحمد إبراهيم .

الفصل الخامس

إعجاز القرآن

— ١ —

برهن عبد القاهر الجرجاني في الرسالة الشافية في الإعجاز برهنة تاريخية على أن العرب قد عجزوا عن الإتيان بمثل هذا القرآن(١) ؛ ولم يعجبه رأي من قال : إنهم عجزوا ، لأن الله صرفهم عن أن يأتوا بمثله ، فحال بينهم وبين بلاغة كانوا قديرين عليها قبل أن ينزل القرآن . بل رأى أن القائل بهذا الرأي معاند بعد الرجوع عن الباطل قد اعتقده عجزاً ، والثبات عليه من بعد لزوم الحجة جلداً ، ومن وضع نفسه في هذه المنزلة كان قد باعدها عن الإنسانية .

أما وجه إعجاز القرآن عند عبد القاهر فبلاغته فحسب ، وتكمن هذه البلاغة في نظم القرآن على هذا الأسلوب الذي نزل به ، لا في ألفاظه منفردة عن هذا النظم الذي جاء به ، ولا في أن عبارة القرآن قد جاءت على ضرب من الوزن يعجز الخلق عن أن يأتوا بمثله ، ولا في الجريان والسهولة وسلامته من أن تلتقي فيه حروف تثقل على اللسان ، ولا لأوزان الكلمات ، ولا للفواصل في أواخر الآيات ، ولا لما في القرآن من استعارة وكناية ومجاز .

(١) عن كتاب عبد القاهر الجرجاني ، للدكتور أحمد أحمد بدوي ، ص ٧٩ وما بعدها .

وبرهن عبد القاهر على رأيه بأن الله سبحانه قال :

(قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإِنْس وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآن لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ)

وقال : (قُلْ : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ) .

وقال : « بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ » .

فهل يجوز أن يكون الله تعالى قد أمر نبيه بأن يتحدى العرب إلى أن يعارضوا القرآن بمثله من غير أن يكونوا قد عرفوا الوصف الذى إذا أتوا بكلام على ذلك الوصف كانوا قد أتوا بمثله ؟

ولا بد من « لا » لأنهم إن قالوا : يجوز ، أبطلوا التحدى ، من حيث أن التحدى ، كما لا يخفى مطالبته بأن يأتوا بكلام على وصف ولا تصح المطالبة بالإتيان به على وصف من غير أن يكون ذلك الوصف معلوماً للمطالب .

لأنه لا يصح وصف الإنسان بأنه قد عجز عن شئ ، حتى يريد ذلك الشئ ، ويقصد إليه ، ثم لا يتأتى له ، وليس يتصور أن يقصد إلى شئ لا يعلمه ، وأن تكون منه إرادة لأمر لم يعلمه فى جملة ولا تفصيل .

« ثم إن هذا الوصف ينبغى أن يكون وصفاً قد تجدد بالقرآن ، وأمرا لم يوجد فى غيره ، ولم يعرف قبل نزوله ؛ وإذا كان كذلك فقد وجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون فى الكلم المفردة ؛ لأن تقدير

كونه فيها يؤدى إلى المحال ، وهو أن تكون الألفاظ المفردة التى هى أوضاع اللغة قد حدث فى مذاقة حروفها ، وأصدائها ، أوصاف لم تكن فيها قبل نزول القرآن ، وتكون قد اختصت فى أنفسها بهيئات وصفات يسمعها السامعون عليها إن كانت متلوة فى القرآن ، ولا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن .

ولا يجوز أن يكون فى معانى الكلم المفردة التى هى لها بوضع اللغة ، لأنه يؤدى إلى أن يكون قد تجدد فى معنى الحمد ، والرب ، ومعنى العالمين ، والملك ، واليوم ، والدين ، وهكذا ، وصف لم يكن قبل نزول القرآن ، وهذا ما لو كان ههنا شئ أبعد من المحال وأشنع لكان إياه .

ولا يجوز أن يكون هذا الوصف فى تركيب الحركات والسكنات حتى كأنهم تحدوا إلى أن يأتوا بكلام تكون كلماته على توالها فى زنة كلمات القرآن... لأنه يخرج إلى ما تعاطاه مسيلمة من الحماقة فى « إنا أعطيناك الجماهر ، فصل لربك وجاهر والطاحنات طحناً » .

« وكذلك الحكم إن زعم زاعم أن الوصف الذى تحدوا إليه هو أن يأتوا بكلام يجعلون له مقاطع وفواصل ، كالذى تراه فى القرآن لأنه أيضاً ليس بأكثر من التعويل على مراعاة وزن ، وإنما الفواصل فى الآى كالقوافى فى الشعر ، وقد علمنا اقتدارهم على القوافى كيف هو ، فلو لم يكن التحدى إلا إلى فصول من الكلام يكون لها أواخر أشباه القوافى ، لم يعوزهم ذلك ، ولم يتعذر عليهم ، وقد خيل إلى بعضهم — إن كانت الحكاية صحيحة — شئ من هذا ، حتى وضع

على ما زعموا فصول الكلام ، أواخرها كأواخر الآى ، مثل : يعلمون ويؤمنون وأشباه ذلك .

« وهكذا السبيل إن زعم زاعم أن الوصف المعجز هو الجريان والسهولة ، ثم يعنى بذلك سلامته من أن تلتقى فيه حروف تثقل على اللسان ؛ لأنه ليس بذلك يكون الكلام كلاماً ، ولا هو بالذى يتناهى أمره إن عد فى الفضيلة ، إلى أن يكون الأصل ، وإلى أن يكون المعول عليه فى المفاضلة بين كلام وكلام ، كما به كان الشاعر مفلقاً ، والخطيب مصقعاً ، والكاتب بليغاً .

« وما رأينا عاقلا جعل القرآن فصيحاً أو بليغاً بألا يكون فى حروفه ما يثقل على اللسان ، لأنه لو كان يصح ذلك لكان يجب أن يكون السوقى الساقط من الكلام ، والسفساف الردئ من الشعر فصيحاً إذا خفت حروفه .

« واعلم أنا لا نأبى أن تكون مذاقة الحروف وسلامتها مما يثقل على اللسان داخلا فيما يوجب الفضيلة ، وأن تكون مما يؤكد أمر الإعجاز ، وإنما الذى ننكره ، ونفيل (نقبح) رأى من يذهب إليه أن يجعله معجزاً به وحده ، ويجعله الأصلى والعمدة .

« ولا يجوز لنا أن نعتد فى شأننا هذا بأن يكون المتكلم قد استعمل من اللغتين فى الشئ ما يقال : إنه أفصحها ،وبأن يكون قد تحفظ مما تخطىء فيه العامة ، ولا بأن يكون قد استعمل الغريب ، لأن العلم بجميع ذلك لا يعدو أن يكون علماً باللغة ، وبأنفس الكلم المفردة ،

ومما طريقه طريق الحفظ ، دون ما يستعان عليه بالنظر ، ويوصل إليه بأعمال الفكر .

« فإذا بطل أن يكون الوصف الذى أعجزهم من القرآن فى شئ مما عددناه ، لم يبق إلا أن يكون الاستعارة ، ولا يمكن أن نجعل الاستعارة الأصل فى الإعجاز ، وأن يقصد إليها ؛ لأن ذلك يؤدى إلى أن يكون الإعجاز فى آى معدوده فى مواضع من السور الطوال مخصوصة ؛ وإذا امتنع ذلك فيها لم يبق (أى الإعجاز) إلا أن يكون فى النظم والتأليف . . وإذا ثبت أنه فى النظم والتأليف ، وكنا قد علمنا أن ليس النظم شيئاً غير توخى معانى النحو وأحكامه فيما بين الكلم ، وأنا إن بقينا الدهر نجهد أفكارنا ، حتى نعلم للكلم المفردة سلكاً ينظمها ، وجامعاً يجمع شملها ويؤلفها ، ويجعل بعضها بسبب من بعض غير توخى معانى النحو وأحكامه فيها — طلبنا ما كل محال دونه .

« وجملة الأمر أنا ما رأينا فى الدنيا عاقلا اطرح النظم ، والمحاسن التى هو السبب فيها من الاستعارة والكناية والتمثيل ، وضروب المجاز والإيجاز ، وصد بوجهه عن جميعها ، وجعل الفضل كله ، والمزية أجمعها فى سلامة الحروف .

« ومن هذا الذى يرضى من نفسه أن يزعم أن البرهان الذى بان لهم ، والأمر الذى بهرهم ، والهيبة التى ملأت صدورهم ، والروعة التى دخلت عليهم فأزعجتهم ، حتى قالوا : « إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر » ؛ إنما كان لشئ

واعهم من مواقع حركاته ، ومن ترتيب بينها وبين سكناته ، أو الفواصل فى آخر آياته ، ... وينبغى أن تكون موازنتهم بين بعض الآى وبين ما قاله الناس فى معناها ، كموازنتهم بين « ولكم فى القصاص حياة » وبين : « قتل البعض احياء للجميع » : خطأ منهم ؛ لأننا لا نعلم لحديث التحريك والتسكين ، وحديث الفاصلة مذهباً فى هذه الموازنة ، ولا نعلمهم أرادوا غير ما يريده الناس إذا وازنوا بين كلام وكلام فى الفصاحة والبلاغة ودقة النظم ، وزيادة الفائدة ».

« فإن قيل : قولك : إلا النظم (أى لم يبق وجه للاعجاز إلا النظم يقتضى إخراج ما فى القرآن من الاستعارة وضروب المجاز من جملة ما هو به معجز ، وذلك مالا مساغ له ، قيل : ليس الأمر كما ظننت ، بل ذلك يقتضى دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجز ؛ وذلك لأن هذه المعانى التى هى : الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم ، وعنها يحدث ، وبها يكون ، لأنه لا يتصور أن يدخل شئ منها فى الكلم ، وهى أفراد ، لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو ، فلا يتصور أن يكون ها هنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد ألف مع غيره .. » .

« وأنت تراهم على لسان واحد فى أن المجاز والإيجاز من الأركان فى أمر الإعجاز » .

ذلك رأى عبد القاهر الجرجانى فى إعجاز القرآن الكريم .

ذكر السيوطى فى تعريف القرآن :

« إن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ فى أحسن نظم التأليف متضمناً أصح المعانى من توحيد الله تعالى وتنزيهه فى صفاته ودعائه إلى طاعته وبيان لطريق عبادته من تحليل وتحريم وحظر وإباحة ، ومن وعظ وتقويم وأمر بمعروف ونهى عن منكر وإرشاد إلى محاسن الأخلاق ، وزجر عن مساويها ، واضعاً كل شئ منها موضعه الذى لا يرى شئ أولى منه . ولا يتوهم فى صورة العقل أمر أليق به منه ، مودعاً أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن مضى ، وعائد منهم منبئاً عن الكوائن المستقلة والأعصار الآتية من الزمان ، جامعاً فى ذلك بين الحجة والمحتج له ، والدليل والمدلول عليه ، ليكون ذلك آكد للزوم ، وما دعا إليه ، وأنبأ عن وجوب ما أمر به ونهى عنه » .

وقال الجاحظ : « بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً وأحكم ما كانت لغة وأشد ما كانت عدة فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته ، فدعاهم بالحجة فلما قطع العذر أو زال الشبهة وصار الذى يمنعهم من الإقرار الهوى والحمية دون الجهل والحيرة حملهم على حظهم بالسيف فنصب لهم الحرب ونصبوا وقتل من عليتهم وأعلامهم وأعمامهم وبنى أعمامهم وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحاً ومساءاً إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة أو بآيات يسيرة فكلما ازداد تحدياً لهم بها وتقريعاً لعجزهم عنها تكشف من نقصهم ما كان مستوراً وظهر منه ما كان خفياً ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا

له أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف فلذلك يمكنك مالا يمكننا »
قال : فهاتوها مفتريات ، فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر
ولو طمع فيه لتكلفه ولو تكلفه لظهر ذلك ولو ظهر لوجد من
يستجيده ويحامى عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض ،
فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستجابة لغتهم
وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض
شعراء أصحابه وخطباء أمته ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت
أنقض لقوله وأفسد لأمره وأبلغ فى تكذيبه وأسرع فى تفريق أتباعه
من بذل النفوس والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال ، وهذا من
جليل التدبير الذى لا يخفى على من هو دون قريش والعرب فى الرأى
والعقل بطبقات ، ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب
الطوال البليغة والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ
المنثور ، ثم تحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم . فمحال
أكرمك الله أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط فى الأمر الظاهر والخطأ
المكشوف البين مع التقريع بالنقص والتوقيف على العجز وهم أشد
الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه
والحاجة تبعث على الحيلة فى الأمر الغامض فكيف بالظاهر الجليل
المنفعة !. وكما أنه محال أن يطبقوا ثلاثة وعشرين سنة[1] على الغلط فى
الأمر الجليل المنفعة فكذلك محال أن يتركوه وهم يعرفونه ويجدون
السبيل إليه ، وهم يبذلون أكثر منه » .

---

(١) هى مدة رسالته صلى الله عليه وسلم .

ويذكر ابن رشد المتوفى سنة ٥٩٥ هـ فى كتابه « فصل المقال » :
إن غاية الشرع تعليم العلم الحق والعمل الحق ، وأن التعليم صنفان :
تصور وتصديق . وطرق التصديق الموضوعة للناس ثلاث : البرهانية
والجدلية والخطابية ، وللتصور طريقتان : إما الشئ نفسه وإما مثاله ؛
ولما كان الناس لا يستوون فى طباعهم ولا الطباع كلها سواء فى قبول
البراهين والأقاويل الجدلية فضلا عن البرهانية ، وكانت غاية الشرع
تعليم الناس جميعاً — وجب أن يكون مشتملا على جميع أنحاء طرق
التصديق وأنحاء طرق التصور .

وطرق التصديق منها عامة لأكثر الناس أى فى وقوع التصديق
من قبلها ، وهى الخطابية والجدلية — والأولى أعم من الثانية — ومنها
خاص لأقل الناس وهى البرهانية . ولما كان الشرع قد جعل قصده
الأول العناية بالأكثر من غير إغفال لتنبيه الخواص ، كانت أكثر
الطرق المصرح بها فى الشريعة هى الطرق المشتركة للأكثر فى وقوع
التصور والتصديق .

وهذه الطرق هى أربعة أصناف :

الأول : لا يقبل التأويل .

والثانى : يقبل نتائج التأويل دون مقدماته .

والثالث : عكس هذا ، يتطرق التأويل إلى مقدماته دون نتائجه .

والرابع : يتأوله الخواص وحدهم ، أما الجمهور فيأخذه على ظاهره .

فالناس إذن ثلاثة أصناف : صنف ليس من أهل التأويل أصلا وهم الخطابيون الذين هم الجمهور الغالب .

وصنف هو من أهل التأويل الجدلى وهم الجدليون بالطبع فقط ، أو بالطبع والعادة .

وصنف هو من أهل التأويل اليقينى وهم البرهانيون بالطبع والصناعة — أى صناعة الحكمة والمنطق .

وليس فى طرق العلم كالطرق التى تثبت فى الكتاب العزيز — « القرآن » — فإنه إذا تؤمل وجدت فيه الطرق الثلاث الموجودة لجميع الناس ، والطرق المشتركة لتعليم أكثر الناس والخاصة ، مما لا يوجد أفضل منه لتعليم الجمهور .

وانتهى ابن رشد إلى أن الأقاويل الشرعية المصرح بها فى الكتاب العزيز للجميع لها ثلاث خواص دلت على الإعجاز :

إحداها أنه لا يوجد — فى مذاهب الكلام — أتم إقناعاً وتصديقاً للجميع منها .

والثانية أنها تقبل التصرف بطبعها إلى أن تنتهى إلى حد لا يقف على التأويل فيها .

والثالثة أنها تتضمن البينة لأهل الحق على التأويل الحق .

— ٢ —

وقد شرح كتاب « النبأ العظيم — نظرات جديدة فى القرآن » المعانى التى احتواها القرآن والتى يستحيل — بالبراهين الحاسمة —

أن تصدر عن بشر ، وأحصى جملة الشبه التى يمكن أن تخطر ببال أى متردد مرتاب ، ثم دحضها :

ومضى يستعرض ما يقوله المستقصى فى طلب الحقيقة وبسط الإجابة فى أدب وفقه : (فإن(١) قال : قد تبينت الآن أن سكوت الناس عن معارضة القرآن كان عجزاً ، وأنهم وجدوا فى طبيعة القرآن سراً من أسرار الإعجاز يسمو به عن قدرتهم ، ولكن لست أفهم أن ناحيته اللغوية يمكن أن تكون من مظان هذا السر ، لأنى أقرأ القرآن فلا أجده يخرج عن معهود العرب فى لغتهم العربية ؛ فمن حروفهم ركبت كلماته ، ومن كلماتهم ألفت جمله وآياته ، وعلى مناهجهم فى التأليف جاء تأليفه : فأى جديد فى مفردات القرآن لم يعرفه العرب من موادها وأبنيتها ؟ وأى جديد فى تركيب القرآن لم تعرفه العرب من طرائقها ولم تأخذ به فى مذاهبها ، حتى نقول إنه قد جاءهم بما فوق طاقتهم اللغوية ؟

قلنا له : أما أن القرآن الكريم لم يخرج فى لغته عن سنن العرب فى كلامهم إفراداً وتركيباً فذلك فى جملته حق لا ريب فيه ، وبذلك كان أدخل فى الإعجاز ، وأوضح فى قطع الأعذار :

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ، أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ(٢) » .

وأما بعد فهل ذهب عنك أن مثل صنعة البيان كمثل صنعة البنيان :

---

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم : ص ٨١ ، ٨٢ .

(٢) سورة فصلت : ٤٤ .

فالمهندسون البناءون لا يخلقون مادة بناء لم تكن فى الأرض ، ولا يخرجون فى صنعتهم عن قواعدها العامة ، ولا يعدو ما يصنعونه أن يكون جدراناً مرفوعة ، وسقفاً موضوعة ، وأبواباً مشرعة ، ولكنهم تتفاضل صناعاتهم وراء ذلك فى اختيار أمتن المواد وأبقاها على الدهر ، وأكنها للناس من الحر والقر ، وفى تعميق الأساس وتطويل البنيان ، وتخفيف المحمول منها على حامله ، والانتفاع بالمساحة اليسيرة فى المرافق الكثيرة ، وترتيب الحجرات والأبهاء بحيث يتخللها الضوء والهواء ، فمنهم من يفى بذلك كله أو جله ، ومنهم من يخل بشىء منه أو أشياء ... إلى فنون من الزينة والزخرف يتفاوت الذوق الهندسى فيها تفاوتاً بعيداً .

كذلك ترى أهل اللغة الواحدة يؤدون الغرض الواحد على طرائق شتى يتفاوت حظها فى الحسن والقبول ، وما من كلمة من كلامهم ولا وضع من أوضاعهم بخارج عن مواد اللغة وقواعدها فى الجملة ، ولكنه حسن الاختيار فى تلك المواد والأوضاع قد يعلو بالكلام حتى يسترعى سمعك ، ويثلج صدرك ، ويملك قلبك وسوء الاختيار فى شئ من ذلك قد ينزل به حتى تمجه أذنك ، وتغثى منه نفسك ، وينفر منه طبعك » .

ويتحدث عن خصائص الأسلوب القرآنى فيبين الأسباب التى بلغ بها درجة الإعجاز ، قال :

« خطاب[1] العامة » و « خطاب الخاصة » :

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٤٦ .

« وهاتان غايتان أخريان متباعدتان عند الناس : فلو أنك خاطبت الأذكياء بالواضح المكشوف الذى تخاطب به الأغبياء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه لأنفسهم فى الخطاب : ولو أنك خاطبت العامة باللمحة والإشارة التى تخاطب بها الأذكياء لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم . فلا غنى لك — إن أردت أن تعطى كلتا الطائفتين حقها كاملا من بيانك — أن تخاطب كل واحدة منهما بغير ما تخاطب به الأخرى ، كما تخاطب الأطفال بغير ما تخاطب به الرجال . فأما أن جملة واحدة تلقى إلى العلماء والجهلاء ، وإلى الأذكياء والأغبياء ، وإلى السوقة والملوك فيراها كل منهم مقدرة على مقياس عقله وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتمه إلا فى القرآن الكريم ، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوفى كلام بلطائف التعبير ، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوى على أفهامهم ، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة : فهو متعة العامة والخاصة على السواء ، ميسر لكل من أراد :

« وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ[1] » .

« إقناع العقل » و « إمتاع العاطفة » .

وفى النفس الإنسانية قوتان : قوة تفكير ، وقوة وجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة أختها . فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته ، وعن الخير للعمل به ، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما فى الأشياء من لذة وألم ، والبيان التام هو الذى يوفى لك هاتين

---

(١) سورة القمر : ١٧ .

الحاجتين ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين ، فيؤتيها حظها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معاً .

فهل رأيت هذا التمام فى كلام الناس ؟

لقد عرفنا كلام العلماء والحكماء ، وعرفنا كلام الأدباء والشعراء ، فما وجدنا من هؤلاء ولا هؤلاء إلا غلوا فى جانب ، وقصوراً فى جانب « فأما » الحكماء فإنما يؤدون إليك ثمار عقولهم غذاء لعقلك ، ولا تتوجه نفوسهم إلى استهواء نفسك واختلاب عاطفتك ، فتراهم حين يقدمون إليك حقائق العلوم لا يأبهون لما فيها من جفاف وعرى ونبو عن الطباع : « وأما » الشعراء فإنما يسعون إلى إستثارة وجدانك ، فلا يبالون بما صوروه لك أن يكون غياً أو رشداً ، وأن يكون حقيقة أو تخيلا ، فتراهم جادين وهم هازلون يستبكون وإن كانوا لا يبكون ، ويطربون وإن كانوا لا يطربون :

« وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ(١) » .

وكل امرىء حين يفكر فإنما هو فيلسوف صغير ، وكل امرىء حين يحس ويشعر فإنما هو شاعر صغير ، فسل علماء النفس : « هل رأيتم أحداً تتكافأ فيه قوة التفكير وقوة الوجدان وسائر القوى النفسية على سواء ؟ ولو مالت هذه القوى إلى شيء من التعادل عند قليل من الناس فهل ترونها تعمل فى النفس دفعة وبنسبة واحدة ؟ » .

(١) سورة الشعراء : ٢٢٤ — ٢٢٦ .

يجيبوك بلسان واحد : كلا ، بل لا تعمل إلا مناوبة فى حال بعد حال ، وكلما تسلطت واحدة منهن اضمحلت الأخرى وكاد ينمحى أثرها ، فالذى ينهمك فى التفكير تتناقص قوة وجدانه ، والذى يقع تحت تأثير لذة أو ألم يضعف تفكيره . وهكذا لا تقصد النفس الإنسانية إلى هاتين الغايتين قصداً واحداً ، وإلا لكانت القبلة مدبرة معاً ، وصدق الله :

« مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِ[1] » .

فكيف تطمع من إنسان فى أن يهب لك هاتين الطلبتين على سواء ، وهو لم يجمعهما فى نفسه على سواء ؟ وما كلام المتكلم إلا صورة الحال الغالبة عليه من بين الأحوال .

هذا مقياس تستطيع أن تتبين به فى كل لسان وقلم أى قوتين كان خاضعاً لها حين قال أو كتب : (فإذا) رأيته يتجه إلى تقرير حقيقة نظرية أو وصف طريقة عملية قلت : هذا ثمرة الفكرة (وإذا) رأيته يعمد إلى تحريض النفس أو تنفيرها وقبضها وبسطها ، واستثارة كوامن لذتها أو ألمها ، قلت هذا ثمرة العاطفة ، (وإذا) رأيته قد انتقل من أحد هذين الضربين إلى الآخر فتفرغ له بعد ما قضى وطره من سابقه ، كما ينتقل من غرض إلى غرض ، عرفت بذلك تعاقب التفكير والشعور على نفسه .

وأما أن أسلوباً واحداً يتجه اتجاهاً واحدا ويجمع فى يديك هذين الطرفين معاً ، كما يحمل الغصن الواحد من الشجرة أوراقاً وأزهاراً

---

(١) سورة الأحزاب : ٤ .

وأثماراً معاً ، أو كما يسرى الروح فى الجسد والماء فى العود الأخضر فذلك مالا تظفر به فى كلام بشر ، ولا هو من سنن الله فى النفس الإنسانية .

فمن لك إذاً بهذا الكلام الواحد الذى يجىء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضى حتى أولئك الفلاسفة المتعمقين . ومن المتعة الوجدانية الطيبة بما يرضى حتى هؤلاء الشعراء المرحين ؟

ذلك الله رب العالمين ، فهو الذى لا يشغله شأن عن شأن ، وهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معاً بلسان ، وأن يمزج الحق والجمال معاً يلتقيان ولا يبغيان وأن يخرج من بينهما شراباً خالصاً سائغاً للشاربين ، وهذا هو ما تجده فى كتابه الكريم حيثما توجهت — ألا تراه فى فسحة قصصه وأخباره[1] لاينسى حق العقل من حكمة وعبرة؟

أو لا تراه فى معمعة براهينه وأحكامه لا ينسى حظ القلب من تشويق وترقيق ، وتحذير وتنفير ، وتهويل وتعجيب ، وتبكيت وتأنيب ؟ يثبت ذلك فى مطالع آياته ومقاطعها وتضاعيفها .

« تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ[3] » و « إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ . وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ[4] » .

---

(١) اقرأ مثلا سورة : القصص وسورة يوسف عليه السلام .
(٢) المصدر السابق ، ص : ١٠٨ — ١٠٩ — ١١٠ .
(٣) سورة الزمر : ٢٣ .
(٤) سورة الطارق : ١٣ — ١٤ .

إن معانى القرآن ومراميه ومبادئه ثابتة على الزمن ، وهى خاصة أخرى من خصائص القرآن التى ينفرد بها من بين الكتب وآية من آيات إعجازه ، فما من كتاب فى أى موضوع من الموضوعات ، إلا ويفقد جدته على مر الزمن وتبلى معانيه مع تطاول العهد . فدائرة المعارف البشرية فى تطور مستمر ، وكل مرحلة من مراحل التطور الإنسانى تحمل فى ثناياها عدة تغيرات وتحولات فى المعارف البشرية .

وقد شهد العالم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر انقلاباً هائلا ، مما جعل جميع الكتب التى استطاعت أن تعيش عدة قرون من الزمن باعتبارها خلاصة العلم والمعارف البشرية لا تقوى على الحياة يوماً واحداً فى ظل هذه المعارف الجديدة .

وكثيرا ما يشعر المرء بالسأم والملل بل والزهد فى مطالعة أى كتاب علمى نشر قبل الحرب العالمية الأولى .

فما أعجب أن يثبت القرآن بمعانيه فى وجه هذه الانقلابات والتطورات بحيث لا يفقد جدته على مر الزمن ولا تتبدل معانيه .

وكلما اتسعت آفاق العلم واكتشافاته ، كلما زادت آيات القرآن وضوحا ، حقا إن القرآن ليس كتابا علمياً بالمعنى الفنى فهو لا يتوفر على دراسة فرع معين من فروع العلم ، ولا يبحث مسائله ومشاكله ويعالج نظرياته ، بيد أن القرآن مع ذلك قد تعرض بصفة عامة لكل ما فى هذا الكون من ظواهر ومشاهد ونواميس طبيعية واجتماعية .

وأشار إلى الحياة والموت ، وإلى الكواكب وإلى النباتات ، وإلى السنن الكونية مستحثاً العقل البشرى لاستكناه أسرار الطبيعة والجرى فى طلب الحقيقة . والتفكر والغوص إلى أعماق الأشياء ، بحيث لايكاد يوجد علم من العلوم البشرية لم يمسه القرآن عن قرب أو عن بعد ، وبحيث يدخل كثير من آيات القرآن فى دائرة المباحث العلمية البحتة(١) وقد قام نفر من العلماء يفسرون آيات القرآن على ضوء آخر الاكتشافات العلمية :
يقول الله تعالى : « وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ » . أى(٢) أن مقدار الماء على الأرض لم يكن جزافا ، ولكن بقدر معلوم لغرض خاص ورسالة تؤديها الأرض بظهور خليفة الله عليها وهو الإنسان . وقد ظن بعض الناس خطأ أن فى تغطية سطح الأرض بالمحيطات فى عصر ظهور الإنسان كثيراً من الإسراف !! أما الحقيقة فهى على نقيض ذلك ، فالمحيط هو منظم درجات الحرارة الرئيسى على الأرض ، لأنه الوسط الأساسى العامل على توزيع الحرارة التى يكتسبها سطح الأرض من الإشعاع الشمسى توزيعاً عادلا على بقاع الأرض المختلفة .

قال الله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » .
تعد(٣) هذه الآية من الآيات التى لا تدع مجالا للشك فى أن القرآن كتاب منزل من عند الله . وقد أثبت العلم الحديث كلام القرآن بعد

(١) أحمد حسين : فى الإيمان والإسلام ، ص ١٣٢ .
(٢) الدكتور جمال الدين الفندى وزميله : قصة السموات والأرض ، ص ٤٤ .
(٣) محمد منير شهوان : الإسلام يدعو إلى العلم ، ص ٣٥ .

جهاد شاق طويل تقدمت فيه أبحاث الجيولوجيا والتحاليل الأرضية فقد توصل « لابلاس » إلى نظرية سميت باسمه تقرر أن الأرض والشمس ومختلف الكواكب والأجرام إنما كانت سديماً فى الفضاء وأن الأرض انفصلت عن هذا السديم والأدلة على ذلك كثيرة ، ومنها أن نفس العناصر التى تتكون منها الأرض هى نفسها التى تتكون منها الشمس »

وقد حاول العلماء جاهدين أن يصلوا إلى حقيقة السديم ، وقد كان الرأى الذى استقروا عليه مؤخراً جداً هو أن السديم عبارة عن غاز عالق به مواد صلبة ولهذا فإنه لا يمكن إطلاق لفظ السديم على أى شئ من الوجهة العلمية سوى الدخان وليس عجيباً أن يكون هذا هو ما جاء به القرآن الكريم :

« ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » .

« وكما سخر(١) الله سبحانه الجاذبية للإنسان فى إجراء الأنهار لتسير الهوينى أو غير الهوينى إلى سطح البحر ، سخرها أيضاً فى كبح جماح البحر ، ومنعه من أن يطغى بمائه الأجاج على النهر أو على اليابسة ، فهى دائماً تحبسه فى مستقره الذى هو أقرب مواطن سطح الأرض إلى مركز الأرض »

---

(١) الدكتور محمد أحمد الغمراوى : سنن الله الكونية .

فالبحر لا يستطيع أن يفارق مستقره ذلك إلا بقوة أخرى تغلب قوة الجاذبية عليه وهيهات . فكأنما البحر ملجم بالجاذبية أن يهجم على اليابسة من الأرض ، كلما هم بالهجوم بفعل المد ، أو الريح ، أو حركة الأرض ، جذبته قدرة الله بلجام الجاذبية من خلف ، فيعود إلى موطنه الذى كتب عليه أن يبقى مقيداً فيه .

ولقد من الله سبحانه على الإنسان بهذا حين من عليه بحجزه بين البحرين ، أو بين البحر والنهر ، فى قوله :

« وَهُوَ الَّذى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ ، هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا[١] » .

وليس ذلك البرزخ — والله أعلم — إلا ارتفاع ما بين سطح البحر وسطح اليابسة التى يجرى فيها النهر .

وليس ذلك الحجر المحجور — والله أعلم — إلا الجاذبية بين البحر ومركز الأرض وحبسها البحر فى موطنه .

ولقد من الله على الإنسان بذلك مرة أخرى ، وعاب عليه ، وعجب منه ، كيف يشرك مع الله إلها آخر رغم ذلك ؟ فى قوله سبحانه :

« أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِى وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؟ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ[٢] » .

---

(١) سورة الفرقان : ٥٣ .
(٢) سورة النمل : ٦١ .

فتفهم هذه الآية الكريمة فى ضوء ما ذكرناه لك ، وتأمل تعقيبه سبحانه بقوله : « بل أكثرهم لا يعلمون » تعلم أن ذلك العلم من هذا الدين ، وأن هذا القرآن لم يأت إلا من عند خالق الفطرة ، وأنه لاغنى للمسلم عن علم الفطرة إن كان يريد حقاً أن يفهم شيئاً من سر الآيات الكونية فى القرآن(١) .

على أن أهمية الجاذبية فى الكون أعظم من هذا بكثير ، فإن الجاذبية كما قد عرفنا ليست بين الأرض وما عليها فقط ، بل بين الأرض وما عداها من الكواكب ، ثم هى أيضاً بين كل كوكب وما عداه .

فكل كوكب فى ملكوت الله يجذب كل كوكب آخر طبق سنة الجاذبية السابق ذكرها ، أى بقوة تتناسب مع حاصل ضرب كتلتى الكوكبين مقسوماً على مربع المسافة بينهما ، وناتج كل هذه القوى الواقعة على الكوكب قوة واحدة يمسكه الله بها فى مداره أو فلكه ، أو فى موقعه الذى هو فيه إذا كان النجم من الثوابت .

فالجاذبية إذن على قدر علم الإنسان إلى الآن ، هى القوة التى يمسك الله بها سبحانه السموات والأرض فى مواقعها التى قدرها لها ، أو هذا إن شئت هو ما أدركه الإنسان إلى الآن من سر قوله تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِه(٢) » .

---

(١) محمد الغزالى : نظرات فى القرآن ، ص ١٣٤ .

(٢) سورة فاطر : ٤١ .

وفى قوله تعالى : « اللهُ الَّذى رَفَعَ السَّموَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا[١] » .

وما يشبهها من آيات القرآن الكريم ، إشارة إلى قوى الجاذبية الخافية ، التى هى بعد تقدير الله لها سبب بقاء أجرام السماء فى أماكنها ومداراتها ، المقدرة لها . فإنه إذا فهم من قوله تعالى : « بغير عمد ترونها » أن السموات مرفوعة بعمد غير مرئية — كما هو ظاهر الآية — كانت تلك العمد غير المرئية هى قوى الجاذبية بين بعض الكواكب وبعض .

لأن العمد المعروفة المادية تؤثر أثرها ، وتحمل أحمالها ، بإرسال قوى ، أو ضغوط تساوى وتضاد ضغوط الأبنية عليها ، كما هو صريح علم القوى ، وكما يحصل بالضبط بين الكواكب المتجاذبة .

فإذا عجزت العمد عن أن تكون ضغوطها المضادة لضغوط المحمولات عليها مساوية لهذه الضغوط ، تكسرت الأعمدة والجدران ، أو تشققت ، ويكون البناء أقرب إلى التداعى بقدر ما بين ضغوط الأعمدة وضغوط الأحمال من فروق .

ففى حالة الأعمدة وما تحمل يوجد تضاغط واتزان ، كما أن هناك بين الأجرام السماوية تجاذباً وتوازناً ، وإن اختلف مدى التوازن ونوعه فى الحالين .

---

(١) سورة الرعد : ٢ .

وينبغى أن نتذكر أيضاً أن الأعمدة ضاغطة ، وليست هى — بداهة — نفس الضغوط الخارجة منها ، وأن هذه الضغوط المقاومة لثقل الأبنية غير مرئية وإن رأينا الضاغط من عمود أو جدار .

كذلك قوى التجاذب بين أجرام السماء غير مرئية ، وإن رأينا أجرام السماء . فالتعبير بالعمد غير المرئية عن القوى التى رفع الله بها السموات هو أدق تعبير ، وأبلغه فى الخطاب ، يفهم كل منه بقدر ما رزقه الله من الفهم والعلم .

« وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ[1] » .

فقانون الجاذبية هو مفتاح فهم أمثال الآيتين السابقتين من كتاب الله عز وجل ، إلا أن الإشارة إلى القانون فى تلك الآيات الكريمة إشارة عامة من ناحية الوصفية » . وهاك شرحه كذلك لظاهرة طبيعية أخرى : : :

« أما العوامل المسببة للأمطار — ومحورها الكهربائية الجوية — فقد أشير إليها إشارات واضحة فى أكثر من آية ؛ من تلك الآيات الكريمة آية الحجر :

« وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ، فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ [2] » .

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٣ .

(٢) سورة الحجر : ٢٢ .

ومفتاح هذه الآية الكريمة هو : ترتيب إنزال الماء — لسقي الناس — على إرسال الرياح لوَاقِح .

والناس يحملون وصف الرياح باللواقح على أنها لواقح للزرع والشجر ، وهذا منهم إغفال للنصف الثانى من الآية ، إذ لو كان ما ذهبوا إليه هو المراد ، لترتب عليه إزكاء الزرع ، وإخراج الثمر للناس يأكلونه ، لا إنزال الماء من السماء يشربونه . أما وقد رتب الله على إرسال الرياح لواقح إنزال الماء من السماء يسقاه الناس فقد تحتم أن يكون للواقح معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ، ويكون مع ذلك — من ناحية — شبيهاً بلقاح الأحياء من زروع وحيوان ، ومن ناحية أخرى يكون بينه وبين نزول الماء ما بين العلة والمعلول ، أو السبب والمسبب .

وما عليك إلا أن تذكر ما قدمنا لك عن تكاثف السحاب مطراً ، وعن أثر كهربائيته فى ذلك التكاثف ، وأثر الرياح فى تمهيد سبل الاتحاد بين كهربائية وكهربائية فى سحاب وسحاب ، لتعلم أن المراد من وصف الرياح بأنها « لواقح » ليس هو الإشارة إلى أثرها فى الجمع بين طلع أعضاء التذكير ، وبويضات التأنيث فى النبات ، ولكن هو الإشارة فى الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة فى السحاب .

فالملاقحة هنا بين قطيرات وقطيرات ، أو بين سحاب وسحاب ، لا بين زهر وزهر ، أو نبات ونبات .

والشبه تام بين هذا التلقيح النباتى ، وذاك التلقيح الكهربائى ، أو بالأحرى ليس هناك تشبيه مطلقاً ، فإن اتحاد الكهربائيتين تلقيح ،

إن كل اتحاد الخليتين تلقيحاً ، لأنه فى الحالين اتحاد بين شيئين متضادين متجاذبين ، يختفى به الشيئان ، ويظهر مكانهما شئ آخر غيرهما .

ففى حالة التلقيح النباتى ينشأ من بين الخليتين خلية واحدة لها خواص غير خواص أبيهما ، وفى حالة التلقيح الكهربائى ينشأ من بين الكهربائيتين ضوء وحرارة لهما خواص غير خواص الكهربائيتين ، فهذا شرط الشبه الشديد للقاح الأحياء قد توفر .

أما شرط ترتب نزول الماء على تحقق هذا الإلقاح ، فقد عرفت توفره من ترتب تكاثف السحاب مطراً على التفريغ الكهربائى السحابى .

فآية الحجر هى مظهر من مظاهر الإعجاز المتجدد للقرآن ، لأن تلاقح السحاب وأثره فى نزول المطر ، أمر كان يجهله الإنسان ، حتى كشف عنه العلم الحديث » .

وآية أخرى أكثر تفصيلا من آية الحجر هى آية النور :

« أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ » .

ومفتاح هذه الآية الكريمة هو فى قوله تعالى : « ثم يؤلف بينه » .

فقد كان الناس يمرون بهذه الكلمات الكريمة يرونها مجازاً من المجازات البلاغية ، وهى حقيقة من أمهات الحقائق الكونية .

وهذه الكلمات مفتاح الآية الكريمة ، لأنها تدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التى تقوم عليها تلك الظواهر الجوية كلها ؛ فإن التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة . بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية ، حتى يتجاذب ، ويتعبأ فى الجو تعبئة كتعبئة الجيوش ، يتفق مع ما يريد الله أن يخلقه من بين السحاب : من برق ، وصواعق ، ومن مطر أو برد . فإذا كان السحاب المتجاذب بعضه فوق بعض ، نشأ السحاب الركام .

وقد ذكرنا لك قبل ما وجدوه من أن عمق الركام فى العواصف الرعدية يكون عظيماً ؛ فإذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض تلك الطبقات وبعض — كما هو الغالب — نزل المطر الناشئ عن ذلك التفريغ من خلال الطبقات الدنيا ، وتكبر قطراته أثناء نزولها بما تستلحقه من القطيرات ، وهو الودق .

فإذا بلغت الحالة الجوية الكهربائية فى ذلك السحاب الركام من القوة ومن الاضطراب ما يسمح بوقوع تلك الظاهرة الغريبة ، ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين ، ثلجية علوية ومطرية سفلية ، تكون البرد ، ونما حتى يصير أثقل من أن يظل فى أسر تلك القوى ، فيسقط على الأرض رحمة إن كان صغيراً هيناً ، ونقمة إن كان كبيراً راجماً .

«فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء». وليس يدرى الإنسان كثيراً عن الظروف التى يتكون فيها البرد ، لكنه يدرى أنها ظروف

يسودها اضطراب جوى عظيم . هذا الاضطراب قد أشارت الآية إليه وإلى طبيعته إشارتين :

الأولى : حين شبهت السحاب الركام الذى يتكون البرد داخله بالجبال .

والثانية : حين أشارت إلى عظم القوى الكهربائية المشتركة فى تكوينه بنصها على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة درجة الابيضاض أو ما فوق ذلك :

« يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ »

* * *

وهناك آية أخرى أشارت إلى الطبيعة الكهربائية لتلك الظواهر إشارة من نوع آخر ، هى آية الواقعة :

« أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ . أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ . لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ[١] » .

وتستطيع — بعد أن عرفت العوامل المتعددة التى لا بد من تعاونها على تكوين المطر — أن تدرك شيئاً من سر الحجة فى هذا السؤال العجيب :

« أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُون ؟ » .

---

(١) سورة الواقعة : ٦٩ — ٧٠

لكن الإشارة التى أردنا أن نلفت النظر إليها هى فى قوله تعالى :
« لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ » .

والناس طبعاً يسلمون بالقدرة الإلهية على قلب العذب أجاجاً ، ويظنون أن هذا يكون عن طريق الخوارق ، ولا يتساءلون : هل فى سنن الله ما يسمح بهذا ؟ . ولو تساءلوا وتطلبوا الجواب فى العلم لوجدوه قريباً ، ولعرفوا أن عذوبة الماء الذى يسقيهم الله إياه من السحاب هى بمحض رحمة الله .

إن الماء طبعاً عذب بطبيعته ، وماء المطر معروف أنه أنقى المياه ، لكن طبيعة تكونه من السحاب تعرضه لأن ينقلب أجاجاً لا ينتفع به الإنسان .

إن الهواء كما تعرف أربعة أخماسه أزوت أو نتروجين ، والأزوت كما تعرف أيضاً لا يكاد يتحد فى العادة بشئ ، ولا بالأكسجين الذى يكاد يتحد بكل شئ . لكن الكيماويون وجدوا أنهم يستطيعون بالكهربائية أن يحولوا الأزوت غير الفعال إلى أزوت فعال ، يتحد بأشياء كثيرة فى درجة الحرارة العادية كما وجدوا أنهم يستطيعون أن يحملوا الأزوت على الإتحاد بالأكسجين ، بإمرار الشرر الكهربائى فى مخلوط منهما ، ومن هذا الاتحاد ينشأ بعض أكاسيد للأزوت قابل للذوبان فى الماء ، وإذا ذاب فيه اتحد به ، وكون حمضين أزوتين ، أحدهما حمض الأزوتيك ، أو ماء النار ، كما كان يسميه القدماء ، وإليه يصير الحمض الثانى .

وقليل من حمض الأزوتيك فى الماء كاف لإفساد طعمه .

وأظنك الآن بدأت تدرك الطريق الذى يمكن أن ينقلب به ماء المطر ماء أجاجاً ، من غير خرق لأى سنة من سنن الله .

فهو نفس الطريق الكهربائى الذى يتكون به المطر ، وكل الذى يلزم : أن يتعدل التفريغ الكهربائى ، ويتكرر فى الهواء تكراراً يتكون به مقدار كاف من تلك الأكاسيد الأزوتية يذوب فى ماء السحاب ، ويحوله حمضياً لا يسيغه الناس .

وهذا هو موضع المن من الله على الناس ، أنه يكيف التفريغ بالصورة التى ينزل بها المطر ، ولا يؤج بها الماء .

إن شيئاً من ذينك الحمضين لا بد أن يترك فى ماء العواصف ، وهذا ضرورى للحياة لأنه يتحول فى الأرض إلى الأزوتات الضرورية لحياة النبات .

لكن الله برحمته وحكمته يقدر تكونه بحيث لا يتأذى به إنسان ولا حيوان . ولو شاء الله لكثره فى ماء المطر ، فأفسده على الناس .

وسواء شكر الناس هذه النعمة أم كفروها ، فإن فى قوله تعالى : « لو نشاء جعلناه أجاجاً » إشارة إلى تلك العوامل الكهربائية التى يتكون بها المطر ، يفهمها من يفقه تلك الحقائق السابقة ، ومن يعرف أن الطريق الكهربائى هو أحد الطرق العملية التى يمكن بها تحويل الأزوت الجوى إلى حمض[1] » .

(١) الدكتور محمد أحمد الغمراوى : سنن الله الكونية .

يقول الله تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة » .

يقول الدكتور « الكسيس كا يل » إنه يهيب بالأمهات أن يؤدين ما خلقن له فإن لبن الأم حق طبيعى للطفل .

وقد ثبت من الإحصاء الطبى أن عدد الوفيات فى الأطفال الذين يرضعون بطرق صناعية عشرة أضعاف عدد الوفيات فى الذين يرضعون رضاعة طبيعية . ولا نريد هنا أن ندخل فى تفصيلات علمية دقيقة ، بل يكفى أن نقرر أن ميزة اللبن الطبيعى على اللبن الصناعى لا يمكن أن تعوض بحال .

وهكذا جاءت الآية الكريمة تضم بين كلماتها أساساً من الأسس وقانوناً من القوانين التى تقوم عليها الرضاعة(١) .

ويقول الله تعالى :

« لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ . أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ » .

هذه الآيات معجزة من معجزات القرآن العظيمة ، وهى من الدلائل القاطعة والإشارات الصريحة الحاسمة على دعوة القرآن للعلم . إن هذه الآيات ذكرت حقيقة علمية تعتبر من معجزات العلم على مر العصور بعد ما أحدثت انقلاباً فى البحوث الجنائية التى أحرزت

---

(١) محمد منير شهوان : الإسلام يدعو إلى العلم ، ص ٤٤ .

فيها تقدما كبيراً ، قال تعالى : « نسوى بنانه » أى نرتب أصابعه ، ومعنى الآيات أن الله تعالى يقول : أيظن الإنسان أننا لن نقدر على جمع عظامه . . كلا ، بل نحن قادرين على تشكيل أصابعه وترتيبها ، وكانت هذه لفتة من عند الله العلى القدير وإشارة واضحة إلى شئ معجز فى البنان حتى كشف الطب الحديث النقاب عن بصمات الأصابع التى لا يمكن أن يتماثل فيها أصبع مع أصبع ولو كانا من يد واحدة ؛ ولهذا يقول الله فى معرض استعراض قوته وعظمته لذلك الإنسان أنه قادر على تشكيل الأصابع على اختلافها وتعقيد خطوطها التى تكون بصماتها (١) .

ويقول الله تعالى :

« يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فيه شفَاءٌ للنَّـــاس » .



أثبتت التحاليل أن عسل النحل يحتوى على ما يقرب من نصفه سكر عنب أو ما يسمى بالجلوكوز ، وهذه النسبة تعتبر أكثر نسبة وجدت لهذا النوع من السكر فى أى غذاء آخر .

ويقول الدكتور عبد العزيز إسماعيل أن عسل النحل هو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض ، فهو يستخدم بصفته مقوياً ومغذياً ، ويستخدم ضد التسمم الناتج من مواد خارجية مثل الزرنيخ والزئبق وكذلك ضد التسمم الناتج من بعض الأمراض مثل التسمم البولى

(١) نفس المصدر ، ص ٤٩ .

والناتج من أمراض الكبد والمعدة والأمعاء وفى الحميات والحصبة والالتهابات الرئوية وفى حالات الذبحة الصدرية ، وغير ذلك ، حقاً إنه تنزيل من العليم الخبير ... يقول العالم الرياضى الفلكى الغازى أحمد مختار فى كتابه « سرائر القرآن » : « إن فى القرآن آيات بينات عن تكوين العالم ، وكيف كان هذا التكوين ، وعن الأطوار التى تنقل فيها ، وعن خلقه الموجودات وأسباب الحياة ، وعن آخر كرتنا الأرضية وعاقبتها التى ستصير إليها فى النهاية .

ولقد كانت معانى هذه الآيات الشريفة منظور إليها فيما مضى من جهة العقائد فحسب ، ولم يكن أحد يستطيع أن يذهب فى تأويلها مذهباً يصدر فيه عن علم ، ولكن هذه الحالة قد تغيرت الآن ، لأن الحكماء الذين نبغوا فى العصرين الأخيرين قد أبانوا بمباحثهم العلمية وما كشفوه من الغوامض الدقيقة عن قدرة الله بأجلى بيان ، حتى أصبحت نظريات علم التكوين صالحة لتفسير آيات الله سبحانه وتعالى تفسيراً بديعاً ، مع أنها هى فى حالتها الراهنة لم تبلغ بعد حد الكمال » . ويقول الإمام الغزالى : إنما ينكشف للراسخين فى العلم من أسرار القرآن بقدر غزارة علومهم ، وصفاء قلوبهم ، وتوافر دواعيهم على التدبر ، وتجردهم للطلب ، ويكون لكل واحد حد فى الترقى إلى درجة أعلى منه ؛ أما الاستيفاء فلا مطمع فيه ، فأسرار كلمات الله لا نهاية لها ، ومن هذا الوجه يتفاوت الخلق فى الفهم بعد الاشتراك فى معرفة ظاهر التفسير ، وظاهر التفسير لا يغنى عنه .

إن دعوة القرآن للناس إنما جاءت دعوة تحررية علمية ، تستمد

قوتها من حقائق الوجود ، وتقوم على تحرير العقل البشرى من ربقة الأوهام ، وإطلاق عقال الفكر الإنسانى من قيود الضلال ، وإنارة الطريق أمام البصائر والأبصار ، حتى يهتدى الضالون ، ويرشد الحائرون .

— ٤ —

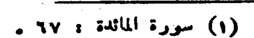
اختص القرآن من بين سائر الكتب التى يمكن أن توضع إلى جانبه بتنبؤاته بكثير من الحوادث الغيبية التى تقع فى المستقبل ، ثم جاءت الحوادث مصدقة لما يتنبأ به .

وقد اعتاد الكتاب أن يشيروا فى هذا الموضوع إلى نبوءة القرآن الخاصة بانتصار الروم بعد هزيمتهم على أنها أظهر مثل لذلك ، ولكن الحق أن آيات القرآن تفيض بالإشارة إلى حوادث مختلفة صدقتها الأيام .

وعد القرآن الرسول بأن الله سيعصمه من الناس فلا ينالونه بأذى أو بالأحرى أنه لن يموت قتيلا ، بأيدى البشر . فكان الذى وعده :

يقول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ[١] » .

روى الترمذى والحاكم عن عائشة ، وروى الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى قال : كان النبى يحرس بالليل ، فلما نزلت هذه الآية ترك الحرس وقال : « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله » .



(١) سورة المائدة : ٦٧ .

وهكذا أمتع الله به أمته فلم يقبضه إليه حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وحتى أنزل عليه قوله :

« الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا[١] » .

ووعد القرآن المسلمين عامة فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد موته أن يستخلفهم فى الأرض ويجعلهم أئمة البشر ، ويجعلهم الوارثين :

«وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا[٢] » .

وقد صدق القرآن وعده وتمت نبوءته ، فكان العرب هم خلفاء الأرض ، وحكمت فئة قليلة منهم شعوب ذلك الزمان :

منع المسلمون من دخول مكة عام الحديبية ، واشترطت عليهم قريش إذا جاءوها فى العام المقبل أن يدخلوها عزلا من كل سلاح إلا السيوف فى القرب : فهل كان لهم أن يثقوا بوفاء المشركين بعقدهم وقد بلوا منهم نكث العهود وقطع الأرحام وانتهاك شعائر الله ؟ أليسوا اليوم يحبسون هديهم أن يبلغ محله ؟ فماذا هم صانعون غداً ؟

---

(١) سورة المائدة : ٣ .
(٢) سورة النور : ٥٥ .

على أنهم لو صدقوا فى تمكين المسلمين من الدخول فكيف يأمن المسلمون جانبهم إذا دخلوا عليهم دارهم مجردين من دروعهم وقوتهم ؟ ألا تكون هذه مكيدة يراد منها استدراجهم إلى الفخ وآية ذلك اشتراط تجردهم من السلاح إلا السيف فى القراب وهو سلاح قد يطمئن به المسلمون إلى أنهم لن ينالوهم بأيديهم ورماحهم ، ولكنه لا يأمنون معه أن ينالوهم بسهامهم ونبالهم ، فى هذه الظروف المريبة يجيئهم الوعد الجازم بالأمور الثلاثة مجتمعة : الدخول ، والأمن ، وقضاء الشعيرة :

« لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ[1] ».

فدخلوها فى عمرة القضاء آمنين ، ولبثوا فيها ثلاثة أيام حتى أتموا عمرتهم قضوا مناسكهم .

ويقول الله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[2] ».

هذه آية مكية ، وفى مكة لقى الرسول من الارستقراطية القرشية العنت والإعراض ، وراحت الفئة الباغية تعذب الفئة القليلة التى آمنت به ، ثم شنت عليه وعلى الذين آمنوا معه حرباً نفسية ، وفرضت عليهم حصاراً اقتصادياً مدة غير يسيرة فى شعب من شعاب مكة . ودبرت المؤامرات لقتله أو نفيه ... ظلمات متراكمة بعضها فوق بعض ، ظلمات عن يمين ، وظلمات عن شمال .. ورغم هذه

(١) سورة الفتح : ٢٧ .
(٢) سورة الحجر : ٩ .



الظروف القاسية قاوم القرآن . ولنسأل التاريخ : كم مرة تنكر الدهر لدول الإسلام وتسلط الفجار على المسلمين فأثخنوا فيهم القتل ، وأكرهوا أمما منهم على الكفر ، وأحرقوا الكتب ، وهدموا المساجد وصنعوا ما كان يكفى القليل منه لضياع هذا القرآن كلا أو بعضاً كما فعل بالكتب قبله ، لولا أن يد العناية تحرسه فبقى فى وسط هذه المعامع رافعاً راياته وأعلامه ، حافظاً آياته وأحكامه ، بل لنسأل صحف الأخبار اليومية · كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق فى كل عام لمحو هذا القرآن وصد الناس عن الإسلام بالتضليل والبهتان والخداع والإغراء ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ، ثُمَّ يُغْلَبُونَ[1] » .

ذلك بأن الذى يمسكه أن يزول هو الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ذلك بأن الله « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » والله بالغ أمره ، ومتم نوره ، فظهر وسيبقى ظاهراً لا يضره من خالفه حتى يأتى أمر الله ؛

استعصى[2] أهل مكة على الرسول صلى الله عليه وسلم ، فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف ·

---

(١) سورة الأنفال : ٣٦ .

(٢) د. محمد عبد الله دراز : النبأ العظيم . ص ٤٢ .

فانظر ما قاله القرآن فى جواب هذا الدعاء : « فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ، يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ[1] » .

فماذا جرى ؟ أصابهم القحط حتى أكلوا العظام ، وحتى جعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد — رواه البخارى عن ابن مسعود .

ثم انظر قوله بعد ذلك : « إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً ، إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ، يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ » .

تر فيها ثلاث نبوءات أخرى :

كشف البؤس عنهم ، ثم عودتهم إلى مكرهم السيئ ، ثم الانتقام منهم بعد ذلك . وقد كان ذلك كله كما بينه الحديث الصحيح المذكور ، فإنهم لما جاءوا إلى رسول الله يستسقون ، وتضرعوا إلى الله : « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون » سقاهم الله فأخصبوا ، ولكنهم سرعان ما عادوا إلى عتوهم واستكبارهم ، فبطش الله بهم البطشة الكبرى يوم بدر ، حيث قتل من صناديدهم سبعون ، وأسر سبعون .

وحسبنا هذا القدر إشارة لما تتضمنه آيات القرآن من إعلام بالغيب والمستقبل وما تنبأت به من حوادث وتحولات لم تلبث أن صدقتها صروف الزمان .

---

(١) سورة الدخان : ١٠ .

الكتاب الثاني

العقائد في القرآن

الفصل الأول

العقيدة الإلهية

— ١ —

جاء القرآن بأسمى عقيدة فى الإله الواحد الأحد ، والفلاسفة القدامى أسموا الله الصانع ، والعقل الأول ، وواجب الوجود ، وسبب الأسباب ، وغير ذلك من الأسماء التى اصطلحوا عليها . كما أن للعلماء المحدثين تصورات فى الألوهية التبس فيها الحق بالباطل ، وعلة هذا اللبس أن هداية السماء لم تصحب العقل فى سيره ، ومن ثم أقر العقل بالمبدأ الواجب وأخطأ فى التفاصيل المتعلقة به .

إن العقل الذكى والبحث النزيه والفكرة المبرأة عن الغرض المستقيمة على المنهج ، تتأدى بأصحابها حتما إلى الله ، وتقفهم خاشعين أمام الشعور الغامر بعظمته وجلاله ، ومن فساد الفكر أن يظن بعض الناس أن الإيمان وليد استغلاق الذهن ، أو أن استبحار العلوم واتساع المعارف البشرية يخدش قاعدة الإيمان ويوهى الصلة بالإله عز وجل .

يقول العالم أدنختون : « إن من وراء هذا الكون عقلا مدبراً حكيما ، هو العقل الأعظم ، وروحاً سامياً ، هو الروح الأعظم ، هو الله سبحانه وتعالى » .

ويقول العالم أنيشتين : إن أعظم جائشة من جائشات النفس وأجملها ، تلك التى تستشعرها النفس ، عند الوقوف فى روعة أمام

هذا الخفاء الكونى ، إن الذى لا تجيش نفسه لهذا ولا تتحرك عاطفته هو حى كميت ، إنه خفاء لا تستطيع أن تشق حجبه ، وظلام لاتستطيع أن تطلع فجره ، ومع هذا فتدرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة أحكم ما تكون ، وتحس أن وراءه شيئاً هو الجمال أجمل ما يكون ، وهى حكمة ، وهو جمال ، لا نستطيع أن تدركها عقولنا القاصرة ، إلا فى صورة لها بدائية وأولية ، وهذا الإدراك للحكمة ، وهذا الإحساس بالجمال فى روعته ، هو جوهر التعبد عند الخلائق » .

ويقول : « إن الشعور الدينى ، الذى يستشعره الباحث فى الكون ، هو أقوى حافز على البحث العلمى وأنبل حافز » .

ويقول : « إن دينى هو إعجابى فى تواضع بتلك الروح السامية ، التى لا حد لها ، تلك التى تتراءى فى التفاصيل الصغيرة القليلة التى تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة العاجزة ، وهو إيمانى العاطفى بوجود قدرة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا فى هذا الكون المعجز للأفهام ، إن هذا الإيمان يؤلف عندى معنى الله[١] » .

ويبين العالم الإنجليزى السير جيمس جينز ، كيف انحسرت موجة الإلحاد المادى التى طغت فى القرن الماضى فيقول[٢] : « أما الآن فالآراء متفقة إلى حد كبير ، فى الجانب الطبيعى من العلم ، يكاد يقرب من الإجماع ، على أن نهر المعرفة بدأ يتجه نحو حقيقة غير مادية وغير آلية ، وقد بدأ الكون يلوح أكثر شبهاً بفكرة عظيمة ،

---

(١) الدكتور أحمد زكى : مع الله فى السماء .

(٢) كتاب « الكون الغامض » ترجمة وزارة التربية والتعليم .

منه بآلة عظيمة : ولم يعد العقل بعد دخيلا ألقت به المصادفة فى عالم المادة ، بل بدأ يجول بخاطرنا أن من واجبنا أن نحييه ونعده خالق العالم ، المسيطر عليه ، ولسنا نقصد بهذا العقل ، بطبيعة الحال ، عقولنا الفردية ، بل نعنى ذلك العقل الكلى الذى توجد فيه على شكل فكر ، تلك الذرات التى نشأت منها عقولنا ، وتلك المعرفة الجديدة تضطرنا إلى أن نعدل عن رأينا السابق ، ونحن واجدون فى الكون دلائل على وجود قوة مدبرة مسيطرة ، يوجد بينها وبين عقولنا الفردية شئ مشترك » .

ويبرهن العالم الأمريكى كريس موريسون فى كتابه « الإنسان لا يقوم وحده[1] » من واقع مختلف الحقائق العلمية ، على أن الله بارئ الكون وخالق كل شئ ، ويرد بمنطق العلم على جوليان هكسلى الذى كان قد كتب كتاباً سماه « الإنسان يقوم وحده » يقول هذا العالم فى مقدمة كتابه : إن وجود الخالق تدل عليه التنظيمات اللانهائية التى تكون الحياة بدونها مستحيلة ، وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض والمظاهر الفاخرة لذكائه ، إنما هى جزء من برنامج ينفذه بارئ هذا الكون بمشيئته وقدرته ، وإن تحطيم الذرة ، التى تعتبر أصغر قالب فى بناء الكون ، إلى مجموعة من الجسيمات هى فى نظامها كنظام المجموعة الشمسية سواء بسواء ، فتتألف من جرم مذنب هو النواة ، والالكترونات طائرة تدور فى فلكها ، قد فتح المجال لتبديل النظرية القديمة عن الكون تبديلا جوهرياً ، ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط

---

(١) ترجمه الأستاذ محمود صالح الفلكى بعنوان « العلم يدعو للإيمان » .

تصورنا بما هو مادى بل إن المعارف الجديدة ، التى كشف عنها العلم ، لتدل على وجود جبار مدبر وراء ظواهر الطبيعة ، وهذا الضوء ، يقودنا إلى الاعتراف بوجود عقل أسمى ، أى إلى وجود الخالق .

ويختم كتابه بقوله : إن كون الإنسان فى كل مكان ، منذ بدأ الخليقة حتى الآن ، قد يشعر بحافز يحفزه إلى أن يستنجد بمن هو أسمى منه وأقوى وأعظم ، يدل على أن الدين فطرى فيه ، ويجب أن يقر العلم بذلك ، ويجب أن تأخذنا الروعة والدهشة والإجلال لإجماع البشر فى شتى أنحاء العالم على البحث عن الخالق والإيمان بوجوده أو ليست روح الإنسان هى التى تشعر باتصالها بالله ؟ .

إن وجود هذا الحافز هو برهان على قصد العناية الإلهية . إنها الفطرة السليمة المركوزة فيه ، والتى لا تقل شأناً عن عقله العجيب ، هذا العقل الذى يملك قدرات واستعدادات قابلة للنمو والتقدم الذى لا حد له ، إن أى اتحاد مادى للعناصر ما كان يمكن أن يتولد عنه أى رأى أو فكرة البتة ، ولكنه القبس الإلهى ، هذا الشئ غير المادى وغير الملموس هو الذى أنتج ما أنتجه الإنسان من عجائب ، وهو يختلف فى جوهره عن كل ما هو مادى مما صنع منه العالم ، فهو لا يرى ولا يوزن ولا يقاس ، ولكن نشعر به ، وبصلته بالمصدر الأعلى لوجوده .

إن تقدم الإنسان من الوجهة الخلقية ، وشعوره بالواجب إنما هو أثر من آثار الإيمان بالله ، والاعتقاد بالخلود ، وإن غريزة الدين تكشف عن روح الإنسان وعن ترقيه ، خطوة خطوة حتى تشعر

بالاتصال بالله ، وإن دعاء الإنسان الغريزى لله ، بأن يكون فى عونه هو أمر طبيعى ، وإن أبسط صلاة لتسمو بالإنسان وتقربه من خالقه ؛ إن الوقار والكرم والنبل والفضيلة والإلهام وكل ما يسمى بالصفات الإلهية ، لا يمكن أن ينبعث من الإلحاد . إنها المثل العليا التى بدونها تفلس المدنية ، وينقلب النظام فوضى ويضيع كل ضابط ، ويسود العالم الشر ، فعلينا أن نثبت على إيماننا بالله ، وعلى محبته ، وعلى الأخوة الإنسانية ، فإن ذلك يسمو بنا نحو الله تعالى ، إذ ننفذ بذلك مشيئته ، ونثبت أننا جديرون حقاً بعنايته » .

إن العلماء لمسوا آثار الحقيقة العليا ، وبدأ إيمانهم بالله يتركز على أساس من التجربة المادية والإحساس النفسى .

وعندما جاء القرآن ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويأخذ بأيديهم إلى الحق المبين لم يكلفهم عسرا ، لم يزد أن طلب إليهم فتح أبصارهم على آفاق السماء وفجاج الأرض وخواص الأشياء :

« قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » .

«أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ ».

فإذا أمعن المرء فكره الواعى وراح يستكنه أسرار الحياة فسيرجع بعد جولة قريبة بهذه الحقيقة المشرقة ، الحقيقة التى أجملتها الآية الكريمة :

« اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ . لَهُ مَقَالِيدُ

السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . قُلْ أَفَغَيْرَ اللهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ »

كتب العلامة الفرنسى « لوجيل » فى كتابه « العلم والفلسفة » يناقش الماديين فى ذات أصولهم المقررة ويثبت لهم أنها لا تؤدى إلى النتائج التى يودون استنتاجها منها فقال(١) :

«العلم يستسلم أحياناً لإنكارات وشكوك تزعجنا ، ولكن للعلم مساتير لا يسبر لها غور ، فهو يكتفى بالألفاظ كلما لم يجد سبيلا للنفوذ إلى سرائر الظواهر المحسوسة .

تكثر الكيمياء من ذكر الألفة الكيمائية (أى الميل الذى هو بين بعض الجواهر وبعضها الآخر لإحداث مركبات جديدة) أليست هذه الألفة قوة فرضية غير مدركة بالحواس كالحياة والروح ؟ .

الكيمياء ترجع إلى الفيزبولوجيا أصل الحياة ، وتأبى عليها أن تشتغل بها ، ولكن المذهب الذى تحوم حوله الكيمياء هل فيه ظل من الحقيقة ؟ هذا الأصل الحيوى لا يدرك ليس فى ينبوعه فحسب ، ولكن فى نتائجه أيضاً ، فهل يستطيع الإنسان أن يتأمل قليلا فى القوانين المسماة بقوانين « برتلو » مثلا ، دون أن يدرك بأنه حيال سر لا يسبر غوره ؟ وإذا اعتبرنا ظاهرة بسيطة من ظواهر الألفة الكيميائية ، وأشرفنا على هذا الميل الذى يدفع بعض الذرات إلى بعض آخر ،

---

(١) محمد فريد وجدى : تأييد العلم الصحيح للاعتقاد بالله — مجلة نور الإسلام ، ج ٥ ، المجلد الرابع ، ١٩٣٣ .

فتراها تتباحث ثم تتضام ، بعد تخلصها من المركبات التى كانت تحويها ، أليس فى هذا ما يحير العقل ؟ ؛

كلما أنعم الإنسان فى درس العلوم من وجهتها المعنوية ، زاد اعتقاداً بأن ليس فى العلم ما يمنع من اتفاقه مع أبعد الفلسفات العقلية مرمى ، العلوم تحلل العلاقات ، وتأخذ القياسات ، وتكتشف النواميس التى تنظم عالم الظواهر ، ولكن لا توجد ظاهرة واحدة مهما كانت تافهة لا تضعها العلوم حيال أمرين ليس للأسلوب التجريبى عليهما من سبيل ؛

أولهما : أصل المادة التى تغيرت بواسطة تلك الظاهرة الطبيعية ؛

وثانيهما : القوة التى استدعت هذه التغيرات فيها ؛

نحن لا نعلم ولا نرى إلا الظواهر والقشور ، أما الحقيقة والعلة فتأبيان أن تنكشفا لنا ، وإنه ليحق لفلسفة عالية أن تعتبر كل القوى الخاصة التى أفاعيلها قد تحللت بالعلوم المختلفة ، صادرة عن قوة أولية أبدية واجبة الوجود ، مصدر كل حركة ، ومركز كل عمل ، إذا وجهنا أنفسنا هذه الوجهة تظهر لنا الحوادث الطبيعية ، و الكائنات ذاتها صوراً متغيرة لفكرة إلهية » ؛

وقال العلامة الكبير « كامبل فلامريون » الفلكى فى كتابه « الاعتقاد بالله فى النظر فى الطبيعة » ، واسمه الحقيقى فى عبارة المؤلف « الله فى الطبيعة » :

إذا أعلنا أن جميع أنواع النباتات والحيوانات لم تخلق خلقاً مستقلا على صورة مقدرة لكل منها ، وذهبنا إلى أن هذا التنوع فى الصور فعل

قوة متحدة بالمادة ، فهل يمنعنا ذلك من الاعتقاد بوجود عقل خالق ، وبظهور غرضه وقصده فى الخليقة ، ألسنا نكون متعمدين عدم التدبر بعين البصيرة ، وإذا رفضنا اعتبار هذه القوة الملازمة للمادة نتيجة عقل مدبر لها ؟ ألسنا نكون عمياً إذا رفضنا الاعتراف بهذه الدلائل الناطقة على وجود عامل قادر أزلى فى الكون ؟

إن الزعم بأن الخليقة تتكون بذاتها وترتقى بطبعتها فى أعمالها على اتجاه ثابت نحو نتائج متدرجة فى الكمال يعتبر كنصف اعتراف بأن هذه الطبيعة مقودة نحو الكمال بسبب عاقل .

كيف يعقل أن الطبيعة الميتة تفكر فى أن تترتب على التعاقب فى صور نباتية ثم حيوانية ثم إنسانية وأن تكون هذه الأعضاء التى تؤلف الكائن الحى ، وتكون مليئة بحفظ الحياة فى خلال العصور وأن تبنى هذه الأجهزة ، لهذا الكائن الحى ليكون فى اتصال مستمر بالأشياء المغايرة له ؟ بأى اتفاق مدهش تكونت هذه الأعضاء يسيراً يسيراً لأجل إيصال المؤثرات الخارجية إلى الجسم ثم كيف ارتبطت هذه الأعضاء بالمخ المدرك الذى هو وحده يفهم ويحكم ؟ .

وكيف اتفق أن تكون هذه الأعضاء على أكمل حالة من البناء والتركيب ؟ وكيف أن أكثر الأجهزة كملت ، ولم تأت عادمة الجدوى أو فاسدة الصنعة ؟ وكيف تستديم الأجسام الحية أنواعها بالتوالد حافظة لكل صفاتها ؟ .

ولماذا كانت الخليقة مؤلفة من أجناس وأنواع وفصائل ، ولماذا يستطيع العقل الإنسانى أن يرتب هذه الكائنات فى مجموعها ترتيباً

مؤسساً ويجد فيه نظاماً عاماً ؟ ولماذا لم تكن الطبيعة مجموعات من الكائنات المشوهة ؟ .

إنهم يجيبونك على كل هذه الأسئلة بقولهم إن علة ذلك ناموس الانتخاب الطبيعي . فتراهم يفسرون جميع المسائل بتكرار قولهم إن الطبيعة مدفوعة إلى الترقي المستمر ، وأنها تدع الخبيث وتأخذ الطيب . وتميل دائماً إلى أن توجد الصور الكاملة . نعم ، ولكن هذا الميل للامام ، وهذا الترقي الطبيعي وهذه الحاجة إلى الكمال ، ما هي إن لم تكن عمل قوة عامة تقود العالم نحو غاية عالية . وما هو هذا التدرج من جميع الكائنات نحو التكمل ، إن لم يكن مظهراً واضحاً لعالم يعلم أين يوجه سفينة الكون ، وكيف يقودها عامل لم تستطع المادة الخاضعة له أن تقيم أمامه أقل العثرات .

ويقول : إن فوق كل الاستحالات الممكنة للكائنات ناموساً لا يتحول يقود التطورات الطبيعية منذ بدء تكون الأنواع الأولية العريقة في السذاجة من لدن العصور الأولى لوجود الأرض ما حققته الجيولوجيا والبالبونتولوجيا (أي علما طبقات الأرض والحفريات) هذا الناموس هو ناموس الترقي الواضح الذي لا ينكر أثره في سلسلة الأنواع المتعاقبة من أول الحيوانات الرخوة إلى الإنسان كيف يمكن أن ينكر على هذا الناموس أنه مقود بعقل مدبر ، أليس يمثل غرضاً ومقصداً وقانوناً مفروضاً على الطبيعة برمتها ، نحن نبرأ بكل عالم بطبقات الأرض والأحافير وبكل طبيعي أن ينكر هذا القانون .

إن العقل الخالق المدبر ندعوه « الله » هو إذن المدبر الأزلي الأبدي ، والقدرة الصحيحة العامة المؤلفة للوحدة الحية للعالم »

وقال الفيلسوف الكبير « ادوارد ملن » الانجليزى كما نقله عنه الأستاذ كامبل فلامريون : « يجب أن يدهش الإنسان لما يرى حيال هذه المشاهدة الناطقة المتكررة رجالا يدعون لك أن كل هذه العجائب الكونية ليست إلا نتائج الاتفاق والخبط ، أو بعبارة أخرى نتائج الخواص العامة للمادة وأثر لتلك الطبيعة التى تكون مادة الخشب ومادة الأحجار وأن الهامات النمل وأسمى مدركات القوة العقلية الإنسانية ليست إلا نتيجة عمل القوى الطبيعية أو الكيماوية التى يتم بها تجمد الماء واحتراق الفحم وسقوط الأجسام . إن هذه الافتراضات الباطلة بل هذه الأضاليل العقلية التى يسترونها باسم العلم الحسى قد دحضها العلم الصحيح دحضاً ؛ فإن العالم الطبيعى لا يستطيع أن يقول بها أصلا . وإذا أطل الإنسان على وكر من أوكار بعض الحشرات الضعيفة يسمع بجلاء ووضوح صوت العناية الإلهية ترشد مخلوقاتها إلى أصول أعمالها اليومية » .

وعندما حاول ديكارت إقامة الدليل على وجود الخالق قدم هاتين المسألتين : وهما : هل يوجد إله للكون ؟ وما هو ذلك الإله رامياً بذلك أن يتأدى بالبحث إلى حقائق ثابتة لا إلى خيالات ذهنية ، فطوح به هذا الميل إلى امتحان ذاته أولا . فرأى أن ذهنه محشو بعقائد وتقاليد وموروثات مختلفة . قال : فأردت لأول مرة فى حياتى أن أتخلص من هذه الآصار الثقيلة متجرداً من كل وراثة لأصل إلى حقائق ثابتة من العلم .

سلك ديكارت هذا الطريق فأثار الشك فى نفسه على كل شئ ، وقال : إن فى طى هذه الشكوك كلها شيئاً واحداً لا يتناوله الشك

أصلا وهو « أنا » وقد كنت قررت بأنى لست بشىء فى الواقع فشككت فى وجود شعورى وجسمانى ولكنى فى هذه الحالة التجريدية كنت موجوداً فى الواقع لأنى استطعت أن أفكر ، فإذاً أنا موجود حقيقة ولا يوجد شىء يستطيع أن يقنعنى بأنى لست بموجود ما دمت أفكر ، فقولى أنا موجود حقيقة ثابتة لا أستطيع أن أشك فيها كلما قلتها أو تصورتها فى ذهنى .

هنا تمكن ديكارت أن يحل نفسه من قيود الشك فخرج بعقيدة صريحة واضحة لا تقبل الجدال وهى أنه موجود . ومن هذا الطريق نفسه توصل إلى استكشاف حقيقة أخرى جليلة القدر ، وهى أنه توجد ذات إلهية متصفة بجميع صفات الكمال . فقال : إن هذه الحقيقة لازم من لوازم فطرتى ، وقد ولدت حاملا أمانتها فى ثنايا قلبى لأنه كيف يعقل أن أدرك بأنى شاك ، وأنى أريد الوصول إلى حقيقة ، وأنى لم أبلغ الكمال الذى أرمى إليه إذا لم يكن مغروزاً فى طبيعتى إدراك وجود ذات أكمل من ذاتى .

لما تأدى ديكارت إلى هذه النتيجة أراد أن يبرهن على أن شعوره بوجود تلك الذات الكاملة لم يأت من التفكير الشخصى ولكن آتاه من تلك الذات الكاملة الخارجة عنه ، فقال : «إن كلمة « الله » إن لفظت بها فإنما أعنى بها ذاتاً لا بداية لها ولا نهاية لها أزلية أبدية ومستقلة عن كل شىء وعالمة بكل شىء ، وقادرة على كل شىء ، وإنى أنا وجميع العوالم الموجودة مخلوقة لها . وهذه معارف جمة كلما تأملت فيها بدقة ازددت اعتقاداً بأنى لم أستنبط الشعور بوجود الله من ذاتى وحدها ،

وعليه فيجب على أن استنتج من ذلك أن لله وجوداً مستقلا ، وأن شعورى بوجود عالم غير متناه لا يمكن أن يكون أصله فى ذاتى أنا ذلك الكائن المتناهى ، بل إنه غرس فى ذاتى من قبل ذات غير متناهية» .

وقال العلامة الانجليزى « نيوتن » رداً على من سأله أن يثبت وجود الخالق بأدلة محسوسة : « لا تشكو فى وجود الخالق ، فإنه مما لا يعقل أن تكون الضرورة وحدها قائدة الوجود ومهيمنة عليه لأن الضرورة العمياء هى هى فى كل مكان وكل زمان ، فلا يتصور أن يصدر منها كل هذا التنوع فى الكائنات ولا هذا الوجود نفسه على ماهو عليه من ترتب الأنواع وتناسبها رغماً من التغييرات التى تنصب عليها بتأثير الأزمنة والأمكنة فكل هذا لا يعقل أن يصدر إلا من كائن أولى له حكمه وإرادة » .

وشرح نيوتن ما أجمله فقال : من المحقق أن الحركات الحالية للكواكب لا يمكن أن تنشأ من مجرد تأثير الجاذبية العامة لأن خاصة هذه القوة أن تدفع بالكواكب نحو الشمس ولكن لأجل تعليل دوران هذه الكواكب حول الشمس يجب أن توجد يد إلهية تدفعها على الخط المماس لمداراتها .

ثم قال : من الواضح أنه لا يوجد أى سبب طبيعى يمكن أن يعزى إليه توجيه جميع الكواكب وتوابعها للدوران فى وجهة واحدة وعلى مستوى واحد دون أن يحدث فيها أى تغيير يذكر ، فمجرد النظر إلى هذا التدبير يشعر بوجوب وجود قدرة إلهية تحدثه . ثم إنه لايوجد سبب طبيعى يستطيع أن يعطى هذه الكواكب وتوابعها هذه الدرجات

من السرعة المناسبة مناسبة دقيقة للمسافات التى بينها وبين الشمس ولمراكز الحركة بحيث تتحرك هذه الأجرام فى مدارات ذات مركز واحد مشترك بينها جميعاً فلأجل تكوين هذا النظام بجميع حركاته يجب وجود مدبر عرف كل هذه المواد ، وقابل بين كمياتها الموجودة فى هذه الأجرام الغلوية المختلفة وأدرك ما يجب أن يصدر منها من القوة الجاذبة وقدر المسافات المتباينة بين الكواكب والشمس وبين توابعها وساتورن ، وجوبيتر ، والأرض ، وقرر السرعة التى يجب أن تدور بها هذه الكواكب وتوابعها حول أجسام تصلح لأن تكون مراكز لها : فمقارنة كل هذه الأمور بعضها ببعض والتوفيق بينها وجعلها نظاماً يشمل كل هذه الاختلافات بين أجزائه ، كل هذا يشهد بوجوب وجود سبب لا أعمى ولا حادث بالاتفاق ولكن على علم راسخ بأصول الميكانيكا والهندسة .

ثم قال : ليس هذا كل ما فى المسألة فإن وجود الله تعالى ضرورى أيضاً سواء أكان ذلك لإدارة هذه الأجرام بعضها على بعض (وهذا الأمر لا يمكن أن ينتج من مجرد القوة الجاذبية) أو لتحديد وجهة هذه الدورات لتتفق ودورات الكواكب كما يرى ذلك فى الشمس والكواكب وتوابعها بينما ذوات الأذناب تدور فى كل وجهة على السواء » ثم قال : وغير هذا فإن فى تكوين الأجرام السماوية ، كيف حدث أن الذرات المبعثرة استطاعت من نفسها أن تنقسم إلى قسمين : فالقسم المضىء منها انحاز إلى ناحية لتكوين الأجرام المضيئة ، والقسم المعتم اجتمع فى ناحية أخرى لتكوين الأجرام المعتمة كالكواكب وتوابعها » كل هذا لا يعقل حصوله إلا بفعل إله لا حد لحكمته » .

إن كل ما ذكرنا ، من مذهبي ديكارت ونيوتن فى إثبات الخالق سبحانه وتعالى قد سبق إليه القرآن الكريم ، وقد جمع بينها فى آيات واحدة :

قال الله تعالى : « وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ » .

إدلالا على أن الإنسان يصل إلى الاعتقاد به من النظر فى نفسه ، ومن النظر فى الطبيعة .

وقد أكثر القرآن من لفت العقول إلى هذين النوعين من العلم ، فقال تعالى :

« إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ » .

يقول الإمام الغزالى(١) : « اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى ، وكان هذا يقتضى أن تكون معرفته أول المعارف وأسبقها إلى الأفهام ، وأسهلها على العقول ، وترى الأمر بالضد من ذلك .. فلا بد من بيان السبب فيه :

« وإنما قلنا : إنه أظهر الموجودات وأجلاها لمعنى لا نفهمه إلا بمثال ، وهو أنا إذا رأينا إنساناً يكتب أو يخيط مثلا كان كونه حياً عندنا من أظهر الموجودات .. فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة . إذ صفاته الباطنة كشهوته

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين ، ج ١ .

وغضبه وخلقه وصحته ومرضه . كل ذلك لا نعرفه ؛ وصفاته الظاهرة لا نعرف بعضها ، وبعضها نشك فيه كمقدار طوله واختلاف لون بشرته ، وغير ذلك من صفاته . أما حياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيواناً فإنه جلي عندنا وإن كنا لا نرى بأعيننا حياته وقدرته وإرادته ، فإن هذه الصفات لا تحس شيء من الحواس الخمس ولا يمكن أن تعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته ، ولو نظرنا إلى كل ما في العالم سواه لم نعرف به صفته ، فما عليه إلا دليل واحد هو عمله بيديه ، وهو مع ذلك موجود جلي واضح .

« ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض ، بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا ، وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا ، وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا ، وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ، ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ، ثم مدركاتنا بالعقل والبصيرة وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد ، وجميع ما في العالم شواهد ناطقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والموجودات المدركة لا حصر لها ، فان كاتب حياة الكاتب(١) ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد ، وهو ما أحسسنا به من حركة يده ، فكيف لا يظهر عندنا مالا يتصور في الوجود شيء داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه ؟ وعلى

(١) في المثال السابق .

عظمته وجلاله : إذ كل ذرة فينا تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها ، وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها ، يشهد بذلك أولاً تركيب أعضائنا وائتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة ، فإنا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها ، كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ، ولكن لما لم يبق فى الوجود شئ مدرك ومحسوس ، ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعروف له عظم ظهوره سبحانه ، فانبهرت العقول ودهشت عن إدراكه : ذلك وما تقصر عن فهمه عقولنا له سببان :

أحدهما خفاؤه فى نفسه وغموضه ، وذلك لا يخفى مثاله ، والآخر ما يتناهى وضوحه ! ! إن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لا لخفاء النهار واستتاره ؛ لكن لشدة ظهوره ، فان بصر الخفاش ضعيف ، يبهره نور الشمس إذا أشرقت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره ، فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية فى نهاية الإشراق والاستنارة ، وفى غاية الاستغراق والشمول حتى لم تشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره ، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره .

ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فإن الأشياء تستبان بأضدادها ، وما عم وجوده حتى أنه لا ضد له عسر إدراكه ،

فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ، ولما اشتركت فى الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ، ومثاله نور الشمس المشرق على الأرض ، فإنا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث فى الأرض ويزول عند غيبة الشمس ، فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها لكنا نظن أنه لا هيئة فى الأجسام إلا ألوانها ، وهى السواد والبياض وغيرهما ، فإنا لا نشاهد فى الأسود إلا السواد وفى الأبيض إلا البياض ، فأما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالين ، فعلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب ، فعرفنا وجود النور بعدمه ، وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة فى الظلام والنور ، هذا مع أن النور أظهر المحسوسات ، إذ به تدرك سائر المحسوسات ، فما هو ظاهر فى نفسه وهو يظهر لغيره ، انظر كيف تصور استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده ، فالله تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ، ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدمت السموات والأرض وبطل الملك والملكوت ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين .

ولو كان بعض الأشياء موجوداً به وبعضها موجوداً بغيره ، لأدركته التفرقة بين الشيئين فى الدلالة ، ولكن دلالته عامة فى الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم فى الأحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء ، فهذا هو السبب فى قصور الأفهام » .

لقد جاء القرآن بالدعوة إلى إله منزه عن لوثة الشرك ، منزه عن جهالة العصبية وسلالة النسب ، منزه عن التشبيه الذى تسرب من بقايا الوثنية إلى الأديان الكتابية (١) .

فالله الذى يؤمن به المسلمون إله واحد لم يكن له شركاء « وسبحانه عما يشركون » وما هو برب قبيلة ولا سلالة يؤثرها على سواها بغير مأثرة ولكنه هو « رب العالمين » خلق الناس جميعاً ليتعارفوا ويتفاضلوا بالتقوى ، فلا فضل بينهم لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ (٢) » .

وهو واحد أحد : « لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٣) » .

لا يأخذ إنسانا بذنب إنسان ، ولا يحاسب أمة خلفت بجريرة أمة سلفت ولا يدين العالم كله بغير نذير .

« وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٤) » .

(١) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه ، ص ٥٢ .
(٢) سورة الحجرات : ١٣ .
(٣) سورة الإخلاص : ٣-٤ .
(٤) سورة فاطر : ١٨ .

ودينه دين الرحمة والعدل ، تفتتح كل سورة من كتابه :
« بسم الله الرحمن الرحيم » .
« وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ »[1].

أمر القرآن بالإيمان بالله الواحد الأحد ، فأطرف العالم بأسمى الرسالات التى تسمو به إلى أعلى مراتب الحياة المادية والأدبية والروحية ، وحرر الفكر البشرى من العبودية لغير الله من جماد وحيوان ونبات وأجرام سماوية وقوى طبيعية إلى آخره ، مما يدخل فى ما سخره الله للإنسان .

وبذلك حلت القيود التى طالما رسف العقل البشرى فيها . وسار الإنسان طليقاً حراً فى مدارج التقدم والرقى .

إن أول شرط للنهوض بالمستوى البشرى هو تحرير عقله من العبودية وحسبه أن يؤمن باله واحد لا شريك له فيصبح حراً طليقاً .

— ٢ —

جاء القرآن يصف الله بصفات ، قد يتفق للبشر أن تشارك فى هذه الصفات بالاسم أو بالجسم[2] فقد جاء به أنه تعالى سميع بصير متكلم ، وأنه يقبض ويدبر وغير ذلك من الصفات التى قد يفهم من ظاهرها أن الله سبحانه كيفا مجسما تظهر به هذه الصفات ، فالله فوق كل كنف مادى ، وانكشاف صفاته تعالى ليس بآلة ولا جارحة ، ولا حدقة

---

(١) سورة فصلت : ٤٦ .
(٢) محمد على : الدين الإسلامى ، جـ ١ ، ص ٩٢ — ترجمة محمد سعيد أحمد .

ولا باصرة ، مما هو معروف لنا ، وكذلك علمه تعالى ليس بآلة الدماغ ، ولا بوجدان القلب ، قال تعالى :

« لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ[١] » .

وهو كذلك ليس له مثيل وفوق كل كيف مجازى ، قال تعالى : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ[٢] » .

فصفات القوة والمعرفة وغير ذلك من صفات الله تعالى معبر عنها بكلمات عادية مما تستعمل فى صفات الناس وتختلف عنها فى إدراك كنهها ، فإذا قلنا إن الله يرى فليس معنى ذلك أن لله عينين كأعيننا، وإنه يعوزه نور يعين على مرأى الأشياء ، وإذا قلنا إن الله يسمع فليس المقصود أن لله أذنين كآذاننا ، وأنه يفتقر إلى هواء لجذب الصوت إليهما، وغير ذلك من الصفات فإنها لا تحتاج بالنسبة إليه تعالى إلى جوارح لانكشافها .

قال الأشعرى فى كتابه « مقالات الإسلاميين » تفسيراً لوحدانية الذات بما لا يخرج عن معانى النصوص فى صورته الواضحة ، فقد قال :

« إن الله واحد أحد ، ليس كمثله شئ ، وهو السميع البصير ، وليس بجسم ولا شبح ، ولا جثة ولا صورة ، ولا لحم ولا دم ولا شخص ، ولا جوهر ولا عرض ولا بذى لون ولا طعم ،

---

(١) سورة الأنعام : ١٠٣ .

(٢) سورة الشورى : ١١ .

ولا رائحة ولا مجسة ، ولا بذى حرارة ولا برودة ، ولا رطوبة ولا يبوسة ، ولا طول ولا عرض ولا عمق ، ولا اجتماع ولا افتراق ولا بذى أبعاض أو أجزاء ، ولا جوارح ولا أعضاء ، وليس بذى جهات ، ولا بذى يمين وشمال وأمام وخلف ، ولا يحيط به مكان ولا يجرى عليه زمان ، ولا تجوز عليه المماسة ولا العزلة ، ولا الحلول فى الأماكن ، ولا يوصف بشئ من صفات الخلق الدالة على حدوثهم ؛ ولا يوصف بأنه متناه ، ولا يوصف بمساحة ولا ذهاب فى الجهات وليس بمحدود ، ولا والد ولا مولود ، لا تدركه الحواس ، ولايقاس بالناس ولا يشبه الخلق بوجه من الوجوه ولا تجرى عليه الآفات ، ولا تحل به العاهات ، وكل ما خطر بالبال ، وتصور بالوهم فغير شبيه له . ولم يزل أولا سابقاً متقدماً للحادثات موجوداً قبل المخلوقات ، ولم يزل حياً قادراً ، لا تحيط به الأوهام . شئ لا كالأشياء ، عالم قادر حى لا كالعلماء القادرين الأحياء ، وأنه القديم وحده ، ولا إله سواه ولا شريك له فى ملكه ، ولا وزير له فى سلطانه ، ولا معين على إنشاء ما أنشأ ، وخلق ما خلق ، لم يخلق الخلق على مثال سبق ، وليس خلق شئ بأهون عليه من خلق شئ آخر ، ولا بأصعب عليه منه ، لا يجوز عليه احتراز المنافع ، ولا تلحقه المضار ، ولا يناله السرور واللذات ، ولا يصل إليه الأذى والآلام ، ليس بذى غاية فيتناهى ولا يجوز عليه الفناء ، ولا يلحقه العجز والنقص ؛ تقدس عن ملامسة النساء وعن اتخاذ الصاحبة والأبناء[1] » .

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعرى .

وقد أرشد القرآن فى جانب الإله إلى ما وضعه هو من أسماء وصفات تمثل ذاته ، وقدرته ، وحكمته ، وكل ماله من كمال يليق به ، وكان منها الواحد ، الأحد ، الصمد ، القدوس ، الحى ، القيوم ، الغنى ، الأول ، الآخر ، ومنها الخالق ، البارئ ، المصور ، البديع ، القاهر ، الولى ، الحافظ ، ومنها رب ، رحمان ، رحيم ، رءوف ، ودود ، لطيف ، حليم ، رزاق ، وهاب .

وقد دلت أسماؤه التى عبر بها عن نفسه فى كتابه ، على سمو ذاته ، وتعاليه عن خلقه ، وعلى كمال جماله الماثل فى رحمته وفضله ، والواقع أن هذه الأسماء تطابق النظر العقلى السليم الذى به يدرك الإنسان ربه ، ويرى أن تحقق معانيها لله ، واختصاصه بها مما تقضى به دلالة الكون وأحداثه ، ويرى فى الوقت نفسه أن ليس فى الكون والحياة ما يسمح به وضعه ، وحاجته ونقصه ، وتغيره وانفعاله أن يناجى أو يوصف بشئ من هذه الأسماء ، وتلك الصفات ، والإسم الجامع لكمال الألوهية ، هو الاسم المعروف عند المسلمين بلفظ الجلالة وهو كلمة « الله » .

وبهذه الأسماء يناجى المسلم ربه ، ويدعوه ويذكره ، ويستحضر عظمته ، ويتعرف آثاره ، ويسمو عن طريقها إلى أسمى درجات القرب إلى الله[1] .

« قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ »[2].

---

(١) الأستاذ محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ، ص ١٩ .
(٢) الإسراء : ١١٠ .

وليس للمسلم أن يناجي ربه باسم ، أو صفة لم يضعه الله لنفسه ، فهو أعلم بما يدل على ذاته وآثاره وصفاته ، ولا يتلقى ذلك إلا عنه سبحانه عن طريق قرآنه ، أو عن طريق إخبار الرسول القطعي :

« وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ[1] » .

والقرآن حينما أراد أن يرشد الإنسان إلى الله « الخالق » ، كان هدفه إلى معرفته بآثاره الدالة على صفاته ، وكمال جلاله وجماله ، وتنزهه عن المماثلة لخلقه ، أو الاتحاد ، أو الحلول فى شئ مما خلق ، وأوصد أمامه باب التطلع إلى معرفة حقيقته وذاته تعالى ، وصرفه عن محاولة التفكير فى هذا الجانب :

« ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ[2] » .

إن الإنسان لا يعرف « ذات » الأشياء الموجودة فى الكون ، لا يعرف جوهرها ، وإنما يعرف من صفاتها ومظاهرها .

فلماذا يندفع الإنسان ويترك الأشياء المخلوقة المحدودة ، التى يعجز عن معرفة ذاتها ، فيحاول أن يحيط بالذات الكبرى ، ويصل إلى « حقيقتها » ؟ ..

---

(١) سورة الأعراف : ١٨٠ .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٢ – ١٠٣ .

إن أبسط قواعد « المنطق » تقول إنك إذا عجزت عن الصغير فأنت أعجز عن الكبير ، وإذا عجزت أن تسير ميلا فسهلكك مئات الأميال فضلا عن الألوف والملايين .

والكون أمام الإنسان واسع هائل عريض . .

فهل فرغ من أمره ؟ هل وصل إلى آخر أبعاده ؟ هل أحاط به علماً ؟ ، بل تصوراً وخيالا ؟ . لنقرأ — معاً — كلام العلم فانه وحده يبهر العقل :

« إن أقرب نجم إلينا يبعد عن الشمس فوق الأربع من السنوات الضوئية . أى أن النور ، وسرعته ١٨٦,٠٠٠ ميل فى الثانية ، يقطع المسافة من الشمس إلى أقرب نجم فى نحو أربع سنوات . إنه على مسافة تبلغ نحوا من ٢٦,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ميل . إنك لو مثلت الشمس بنقطة من حبر على هذه الصحيفة ، لتمثل أقرب نجم بنقطة أخرى تبعد عن النقطة الأولى بنحو ٤ أميال[1] » .

« المجرة قرص عظيم . وهى قرص مفرطح ، كالرغيف ... وقطر القرص نحو من ١٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية . والسنة الضوئية مسافة مقدارها ٦ مليون مليون ميل ، فقطر هذا القرص نحو من ٦٠٠ ألف مليون مليون ميل . وارتفاعه نحو عشر ذلك » .

وهناك مجرات أخرى كثيرة فى الكون غير المجرة التى تتبعها مجموعتنا الشمسية .

---

(١) الدكتور أحمد زكى : مع الله فى السماء .

« هذه الدينيات ، التى تشبه مجرتنا .. كم عددها ؟ مائة ؟ ألف ؟ ألفان ؟ لا . . إنها مائة مليون من المجرات . مائة مليون جزيرة فى فضاء هذا الكون الواسع وقد تزيد هذا فى « المحيط الخارجى » للكون ، وهو مظهر واحد يعجز عن حمله الخيال وتعجز العقول »

فلننظر فى الأرض وحدها . . كم جبلا بها وكم نهراً وكم بحراً وكم بحيرة ؟ وكم بها من أنواع الحياة ؟ الحياة النباتية والحيوانية والإنسانية ؟

بل . . هل يعرف الإنسان كيف يفكر عقله ؟

وما التفكير ؟ كهرباء هو أم مادة ؟ أم طاقة ، وأى طاقة ، وكيف تميزت عن الطاقات الأخرى كلها وتفردت عنها .

وما تلك القوة الكامنة فى البويضة والحيوان المنوى ، فاذا لقاؤهما يحدث المعجزة العظمى التى تنشئ الحياة ؟

هل يعرف الإنسان ما تلك القوة أو يملك أن يصل إلى الأسرار ؟

ذلك مبلغ الإنسان من « العلم » ومبلغه من « الحقيقة » »

ومع ذلك لا يعرف قدر نفسه ، ويروح يشطح فى الآفاق »

يريد أن يعرف « الحقيقة » الكبرى ، يريد أن يحيط بذات الله »

فهل يقدر ؟

وكيف يصل ؟

بالعقل ؟ . . .

أو ليس العقل ذاته هو الذى قال للإنسان : إن المحدود لا يحيط بغير المحدود ، والفانى لا يحيط بمن لا يدركه الفناء »

لماذا إذن تسخير العقل فيما يقول العقل ذاته إنه مستحيل ؟ :
وهل وصل المفكرون إلى شئ حين سخروا عقولهم لذلك المبحث المستحيل ؟ :

إن الطريق إلى « الله » واضح لا التواء فيه :
الطريق هو الإيمان :
والفطرة تعرف الطريق :

وعلى الإنسان أن يترك فطرته على سجيتها ، لا يكبحها بأصفاد مصطنعة من فلسفة منحرفة ، ولا يغشيها بركام الشهوات والنزوات الهابطة التى تحجب شفافيتها وتمنع عنها النور وهى وحدها تهديه إلى الله . . لأن الله فطرها على الهدى إليه .

والرسول الكريم يدعو الناس إلى تدبر آيات الله فى الخلق ، والقرآن المجيد يفصل هذه الآيات فى سورة الأنعام .

« إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ والنَّوَى ، يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ومُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ، ذَٰلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ؟ . فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ

حَبًّا متَرَاكبًا ، وَمِنَ النَّخلِ مِنْ طَلْعهَا قنْوَانٌ دَانيَةٌ وَجَنَّات مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ، انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِه إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعه ، إِنَّ فِي ذٰلكُمْ لَآيَات لقَوْمٍ يُؤْمنُونَ » .

إن الله العلى القدير لم يكلف الناس أن يبحثوا فى ذاته سبحانه ، لم يكلفهم الجهد الذى يعلم — سبحانه — أنهم لن يقدروا عليه قط ، وأن قصارى ما يحدث لهم حين يحاولونه أن تتفجر طاقتهم وتتبدد .

وقد نهى الرسول الكريم أتباعه أن يفكروا فى ذات الله كيلا يهلكوا ، ولم يكن صلى الله عليه وسلم يضع القيود على تفكيرهم ، بل كان يوفر جهدهم للنافع والمفيد من الأعمال : كان يريد للناس أن ينفقوا طاقتهم — بعد أن يقضوا حظهم من تدبر آيات الله فى الكون والاهتداء إليه — فى تعمير الأرض ، وتوفير حياة أفضل للإنسان .

وقد حدث ذلك بالفعل ...

امتدت رقعة العالم الإسلامى من المحيط إلى المحيط ، وامتدت معه مبادئ الإسلام السامية ، وقام مجتمع كريم ، يكفل الرفاهية والعدل لكل مواطن فيه .

ولم يكن الفكر الإسلامى محجورا عليه ، وإنما كان يتجه للعمل إلى خير الناس ، ويسعى إلى سعادتهم ، وتحقيق حياة كريمة لهم .

الفصل الثانى

الايمان بالرسالات الالهية

تعاقبت رسالات السماء على الإنسان أمة بعد أمة ، وجيلا بعد جيل ، وكلها ذات هدف واحد وهو توجيه الإنسان إلى طريق الكمال ، وكانت أصول الرسالات وعقائدها الأولى واحدة ، لا تختلف فى رسالة عنها فى رسالة أخرى :

« شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ[1] » .

وكان الرسل بذلك — كما صورهم محمد صلى الله عليه وسلم فى حديث له — بناة بيت واحد ، يؤسس سابقهم للاحقهم ، ويشيد لاحقهم على أساس سابقهم ، وأخذ الله عليهم فى ذلك العهد والميثاق :

« وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ : أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى ، قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ[2] » .

---

(١) سورة الشورى : ١٣ .

(٢) سورة آل عمران : ٨١ .

ومن هنا طلب القرآن الكريم الإيمان بجميع الرسل ، كما طلب الإيمان بما أنزل عليهم جميعاً ، وكان الإيمان بالبعض دون البعض — فى الإسلام — خروجاً عن دين الله وهديه :

« قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى ابْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاط ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَد مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[1] » .

وكما قال تعالى :

« قُلْ آمَنَّا بِاللهِ ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاط ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ[2] »

وكما قال تعالى :

« وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِه وَكُتُبِه وَرُسُله[3] » .

وجاء فيمن يؤمنون بالبعض دون البعض :

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُله وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُله ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ

(١) سورة البقرة : ١٣٦ .
(٢) سورة آل عمران : ٨٤ .
(٣) سورة البقرة : ٢٨٥ .

يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقًّا وأعتدنا للكافرين عذابًا مهينًا[١] » .

وفى الذين يؤمنون بالجميع :

« والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورًا رحيمًا[٢] » .

والإيمان بالرسل السابقين ، وما أنزل عليهم من كتب وما أوتوه من شرائع ليس معناه تصديق الكتب القائمة فى هذه الأيام التى يغيرون فيها ويبدلون كما يشاء لهم الهوى : فالتوراة لم تكتب فى وقت نزولها على موسى ، وإنما كتبت بعده بمئات السنين ، ويحكى المؤرخ — ول ديورانت — قصة الظروف التى أدت إلى التفكير فى كتابة التوراة ، والناظر فى الظروف والملابسات التى باشرت هذا الحدث يتبين له أن شيئاً من التحريف والتبديل قد أدخل على أصل التوراة ، ليناسب الحال التى صار إليها اليهود بعد أن لعبت بهم الأحداث ، وبعد أن أصابهم ما أصابهم على يد الغزاة من تقتيل وتشريد .

يقول « ديورانت » : وكان سبب كتابتها — أى التوراة — أن الشعب شرع يرتد عن عبادة « يهوه » إلى عبادة الآلهة الأجنبية . فأخذ الكهنة يتساءلون : ألم يأن لهم أن يقفوا وقفة قوية يمنعون بها تدهور العقيدة القديمة ؟ .

(١) سورة النساء : ١٥٠ — ١٥١

(٢) سورة النساء : ١٥٢ .

ورأوا الأنبياء يعزون إلى « يهوه » ما يجيش فى صدورهم من عواطف يؤمنون بها ويعتقدون : فاعتزموا — أى الكهنة — أن يبلغوا الناس رسالة من الله نفسه فى صورة سنن إلهية ، تهث النشاط والقوة فى حياة الأمة الخلقية ، ويضمنون بها معاونة الأنبياء ... وذلك بما تتضمنه من آرائهم القليلة التطرف .. وسرعان ما ضموا إلى جانبهم الملك « بوشيا » فلما كانت السنة الثامنة أو نحوها من حكمه — بوشيا — أبلغ الكاهن « حلقيا » الملك أنه « وجد » فى سجلات الهيكل ملفاً عجيباً ، قضى فيه موسى نفسه على جميع المشكلات التاريخية والخلقية ، التى كانت مثار جدل عنيف بين الكهنة والأنبياء ، وكان لهذا الكشف أثر عظيم فى نفوس القوم ... فدعا « بوشيا » كبارهم إلى الهيكل ، وتلا عليهم فيه سفر « الشريعة » فى حضرة آلاف من الشعب ، ثم أقسم ليطيعن من ذلك الوقت ما جاء فى هذا السفر ؟ » .

ويعلق ديورانت على هذا الخبر فيقول :

« ولسنا نعلم على اليقين ماذا كان « سفر الشريعة » هذا ؟ فقد يكون سفر الخروج — من الاصحاح العشرين إلى الثالث والعشرين ، وقد يكون سفر « تثنية الإشتراع » . وليس ثمة ما يضطرنا إلى أن نفترض أنه قد وضع فى تلك الساعة .. فكل ما فيه أنه يقنن ، ويسجل أوامر ومطالب ونصائح نطق بها خلال عدة قرون أنبياء بنى إسرائيل وكهنة المعبد »(١) .

---

(١) قصة الحضارة ، ج ٢ ، ص ٢٥٦ .

وقد وقعت بعد هذا العهد الذى أقسم فيه اليهود على احترام ما جاء فى سفر الشريعة — وقعت أحداث زلزلت عقيدة اليهود فى « يهوه » — الله — وتغيرت تبعاً لذلك نظرتهم إلى الحياة .

كانوا قد أصيبوا بضربة قاضية على يد « نبوخذ نصر » فقد دمر الهيكل ، وضاع كل أمل لليهود فى إقامة دولة — تعتمد على « يهوه » الذى صوروه إله حرب يعمل لهم ، ويقتل الناس من أجلهم ؟ وكان من المحتم ... إجراء تعديل فى الشريعة القديمة التى عثر عليها « حلقيا » وادعى نسبتها إلى « موسى » عليه السلام — وذلك لكى ترضى الشريعة القديمة تلك النزعة التى ولدتها الأحداث فى نفس اليهود ، والتى تغيرت بها نظرتهم إلى « يهوه » .

وكما ظهر « حلقيا » فى الحركة الأولى ظهر « عزرا » فى تلك الحركة ... ففى عام ٤٤٤ ق.م دعا عزرا — وهو كاهن عالم — اليهود إلى اجتماع عام ، وشرع يقرأ عليهم من مطلع النهار إلى منتصفه « سفر شريعة موسى » . وظل هو وزملاؤه سبعة أيام كاملة يقرءون ما تحتويه ملفات هذا السفر . ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة والزعماء والشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع ، ويتخذوها ، دستوراً لهم يتبعونه ، ومبادئ يسيرون على هديها ، ويطيعونها إلى أبد الآبدين . وكان هذا ابتداء العهد الجديد ؟ .

وقد ظلت تلك الشرائع — شرائع العهد الجديد — من تلك الأيام النكدة إلى يومنا هذا المحور الذى تدور عليه حياة اليهود ، ولا يزال تقيدهم بها طوال تجوالهم ومحنهم من أهم الظواهر فى تاريخ العالم (١).

فالكتب القائمة اليوم قد حرفت ، وزيفت تبعاً لإرادة الكهنة والزعماء .

وكما طلب الإسلام الإيمان بجميع الرسل ، طلب الإيمان بأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين ، وأن رسالته تضمنت الإرشاد إلى ما به كمال الإنسانية ، وفتحت لها جميع النوافذ التى تستطيع أن تصل منها إلى كل ما ينفعها ويرقيها روحاً ومادة .

« مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَد مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ (٢) » .

ومحمد بشر : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ (٣) » .

وهو بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ويجاهد فى سبيل الله ويموت كما يموت البشر ، كما قال تعالى :

« وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ (٤) » .

---

(١) نفس المصدر ، ص : ٣٦٦ .
(٢) سورة الأحزاب : ٤٠ .
(٣) سورة الكهف : ١١٠ .
(٤) سورة آل عمران : ١٤٤ .

والإيمان بأن محمداً رسول الله يوجب الأخذ بكل ما جاء به من أوامر ونواه ، لأنه يتكلم عن الله العلى القدير فيما يتعلق بالتكليفات والأحكام فاطاعته إطاعة لله سبحانه وتعالى قال تعالى :

« مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ[1] » .

وقال جل شأنه :

« وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ[2] » .

وكما قرر القرآن المجيد أن الرسالات الإلهية ختمت برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، وأنه خاتم الأنبياء ، قرر أيضا أن رسالته عامة بمعنى : أنها موجهة إلى جميع الناس فى جميع أجناسهم ولغاتهم « الموجودين منهم وقت حياته ، والموجودين منهم بعد مماته إلى يوم الدين .

« قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا[3] » .

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا[4] » .

إن النبى على سنة من سبقه من الرسل . والرسل لم يحملوا للإنسانية شيئا غير الإسلام يقول الله تعالى فى سورة الأنعام :

(١) سورة النساء : ٨٠ .
(٢) سورة الأحزاب : ٣٦ .
(٣) سورة الأعراف : ١٥٨ .
(٤) سورة سبأ : ٢٨ .

« وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهٰرُونَ وَكَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ».

« أُولٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ[1] » .

ثم يوجه الحق تبارك وتعالى نبيه فيقول :

« أُولٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ [2] » .

تجميع لخصائص النبوات كلها فى نبوة واحدة ورسالة خاتمة تخرج إلى الوجود كله كاملة وافية بسعادة البشر :

« يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا [3] » .

(١-٢) سورة الأنعام : ٨٣ – ٩٠ .
(٣) سورة الأحزاب : ٤٥ – ٤٦ .

والمؤمن برسالة محمد ، يؤمن بأن كل ما جاء به مبلغاً عن ربه حق : فالشرائع والأحكام التى قررها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وثبتت نسبتها إليه بطريق قطعى لا شبهة فيه هى من عند الله العزيز الحكيم.

والقرآن المجيد قد أنزله الله تعالى ، وأنه بعبارته ومعانيه وأحكامه من عند الله تعالى ، وأنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم . وهو محفوظ إلى يوم القيامة . يقول الله تعالى :

« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(١) » .

« كما يجب(٢) الاعتقاد بأن كل ما فى القرآن من أحكام تكليفية هى من عند الله تعالى ، وأن من يعتقد تحريم ما أحل الله تعالى بالنص لا يؤمن بالقرآن ، ومن يستحل ما حرم الله تعالى بالنص فى القرآن لا يؤمن بالقرآن ، فمن يستحل الخمر أو يستحل الربا أو يستحل الزنا ، أو يستحل السرقة أو يستحل أكل مال الناس بالباطل لا يكون من أهل الإسلام فى شيء ، ومعنى الإستحلال أن يعتقد أن هذه المحرمات بالنص حلال ، ومن يرتكب المحرم لضعف إرادته أو نحو ذلك . وهو يعتقد أنه حرام لا يعد مستحلا له ، فالارتكاب دون الإستحلال ، إذ الأول يجعل المرتكب فاسقاً ، والإنكار يخرجه عن حظيرة الإسلام.

ومن ينكر أحكام المواريث ، كما جاءت فى القرآن الكريم لا يكون

(١) سورة الحجر : ٩ .

(٢) الأستاذ محمد أبو زهرة : العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن الكريم ص ٣٧ .

مسلماً ، فمن يتنمر على حكم الله بأن للذكر مثل حظ الانثيين أو ينكر أن ميراث الإخوة والأخوات غير لازم ، فانما ينكر أحكام القرآن .

ويشبه الذين ينكرون أحكام القرآن من يغلب عليهم الهوى فيزعمون أن الأحكام التكليفية ليست فى مصلحة الناس ، فمن يحسب أن تحريم الخمر ليس فى مصلحة الناس ، أو تحريم الربا ليس فى مصلحة الإقتصاد يكون متبعا هواه ، ويكاد يخرج عن الإسلام إن أعتقد ما يقول إعتقاداً جازما . ومن هؤلاء من يذهب بهم فرط مغالاتهم للاتباع والتقليد أن يزعموا أن القوانين التى تكون من وضع الناس أعدل من القوانين التى يأتى بها أحكم الحاكمين فى محكم التنزيل ، فان الله تعالى هو العدل اللطيف الخبير .

وإن كل شرائعه رحمة بالناس ، وهى الرحمة الحقيقية بالمجموع ولذلك قال تعالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ[١] »

وقد وصف الله تعالى ما جاء فى القرآن بأنه الرحمة والشفاء ، كما قال تعالى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ[٢] » .

---

(١) سورة الأنبياء : ١٠٧

(٢) سورة يونس : ٥٧ .

« ومن ينكر شرعية الزكاة، أو يعتبرها نظاما قد انتهى لا يعد من أهل الإسلام ، لأن الله تعالى أمر بها فى محكم التنزيل ، والآيات القرآنية الواردة فيها كثيرة ، وكثيراً ما يقترن الأمر بالصلاة بالأمر بالزكاة مما يدل على أنهما متلازمان لا ينفصلان من حيث الحكم بالمطالبة والإلزام ومن يعتقد وجوب الصلاة ، ولا يعتقد وجوب الزكاة ، فانه يفصل المتلازمين بعضهما عن الآخر ، ولذلك قاتل الصديق أبوبكر من امتنع عن أداء الزكاة ، كما قاتل من امتنع عن إقامة الصلاة .

وهكذا كل ما جاء فيه الأمر بالقرآن صريحاً يعد منكره غير مؤمن بالرسالة المحمدية ، ومن لا يؤمن بالرسالة المحمدية لا يكون مسلما .

« ومن حاول أن يخرج القرآن عن ظاهره بغير سند من القرآن أو من السنة يكون محرفاً للقرآن عن مواضعه ، إن كل تأويل لنص من نصوص القرآن أو الحديث يجب أن يكون مشتقا من القرآن والحديث أو من قضايا العقل المبتوتة التى لا يختلف فى شأنها العقلاء ، ولا يصح أن تقيد النصوص الدينية بحكم الزمان ، فانها حاكمة على الزمان ، وليست محكومة به ، وأولئك الذين يدعون أن حكماً من أحكام القرآن أو السنة الثابتة السند كان مناسبا لزمان الرسالة وغير مناسب لزمان ما إنما يقلبون الأوضاع الدينية ويحكمون بأهوائهم وشهواتهم ، وهم قوم قد اتخذوا القرآن عضين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

« ويجب على من يؤمن بالرسالة المحمدية أن يذعن ويؤمن لكل ما علم من الدين بالضرورة ، كمناسك الحج ، والصلوات الخمس وعدد

وركعاتها ، وصوم نهار رمضان ، وكون القبلة إلى البيت الحرام الذى هو بمكة مباركاً ، وكون الوقوف بعرفة ، فان كل هذا قد وردت به الأخبار متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وانعقد عليها الإجماع من بعده ، وتواتر الإجماع عليها ، مما لا يدع مجالا لأى احتمال أو ظن ، وصارت من العلم الضرورى الذى لا يسع مسلماً أن يجهله ، أو كما عبر الإمام الشافعى عنه بأنه علم العامة ، لا يختص به العلماء دون الجهلاء ، ولا ينفرد بالعلم به قوم ، دون قوم ، بل إن العلم به سواء ، لأنه إطار الإسلام الذى يعد الخارج عنه خارجاً عن الإسلام » .

الفصل الثالث

عوالم الغيب

١ — الملائكة

الملائكة واحدها ملك ، وهو مشتق من ألك أو ألوكة ، بمعنى الرسالة ، وأصله مألك الهمزة فاء الفعل قلبت إلى عينه وصارت ملاك ثم سهل فصارت ملك ؛ ويقول بعض العلماء بأن ملك مشتق من مَلْك أو مِلْك ، بمعنى القوة .

تعرّض القرآن لخلق الإنسان فقال إنه من تراب ، وإلى خلق الجن ، فذكر أنه من نار ، ولم يتعرض لخلق الملائكة ؛ غير أنه ورد عن عائشة رضى الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : إن الجن خلقت من نار ، والملائكة من نور ، وهذا يبين أن الملائكة من عالم لطيف غيبي غير محسوس .

وقد ورد فى القرآن : أن الله تعالى « جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة »(١) وهذا يدل على أن للملائكة وظائف روحية ، كما أنهم يؤدون رسالات سماوية ؛ وقد ذكرت الكتب السابقة للقرآن بأن للملائكة أجنحة ، وأن من العبث أن نفترض أن القرآن قد أراد بالأجنحة الواردة بهذه الآية أجنحة من الريش ونحوه كأجنحة الطير ، لتساعد

---

(١) سورة فاطر : ١

على الطيران ، وإنما الجناح فى عالم الملائكة يرمز إلى القوة والقدرة والسرعة مجازاً فى تنفيذ أوامر الله وتبليغ رسالاته .

وقد جاء فى القرآن أن الله أنزل سكينته وطمأنينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل مع هذه السكينة جنوداً من الملائكة لم يروها بأبصارهم ، وإنما لمسوا بلاءهم بقلوبهم الأمر الذى ثبت جأشهم وشد من بأسهم ، قال تعالى :

« ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا[1] » .

ورد فى القرآن أن الملائكة لها صلة بحياة الإنسان الروحية ، فقد جاء به أن جبريل نزل بالقرآن على قلب محمد صلى الله عليه وسلم . قال تعالى :

«وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ[2] » .

وجاء : أن الملائكة تتنزل على المؤمنين لتواسيهم وتبشرهم ، قال تعالى :

---

(١) سورة التوبة : ٢٦ .

(٢) سورة الشعراء : ١٩٢ — ١٩٤ .

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ(١)»

وجاء : أن الملائكة يتوسطون فى الإيحاء لغير الأنبياء ، كما حدث لمريم بنت عمران ، قال تعالى :

«وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ واصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٢)» .

وجاء : أن الله يرسل الملائكة لنصرة المؤمنين ولتثبيتهم فى حروبهم مع أعدائهم ، قال تعالى :

« إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (٣) »

وقال تعالى :

«إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (٤)» .

---

(١) سورة فصلت : ٣٠ . (٢) سورة آل عمران : ٤٢-٤٤ .

(٣) سورة آل عمران : ١٢٤-١٢٥ . (٤) سورة الأنفال : ١٢

وجاء أنهم يصلون على النبي ، أي يدعون له ويطلبون له المغفرة . قال تعالى :

« إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ[١] » .

وهم يصلون على المؤمنين أي يستغفرون لهم ، قال تعالى :

« هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ[٢] » .

وهم يستغفرون لمن في الأرض ، قال تعالى :

« وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ[٣] » .

وهم يتوفون المؤمنين ويقبضون أرواحهم عند الموت . قال تعالى :

« الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[٤] » .

ويتوفون أيضا غير المؤمنين ، قال تعالى :

---

(١) سورة الأحزاب : ٥٦ .
(٢) سورة الأحزاب : ٤٣ .
(٣) سورة الشورى : ٥ .
(٤) سورة النحل : ٣٢ .

«إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ[١]» .

وهم يكتبون أعمال الإنسان ، قال تعالى :

«وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ[٢]»

وأهم أعمال الملائكة وأبرزها هى النزول بالوحى وتبليغ رسالات الله إلى الرسل ، فصلة الرسل بالملائكة ومناجاتهم ومرآهم حقيقة ملموسة لهم لا شك فيها من أول عهد البشرية ونشأتها [٣] . والملائكة عالم لطيف غيبى غير محسوس - كما سبق أن ذكرنا - فكان الملك يتمثل إلى الرسول فى صورة إنسان ، وكان مجيئه أحياناً بشكل آخر . وهذا كان شأن جبريل مع الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فقد ورد أن جبريل كان يظهر للرسول فى صورة إنسان ، و أحيانا كان يراه فى صورته مالئاً الأفق كله .

وقد جاء فى القرآن أن الملك الذى أتى الرسول بالتنزيل اسمه جبريل ، قال تعالى :

«قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ[٤]»

وسمى جبريل «بالروح الأمين» فى قوله تعالى :

«وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ[٥]» .

---

(١) النساء : ٩٧ . (٢) سورة الانفطار : ١٠-١٢ .
(٣) مولاى محمد على : الدين الإسلامى ، ج ١ ، ص ١١٥ .
(٤) سورة البقرة : ٩٧ . (٥) سورة الشعراء : ١٩٢-١٩٣ .

وسمى كذلك «روح القدس» فى قوله تعالى :

«قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ ربِّك بِالْحقِّ (١)»

وظاهر هذه الآيات الثلاث : أن الملك نزل على الرسول بالقرآن، واسم هذا الملك جبريل ، أو الروح الأمين ، أو روح القدس .

وعبر عن جبريل فى الحديث بالناموس الأكبر ، وجاء أن هذا الناموس نزل على موسى .

ذكر القرآن أن جبريل نزل بالوحى على الرسل وأضاف أن الملائكة تنزل على عباد الله المتقين ، قال تعالى :

«يُنَزِّلُ الْملَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ(٢)»

وقال تعالى :

«رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُوالْعَرْشِ يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ (٣)» .

وقد يكون المعنى فى هاتين الآيتين : الرسل وحدهم ، وقد يكون المعنى : المتقين من غير الرسل ، كما جاء فى القرآن : أن الملائكة حملت رسالات من الله العلى الكبير إلى مريم بنت عمران . قال تعالى :

« وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ واصطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ(٤)»

(١) سورة النحل : ١٠٢ .
(٢) سورة النحل : ٢ .
(٣) سورة غافر : ١٥ .
(٤) سورة آل عمران : ٤٢ .

وقال تعالى :

« إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ[١] »

وقد أراد الله المؤمنين عامة ، فأنزل عليهم الملائكة . قال تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ[٢] » .

ومعنى هذا : أن الذين « قالوا ربنا الله » أى وحدوه[٣] بنفى غيره ، وعرفوه بالإيقان حق معرفته « ثم استقاموا » أى فى أخلاقهم وعقائدهم وأعمالهم . وذلك بالسلوك فى طريقه تعالى ، و الثبات على صراطه ، مخلصين لأعمالهم . عاملين لوجهه ، غير ملتفتين بها إلى غيره «تتنزل عليهم الملائكة» أى فى الدنيا ، بإلهامهم . أوعند الموت ، أو حين البعث « ألا تخافوا » أى ما تقدمون عليه بعد مماتكم « ولا تحزنوا » أى على ما خلفتم من دنياكم ، من أهل وولد . فانا نخلفكم فى ذلك كله . أو من الفزع الأكبر وهوله . فإنكم آمنون[٤] .

---

(١) سورة آل عمران : ٤٥ .

(٢) سورة فصلت : ٣٠ — ٣١ .

(٣) تفسير القاسمى : ج ١٤ ، ص : ٥٢٠٢ .

(٤) قال تعالى ى سورة الأنبياء : ١٠٣ (لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة)

قال القاشانى : وإنما تنزلت الملائكة عليهم للمناسبة الحقيقية بينهم فى التوحيد الحقيقى ، والايمان اليقينى والعمل الثابت على منهاج الحق والاستقامة فى الطريقة إليه ، غير ناكثين فى عزيمة ، ولا منحرفين عن وجهة ، ولا زائغين فى عمل ، كما ناسبت نفوس المحجوبين من أهل الرذائل الشياطين ، الجواهر المظلمة والأعمال الخبيثة . فتنزلت عليهم »

وقوله تعالى : « وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون » أى فى الدنيا حال الإيمان بالغيب . ونحن أحباؤكم فى الدارين . للتناسب بيننا وبينكم ، كما أن الشياطين أولياء الكافرين ، لما بينهم من الجنسية والمشاركة فى الظلمة والكدورة .

قال ابن كثير : أى تقول الملائكة للمؤمنين عند الإحتضار : نحن كنا قرناءكم فى الحياة الدنيا . نسددكم ونوفقكم ونحفظكم بأمر الله ، وكذلك نكون معكم فى الآخرة . نؤنس منكم الوحشة فى القبور ، وعند النفخة فى الصور . ونؤمنكم يوم البعث والنشور . ونجاوزكم الصراط المستقيم . ونوصلكم إلى جنات النعيم .

وقال الرازى : معنى كونهم أولياء للمؤمنين : أن للملائكة تأثيرات فى الأرواح البشرية ، بالإلهامات والمكاشفات اليقينية . كما أن للشياطين تأثيرات فى الأرواح ، بالقاء الوساوس فيها ، وتخييل الأباطيل بها ، وبالجملة ، فكون الملائكة أولياء للأرواح الطيبة الطاهرة حاصل من جهات كثيرة معلومة ، لأرباب المكاشفات والمشاهدات ، فهم يقولون : كما أن تلك الولاية كانت حاصلة فى الدنيا ، فهى تكون باقية فى الآخرة . فان تلك العلائق ذاتية لازمة غير قابلة للزوال . بل كأنها تصير بعد الموت أقوى وأبقى . وذلك لأن جوهر النفس من

جنس الملائكة . وهى كالشعلة بالنسبة إلى الشمس ، والقطرة بالنسبة إلى البحر ، والتعلقات الجسمانية هى التى تحول بينها وبين الملائكة ، كما قال صلى الله عليه وسلم [١] : لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بنى آدم ، لنظروا إلى ملكوت السموات . فإذا زالت العلائق الجسمانية، والتدبيرات البدنية ، فقد زال الغطاء والوطاء ، فيتصل الأثر بالمؤثر والقطرة بالبحر ، والشعلة بالشمس .

ومن أعمال الملائكة تثبيت رسل الله وتأييدهم والتهوين عليهم فى شدتهم ، وقد أيد الله فى كتابه عيسى بروح القدس لاضطهاد اليهود له وافترائهم عليه فى ثلاث آيات .

قال تعالى :

«وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ [١]» .

---

(١) هذا هو نص الحديث ، كما جاء فى مسند الإمام أحمد بالصفحة رقم ٣٥٣ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليلة أسرى بى ، لما انتهينا إلى السماء السابعة نظرت فوق فإذا أنا برعد وبرق وصواعق . قال : فأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ، ترى من خارج بطونهم . قلت : من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلة الربا . فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل منى فإذا أنا بوهج ودخان وأصوات . فقلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بنى آدم أن لا يتفكروا فى ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لرأوا العجائب .

(٢) سورة البقرة : ٨٧ .

وقال عز وجل :

«وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ[١]»

وقال جل شأنه :

«إِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أُذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِروحِ الْقُدُسِ» [٢] .

وقد جاء فى القرآن أن الملائكة تؤيد عباد الله المتقين ، كما سبق أن ذكرنا ، قال تعالى :

«أُولَئِكَ كَتَبَ فى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ»[٣].

أى روح القدس وهو جبريل .

والله يرسل الملائكة لنصرة المؤمنين ويثبتهم فى قتالهم مع الكفار ، قال تعالى :

«إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ»[٤] .

ومن أعمال الملائكة كذلك إناطتهم بعقاب المعتدين على الحق وتنفيذ إرادة الله فى عدوه بهزيمته ، فينتصر المؤمنون وينهزم المعتدون،

(١) سورة البقرة : ٢٥٣ .
(٢) سورة المائدة : ١١٠ .
(٣) سورة المجادلة : ٢٢ .
(٤) سورة الأنفال : ٩ .

ومن أعمال الملائكة شفاعتهم للناس ، فقد كتب الله على نفسه الرحمة ، ووسعت رحمته كل شيء . ويتبع ذلك أن الملائكة يشفعون للناس تنفيذاً لإرادته تعالى . وقد جاء فى القرآن ما ينبىء بشفاعة الملائكة للناس يوم القيامة . قال تعالى :

«وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِى السَّمَوَاتِ لَاتُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى »(١) .

وتستغفر الملائكة للناس فى هذه الحياة الدنيا ، كذلك ، قال تعالى :

«وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِى الْأَرْضِ »(٢) .

ونزلت آيات أُخرى خاصة باستغفار الملائكة للمؤمنين ، قال تعالى :

« الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُون بِهِ وَيَسْتَغفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا واتَّبَعُوا سبيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ التى وَعَدْتهمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ

---

(١) سورة النجم : ٢٦ .   (٢) سورة الشورى : ٥ .

وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »(١).

ويبين القرآن أن الملائكة تسجل على الناس أعمالهم الصالحة والسيئة ، وعبر عنهم بالكرام الكاتبين فى قوله تعالى :

« وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ »(٢)

وورد ذكر هؤلاء الملائكة أيضاً فى قوله تعالى :

« إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ، مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » (٣) .

وقوله تعالى :

« سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ . لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ »(٤) .

وجاء فى معنى الآية الأخيرة أن الملائكة يحفظون على الإنسان عمله ، ويكتبون أقواله وأفعاله بأمر الله . والكتابة فى عالم الملائكة هى إثبات الآثار التى يحدثها أعمال الإنسان تعلق به فى الدنيا ويجازى عليها فى الأخرى ؛ قال تعالى :

« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا

---

(١) سورة غافر : ٧ — ٩ .
(٢) سورة الانفطار : ١٠—١٢ .
(٣) سورة ق : ١٧ — ١٨ .
(٤) سورة الرعد : ١٠—١١ .

يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ، اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا(١) ».

والطائر فى هذه الآية هو آثار أعمال الإنسان التى تلزمه لزوم القلادة للعنق ولا تفارقه ، وهى صحيفة أعماله التى يتقدم بها يوم البعث ، وكتابه الذى يحاسب على ما جاء فيه من خير أو شر :

نرى مما تقدم(٢) أن أعمال الملائكة متصل بعضها ببعض وموجهة نحو إيقاظ الحياة الروحية فى الإنسان وتنشيط عوامل الإصلاح فيها لتبلغ به ذروة كماله الإنسانى ، ولذلك أوجب الله على المسلم الإيمان بالملائكة فى نفس الآيات التى أوجبت الإيمان به تعالى . قال عز وجل :

« وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ » (٣) .

إن الإيمان فى الإسلام ليس مجرد إذعان أعمى تقليدى لفرض من الفروض ، وإنما هو قبول هذا الفرض وتصديقه بالقلب ثم العمل بما يوجبه هذا الفرض . وعلى ذلك فالإيمان بالملائكة يوجب الاعتقاد بأن للإنسان حياة روحية ، وأنه يجب عليه تنشيط هذه الحياة والاستجابة لعوامل الخير التى أودعها الله فيه والتى تدعوا إليها الملائكة . ولذلك أوجب القرآن عصيان الشيطان وتجنب الإنسياق إلى فعل الشر . والهدف من ذلك كله التسامى بالإنسان والترقى به إلى أسمى درجات الكمال .

---

(١) سورة الإسراء : ١٣-١٤ .

(٢) الدين الإسلامى — مصدر سابق — ص : ١٢٦ .

(٣) سورة البقرة : ١٧٧ .

٢ — الجن

أصل الجن : ستر الشيء عن الحاسة [١] ، وجن عليه بمعنى ستر عليه . قال تعالى :

«فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا [٢]» .

والجنان : القلب لكونه مستوراً عن الحاسة .

والجنة : كل بستان ذى شجر يستر بأشجاره الأرض .

والمجن ، والمجنة : الترس الذى يجن صاحبه .

والجنين : الولد ما دام فى بطن أمه ، وجمعه أجنة ، قال تعالى :

« وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ [٣]» .

والجن يقال لعالم غير مرئى ، ومستتر عن الحواس ، وهى مخلوقة من نار :

«والْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ [٤]» .

«وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ» [٥] .

---

(١) الراغب الأصبهانى : المفردات فى غريب القرآن ، ص ١٣٨ .
(٢) سورة الأنعام : ٧٦ . (٣) سورة النجم : ٣٢ .
(٤) سورة الحجر : ٢٧ . (٥) سورة الرحمن : ١٥ .

« والجان هو أبو الجن خلق أولا من النار ، كـ (آدم أبو البشر خلق أولا من الأرض) : فأبو الجن خلق من النار وأولاده منه بدليل قوله تعالى « وخلق الجان من مارج من نار » : والمارج هو اللهب الصافى من النار ، وبعد خلق الجن من اللهب الصافى تطور إلى أن صار جسما أثيريا غير منظور للأعين البشرية كما تطورت خلقة آدم عليه السلام من تراب إلى طين إلى حمأ : ثم لحما وعظما ، والمادة الأثيرية مالئة للكون وهى أخف من الهواء بدرجة كبيرة جداً فلا تمنعها الحواجز ولا الأبعاد المتناهية .

فالجن من مادة الأثير وله السيطرة على مادته فلا تعوقه المادة عن النفاذ منها ولا عن أى شيء يريده ،

ومعلوم أن الانسان بعد موته تتحلل مواده التى تكونت منها خلقته فيرجع كل عنصر إلى أصله من تراب وهواء ونار وماء ، كذلك الجن بعد موته يعود عنصر تكوينه إلى النار التى هو منها أما وهو حى فلا أثر للنار فيه ، كبنى آدم لا أثر للطين فيه[1] » .

روى الإمام مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم عليه السلام مما وصف لكم » فجملة مخلوقات الله من أنواع الثقلين ملائكة : وهم قوم نورانيون طبعهم العبادة ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

(١) سيد عبد الله حسنين : الجن ، فى ذكر جميع أحوال الجن ص ٩ .

وجان : مخلوق من اللهب الخالص أو من اللهب المختلط بدخان فطبعهم الشر ، وهم مكلفون كالإنس سواء بسواء وفيهم المسلم والمسيحى واليهودى ... الخ ما نعلم من تفرق الملل والنحل .

وبشر : مخلوق من طين .

وقد خلق الجن قبل خلق الإنس ، فقد كان الجن موجودًا قبل آدم . قال تعالى : « إِنِّى جاعلٌ فى الأَرْضِ خَلِيفَةً » وهو آدم ، فخلقه الله وقد أراد سبحانه وتعالى أن يكرمه فقال للملائكة : « اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ » فلا بد من وجود إبليس الذى أمر بالسجود لآدم قبل آدم المسجود له ، إذن فقد خلق إبليس قبل آدم .

وجاء فى سورة الحجر « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ » .
ويشمل هذا الجنس من المخلوقات ثلاثة أصناف :

١ — الجن : ويطلق هذا الإسم على كل خفى لايطلع عليه إنسان . ويقول الله تعالى فيهم مساويًا للإنس « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا — خلقنا — لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنْ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ . » ويقول : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُون » .

٢ ـ العفريت : وهو من الجن ذو دهاء ومكر وخبث وقوة . قال الله تعالى فيه :

«قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ »(١) . ولم يذكر اسم العفريت فى القرآن إلا مرة واحدة وهى هذه .

٣ ـ الشيطان : طاغ متكبر فاسق ، عدو الإنسان ، وقد خصه الله باللعنة :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ(٢) » .

وقال : «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ »(٣) وإبليس من الجن لامن الملائكة . قال تعالى : « وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ

---

(١) سورة النمل : ٣٩ .

(٢) سورة النور : ٢١ .

(٣) سورة فاطر : ٦ .

أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى وهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً [١] » .

وإذ ثبت أن إبليس كان من الجن وجب أن لايكون من الملائكة لقوله تعالى :

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِن أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ [٢] » .

وإبليس مخلوق من نار ، قال تعالى :

« قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » [٣] .

ويقرر القرآن أن الملائكة تتنزل بالوحى على الأنبياء والرسل ، فى حين أن الجن يتلقى وحى الله عن الأنبياء والرسل .

« وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا : أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ، قَالُوا : يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا

---

(١) سورة الكهف : ٥٠ .
(٢) سورة سبأ : ٤٠ — ٤١ .
(٣) سورة الأعراف : ١٢ .

لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ، يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ ، وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ ، وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١) » .

يتلقون الوحى عن الأنبياء ويعقلونه ويؤمنون به ، ويدعون قومهم إليه ، ويبشرونهم على الطاعة ، وينذرونهم على المعصية ، وبينما لم يشرك القرآن الملائكة مع الإنسان فى مسئولية التكليف بشرعه ، والانحراف عن تعاليمه ، نراه قد أشرك الجن معه فى ذلك ، وأن الله ينادى الفريقين : الأنس والجن بخطاب واحد ، ومسئولية واحدة يوم الجزاء .

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ، يَامَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ ، وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ » .

« يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُم آيَاتِي ، وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا (٢) » .

وسورة الرحمن من أولها إلى آخرها ، تضع الجن مع الإنسن فى إطار واحد وتقيم الحجة عليهما معًا ، فى عبارة واحدة ،

(١) سورة الأحقاف : ٢٩ – ٣١ .
(٢) سورة الأنعام : ١٢٨ – ١٣٠ .

وبعنوان واحد «خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ . وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ »[١].

«سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ، لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ . فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ[٢] » .

« وكما جاء [٣] القرآن بأصل وجودهم جاء بما يرشد إلى صلتهم بالناس ، وأنها لا تعدو « الوسوسة والتزيين » على نحو ما يحدث للناس من الناس ، واقرأ فى ذلك من سورة الناس :

«مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ . الَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ » . واقرأ فى ذلك أيضًا ماجاء على لسان الشيطان نفسه — وهو من الجن بنص القرآن : «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ، إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ[٤] » .

---

(١) سورة الرحمن : ١٤ — ١٦ .

(٢) سورة الرحمن : ٣١ — ٣٤ .

(٣) الأستاذ محمود شلتوت : الفتاوى ص ١٩ — ٢١ .

(٤) سورة إبراهيم : ٢٢ .

وإذن فليس للجن مع الإنسان شيء وراء الدعوة ، والوعد ، والوسوسة ، والإغواء ، والتزيين : «فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ [١]». «قَالَ : رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ [٢]» .

وكما جاء هذا في القرآن جاء فيه أيضا ما يقطع بأن الذين يتأثرون بوسوسة الجن وإغوائهم إنما هم فقط : ضعاف العقول والإيمان أما أقوياؤهما فهم بعقولهم وإيمانهم بعيدون عن التأثر بها ، وقد استثنى الله من المتأثرين بها عباده المخلصين وقال :

«إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ [٣]» .

« أما ما وراء الوسوسة والإغواء من ظهورهم للانسان العادي بصورتهم الأصلية ، أو بصورة أخرى يتشكلون بها ، ومن دخولهم في جسمه ، واستيلائهم على حواسه ، ومن استخدامه إياهم في جلب الخير ودفع الشر ، واستحضارهم كلما أراد ، ومن استطلاع الغيب عن طريقهم ، ومن التزوج بهم ومعاشرتهم ، وغير ذلك مما شاع على ألسنة الناس ، فهذا كله مصدره خارج عن نطاق المصادر الشرعية ذات القطع واليقين . والقرآن الكريم يمتن الله فيه على الناس بنعمة الأزواج ، وبأن جعلهن من جنسهم ، وجعلهن سكناً ومودة ورحمة ،

---

(١) سورة الأعراف : ٢٠ . (٢) سورة الحجر : ٣٩ .
(٣) سورة الحجر : ٤٢ .

«وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ، وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً (١)» . «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً (٢)».

« وهذا يقطع حبل الشك فى فساد القول بإمكان التزوج منهم ،

وكذلك يحكى الله فى القرآن ما تحدث به الجن إلى قومهم فى شأن الإنس ، الذين كانوا قبل الرسالة المحمدية يعتقدون أن للجن سلطانا عليهم ، فيعوذون برجال منهم يخلصونهم من سلطان الجن ، بما يزعمون لأنفسهم من سلطة استخدام الجن ، وسلطة منعهم من أذاهم ، ولنصغ إلى الجن وهم يتحدثون إلى قومهم فى عقيدة أنهم يعلمون الغيب ، وأن أناسا يستخدمونهم فى ذلك فيعلمون منهم ما تسوقه المقادير الإلهية ، ثم يعلنون أنها عقيدة فاسدة ، وأن الغيب لله وحده ،

«وَأَنَّا لَانَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فى الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (٣)» .

وإذا كان حديثهم عن أنفسهم بالنسبة لمعرفة الغيب الذى جاء فيه قوله تعالى :

---

(١) سورة النحل : ٧٢ .
(٢) سورة الروم : ٢١ .
(٣) سورة الجن : ١٠ .

« عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحدًا . إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُول [١] » .

وقوله فى جن سليمان : « فَلَمَّا خَرَّ تَبيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يعْلَمُونَ الْغَيْبَ مالَبِثُوا فى الْعذَابِ الْمُهِينِ [٢] » .

وكان حديثهم عن أنفسهم بالنسبة لسلطانهم على الإنس ، وأن هذا وذاك موضع إنكار منهم أنفسهم ، كما حدث القرآن . صرنا إلى يقين لا يمسه ريب : بأن الجن لا يعلمون الغيب ، ولا يقدرون على الإيذاء الاتصالى أو التلبسى » .

والخلاصة :

لقد ثبت بالأدلة القاطعة أن الشياطين ليس لهم اعتقاد ولا دين ولا ضمير ولا يرشدون إلى خير أبدا ، بل طبعهم الفسق والفجور والمعصية والتحلل من كل فضيلة والتخلق بكل رذيلة ومأواهم جهنم وبئس المصير . أما الجن فهم كبنى آدم فى التكاليف وفى المعتقدات وفى الجزاء عند الله ، وأن رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم قد أرسل إليهم فآمن البعض وكفر البعض .

---

(١) سورة الجن : ٢٦ — ٢٧ . (٢) سورة سبأ : ١٤ .

٣ ـ الروح

الروح هى القوة التى تحدث الحياة فى الكائنات الحية من نبات وحيوان وإنسان ، وقد غلبت على ما به حياة الحس والحركة ، والعقل والتفكير ، وأضيفت إلى الحيوان والإنسان . ولم يرد فى الدين نص واضح صريح يشرح حقيقتها ويحدد وجودها ، وكانت فى نظر الدين كغيرها من سائر الحقائق الكونية تركت للبحث البشرى يبحث عنها ، ويصيب أو يخطىء على حد سواء .

ولقد خاض الإنسان قديماً وحديثاً فى البحث عن حقيقتها وأثرت عنه فيها أقوال وآراء :

قال أفلاطون : « إن النفس وجدت فى عالم العقل أو المعنى أو فى عالم الصحائح والمثل . فهى تعرف الحقائق بالتذكر ولا يحجبها عنها إلا حجاب الجسد وضلال الحس والشهوة ، وهى خالدة لا تموت لأنها جوهر بسيط لا يتحلل كما يتحلل الجسد المركب . ولكنها تلابس المادة فى حياتها الجسدية ثم تفارقها إلى عليين لتعيش بين الأرباب والملائكة والأرواح . ومصيرها مقدور بمصير المادة التى تلابسها . فإن هبطت مع مادة الجسد صارت إلى جسم حيوان أو حشرة أو مخلوق حقير ، وإن ترفعت عن مادة الجسد صعدت إلى الرفيق الأعلى ، وعادت إلى عالم الخلد والكمال » .

« ويبدو من كلام أفلاطون عن النفس أو عن الروح أنها طراز ثالث من الموجودات بين طراز الموجودات المعقولة والموجودات المحسوسة ، لأنها تشترك مع كليهما فى حياتها الجسدية . فتعقل ثم تعمل

مع الجسم فى أداء الوظائف الحيوية كالخوالج العليا والأحاسيس الرفيعة والشهوات الجثمانية .

« قد يجعل أفلاطون لهذه الوظائف المختلفة أماكن مختلفة من بنية الإنسان ، فالنفس العاقلة فى الدماغ ، والنفس الحاسة فى الصدر والنفس المشتهية فى الأحشاء ، ولا يفهم من هذا أن النفس نفوس ثلاث أو أنها منقسمة إلى عناصر ثلاثة ، وإنما يستخلص منه أن النفس لا تعمل فى عالم المعقولات كما تعمل فى عالم المحسوسات والمشتهيات ، لأنها تلتقى فى بعضها بقيود لا تلتقى بها فى بعضها الآخر : فهو اختلاف فى القدرة على التجرد بغير عائق أو بعائق كبير أو صغير ، وليس بين هذا الرأى فى النفس وبين رأى البراهمة فيها فرق كبير [١] » .

وينظر ابن سينا إلى النفس الإنسانية من جانبين : من جانب يشترك فيه الإنسان مع الحيوان والنبات ، ويكون تعريف النفس من هذا الجانب أنها « كمال لجسم طبيعى آلى ذى حياة بالقوة » . أما الجانب الآخر الذى يشترك الإنسان فيه مع الملائكة فتعريف النفس فيه أنها « جوهر هو كمال لجسم محرك له بالاختيار عن مبدأ نطقى « عقلى » بالقوة « فى النفس الإنسانية » أو بالفعل (للنفس الكلية الملكية) . ويقال لهذا الجانب من النفس : النفس الكلى ونفس الكل والعقل الكلى وعقل الكل » .

والنفس « صورة الجسم » تمكن الجسم الذى هى فيه من الظهور بمظهره المخصوص به ومن القيام بأعماله الخاصة به . إن السيف مثلا ،

(١) عباس محمود العقاد : ابن سينا ، ص ٤٠ .

حديدة مسنونة تقطع ؛ فحديدته هى جسمه (المادى) وحدته (الناتجة من أنه مسنون والتى يقطع بها) هى صورته الروحانية أو نفسه . وكذلك الإنسان لا يسمى إنساناً بالأجزاء التى فيه من العناصر الأربعة ، بل بعقله الذى به يفكر .

ويرى ابن سينا مع أرسطو أن النفس ليس لها وجود سابق على وجود بدنها ، بل كلما حدث بدن صالح للحياة حدثت له نفس خاصة به ، ويكون البدن الحادث مملكة تلك النفس وآلتها . والنفس لا يمكن أن تأتى من شىء مادى كالجسم ، لأنها مخالفة للجسم ؛ ولم يجد ابن سينا بداً من أن يجعلها متصلة بالفيض فى ثنايا ترتيب العقول . ويقول : إن النفس جوهر ، أى ليست جسما . والجوهر بسيط (غير قابل للكون والفساد ، ولا متكثر ولا متألف من أشياء ، بل قائم بنفسه : لا يحتاج فى وجوده إلى شىء آخر) ، وهو روحانى : ليس مادياً ولا له تعلق بمادة . ثم هو مفارق (جوهر : قائم بنفسه غير محتاج فى قوامه إلى مادة ؛ وهو موجود فعلا مستقل عن البدن[1]) .

وقال الرازى[2] : إن الإنسان لا يجوز أن يكون عبارة عن هذا الهيكل المحسوس ، أما أنه لا يجوز أن يكون عبارة عن هذا الهيكل فلوجهين :

الأول : أن أجزاء هذا الهيكل أبداً فى النمو والذبول والزيادة والنقصان والاستكمال والذوبان . ولا شك أن الإنسان من حيث

(١) الدكتور عمر فروخ : تاريخ الفكر العربى ، ص ٣٣١ — بيروت طبعة سنة ١٩٦٢ .
(٢) الرازى : التفسير الكبير ، ج ٢ ، ص ٣٥ .

هو هو أمر باق من أول عمره إلى آخره ، فإن كان كل أحد يعلم بالضرورة أنه هو الذى كان موجوداً من أول عمره إلى آخر عمره والباقى غير ما هو غير باق والمشار إليه عند كل أحد بقوله « أنا » ، وجب أن يكون مغايراً لهذا الهيكل .

الثانى : أنى أكون عالماً بأنى أنا حال ما أكون غافلا عن جميع أجزائى وأبعاضى أو المعلوم غير ما هو غير معلوم ذلك الذى أشير إليه بقولى أنا مغاير لهذه الأعضاء والأبعاض ، وإما أن الإنسان غير محسوس فلأن المحسوس إنما هو السطح واللون . ولا شك أن الإنسان ليس هو مجرد اللون والسطح . ثم اختلفوا عند ذلك فى أن الذى يشير إليه كل أحد بقوله أنا أى شئ هو والأقوال فيه كثيرة إلا أن أشدها تلخيصاً وتحصيلا وجهان :

أحدهما : أن أجزاء جسمانية سارية فى هذا الهيكل سريان النار فى الفحم والدهن فى السمسم وماء الورد فى الورد .

والقائلون بهذا القول فريقان : أحدهما : الذين اعتقدوا تماثل الأجسام ، فقالوا : إن تلك الأجسام مماثلة لسائر الأجزاء التى منها يتألف هذا الهيكل إلا أن القادر المختار سبحانه يبقى بعض الأجزاء من أول العمر إلى آخره ، فتلك الأجزاء هى التى يشير إليها كل أحد بقوله أنا، ثم إن تلك الأجزاء حية بحياة يخلقها الله تعالى فيها، فإذا زالت الحياة ماتت وهذا قول أكثر المتكلمين :

وثانيهما : الذين اعتقدوا اختلاف الأجسام ، وزعموا أن الأجسام التى هى باقية من أول العمر إلى آخر العمر أجسام مخالفة

بالماهية والحقيقة للأجسام التى يتألف منها هذا الهيكل وتلك الأجسام حية لذاتها مدركة لذاتها ، فإذا خالطت هذا البدن وصارت سارية فى هذا الهيكل سريان النار فى الفحم صار هذا الهيكل مستنيرا بنور ذلك الروح متحركاً بتحركه ، ثم إن هذا الهيكل أبداً فى الذوبان والتحلل والتبدل إلا أن تلك الأجزاء باقية بحالها وإنما لا يعرض لها التحلل لأنها مخالفة بالماهية لهذه الأجسام البالية . فإذا فسد هذا القالب انفصلت تلك الأجسام اللطيفة النورانية إلى عالم السموات والقدس والطهارة إن كانت من جملة السعداء ، وإلى الجحيم وعالم الآفات إن كانت من جملة الأشقياء . (والقول الثانى) : إن الذى يشير إليه كل أحد بقوله أنا موجود ليس بمتحيز ولا قائم بالمتحيز ، وأنه ليس داخل العالم ولا خارج العالم ولا يلزم من كونه كذلك أن يكون مثل الله تعالى لأن الاشتراك فى السلوب لا يقتضى الاشتراك فى الماهية . واحتجوا على ذلك بأن فى المعلومات ما هو فرد حقاً فوجب أن يكون العلم به فرداً حقاً ، فوجب أن يكون الموصوف بذلك العلم فرداً حقاً ، وكل جسم وكل حال فى الجسم فليس بفرد حقاً . فذلك الذى يصدق عليه منا أنه يعلم هذه المفردات وجب أن لا يكون جسما ولا جسمانياً ، أما أن فى المعلومات ما هو فرد حقاً فلأنه لا شك فى وجود شئ فهذا الموجود إن كان فرداً حقاً فهو المطلوب . وإن كان مركباً ، فالمركب مركب على الفرد فلا بد من الفرد على كل الأحوال وإما أنه إذا كان فى المعلومات ما هو فرد كان فى المعلوم ما هو فرد لأن العلم المتعلق بذلك الفرد إن كان منقسما فكل واحد من أجزائه أو بعض أجزائه ، إما أن يكون علماً بذلك المعلوم وهو محال لأنه يلزم أن يكون الجزء مساوياً

للكل وهو محال : وإما أن لا يكون شئ من أجزائه علما بذلك المعلوم فعند اجتماع تلك الأجزاء إما أن يحدث زائد هو العلم بذلك المعلوم الفرد فحينئذ يكون العلم بذلك المعلوم هو هذه الكيفية الحادثة لا تلك الأشياء التى فرضناها قبل ذلك، ثم هذه الكيفية إن كانت منقسمة عاد الحديث فيه وإن لم تكن مقسمة فهو المطلوب : وإما أنه إذا كان فى المعلوم لا يقبل القسمة كان الموصوف به أيضاً كذلك، فلأن الموصوف به لو كان قبل القسمة لكان كل واحد من تلك الأجزاء أو شئ منها إن كان موصوفاً به بتمامه فحينئذ يكون العرض الواحد حالا فى أشياء كثيرة، وهو محال، أو يتوزع أجزاء الحال على أجزاء المحل فيقسم الحال، وقد فرضنا أنه غير منقسم أولا يتصف شئ من أجزاء المحل إلا بتمام الحال ولا شئ من أجزاء ذلك الحال فحينئذ يكون ذلك المحل خالياً عن ذلك الحال وقد فرضناه موصوفاً به هذا خلف، وأما أن كل متحيز ينقسم فبالدلائل المذكورة فى نفى الجوهر الفرد قالوا فثبت أن الذى يشير إليه كل أحد بقوله أنا موجود ليس بمتحيز ولا قائم بالتحيز، ثم نقول هذا الموجود لا بد وأن يكون مدركاً للجزئيات لأنه لا يمكننى أن أحكم على هذا الشخص المشار إليه بأنه إنسان وليس بفرس والحاكم بشئ على شئ لا بد وأن يحضر المقضى عليهما فهذا الشيء مدرك لهذا الجزئى، وللإنسان الكلى حتى يمكنه أن يحكم بهذا الكلى على هذا الجزئى والمدرك للكليات هو النفس ، والمدرك للجزئيات أيضاً هو النفس فكل من كان مدركاً للجزئيات فإنه لا يمتنع أن يلتذ ويتألم قالوا إذا ثبت هذا فنقول هذه الأرواح بعد المفارقة تتألم وتلتذ إلى أن يرده الله تعالى ... » .

وقال فيها الإمام الألوسى : والمعول عليه عند المحققين قولان ، ذكرهما واختار أولهما ، وهو أن الروح جسم نورانى علوى حى ، مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس ، سار فيه سريان الماء فى الورد ، لا يقبل التحلل ولا التفرق ، يفيض على الجسم الحياة وتوابعها ما دام الجسم صالحاً لقبول الفيض ، وقد أيده ابن القيم ، وقال إنه الصواب ، ولا يصح غيره ، وعليه دل الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، وأدلة العقل والفطرة .

ونرى[1] مع ذلك أن هذا الرأى لم يشرح حقيقة الروح ، وإنما ذكر خواص ولوازم أكثرها سلبي لا يفيد الحقيقة ولا يدل على الكنه .

وكما اختلف العلماء فى حقيقتها ، اختلفوا أيضاً فى قدمها وحدوثها وفى مستقرها قبل اتصالها بالأجسام ، والقائلون بحدوثها اختلفوا أيضاً فى زمن حدوثها ، هل حدثت قبل الأجسام أو بعد الأجسام ؟ وليس فى النصوص أكثر من أن نفخها فى الجسم يكون بعد تسويته ، والمفهوم من نفخها تحصيل آثارها فى الجسم .

وكما اختلفوا فى هذا اختلفوا أيضاً فى موتها وبقائها ، وفى مستقرها بعد مفارقة الأبدان ، والذى ترشد إليه الآثار الدينية أنها تخرج من بدن الإنسان فيكون الموت ، وأنها تبقى ذات إدراك ، تسمع السلام عليها ، وتعرف من يزور قبر صاحبها ، وتدرك لذة النعيم وألم الجحيم ، وأن مقرها يختلف بعد مفارقة البدن بتفاوت درجاتها عند الله .

وقد ذكر الإمام الغزالى فى كتابه « الأجوبة الغزالية فى المسائل الأخروية » عن الروح ما يلى :

---

(١) الأستاذ محمود شلتوت : الفتاوى ، ص ١٤ — ١٦ .

قال حين سئل عن الروح وحقيقته :

هذا سؤال عن سر الروح الذى لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى كشفه لمن ليس أهلا له ، فإن كنت من أهله فاسمع وأعلم أن الروح ليس بجسم يحل البدن حلول الماء فى الإناء ، ولا هو عرض يحل القلب والدماغ حلول السواد فى الأسود والعلم فى العالم ، بل هو جوهر ليس بعرض لأنه يعرف نفسه وخالقه ويدرك المعقولات وهذه علوم والعلوم أعراض ، ولو كان موضوعاً والعلم قائم به لكان قيام العرض بالعرض وهذا خلاف المعقول ، ولأن العرض الواحد لا يفيد إلا واحداً فيما قام به ، والروح يفيد حكمين متغايرين ، فإنه حينما يعرف خالقه يعرف نفسه فدل على أن الروح ليس بعرض والعرض لا يتصف بهذه الصفات ولا هو جسم لأن الجسم قابل للقسمة ، والروح لا ينقسم لأنه لو انقسم لجاز أن يقوم بجزء منه علم بالشئ الوحيد وبالجزء الآخر منه جهل بذلك الشئ الوحيد بعينه فيكون فى حالة واحدة عالما بالشئ جاهلا به فيتناقض لأنه فى كل واحد وإلا فالسواد والبياض فى جزأين من العين غير متناقض والعلم والجهل بشئ واحد فى شخصين غير محال ، فدل على أنه واحد وهو باتفاق العقلاء جزء لا يتجزأ ، أى شىء لا ينقسم إذ لفظ جزء غير لائق به، لأن الجزء إضافة إلى الكل ، ولا كل هنا فلا جزء ، إلا أن يراد به ما يريد القائل بقوله الواحد جزء من العشرة فإنك إذا أخذت جميع الأجزاء بها قوام العشرة فى كونها عشرة كان الواحد من جملتها ؛ وكذلك إذا أخذت جميع الموجودات أو جميع ما به قوام الإنسان فى كونه إنساناً كان الروح واحداً من جملتها فإذا فهمت أنه شىء لا ينقسم فلا يخلوا

إما أن يكون متحيزاً أو غير متحيز ، وباطل أن يكون متحيزاً إذ كل متحيز منقسم والجزء الذى لا يجزأ باطل أن يكون منقسما بأدلة هندسية وعقلية ، أقر بها أنه لو فرض جوهر بين جوهرين لكان لكل واحد من الطرفين يلقى من الوسط غير ما يلقى الآخر فيجوز أن يقوم بالوجه الذى يلقاه هذا الطرف علم ، وبالآخر جهل فيكون عالماً جاهلا فى حالة واحدة بشىء واحد وكيف لا ولو فرض بسيط مسطح من أجزاء لا تتجزأ لكان الوجه الذى يحاذينا ونراه غير الوجه الآخر الذى لا نراه فإن الواحد لا يكون مرئياً وغير مرئى فى حالة واحدة ، ولكانت الشمس إذا حاذت أحد وجهيه استنار بها ذلك الوجه دون الوجه الآخر . فإذا ثبت أنه لا ينقسم وأنه لا يتجزأ ثبت أنه قائم بنفسه وغير متحيز أصلا .

فقيل له : وما حقيقة هذه الحقيقة وما صفة هذا الجوهر وما وجه تعلقه بالبدن .. أهو داخل فيه أو خارج عنه أو متصل به أو منفصل عنه ؟ .

فأجاب بقوله : لا هو داخل ولا هو خارج ولا هو منفصل ولا متصل لأن مصحح الاتصاف بالاتصال والانفصال الجسمية والتحيز وقد انتفيا عنه فانفك عن الضدين ، كما أن الجماد لا هو عالم ولا هو جاهل لأن مصحح العلم والجهل الحياة فإذا انتفت انتفى الضدان .

فقيل له : هل هو فى جهة ؟

فأجاب بقوله : هو منزه عن الحلول فى المحال والاتصال بالأجسام والاختصاص بالجهات ، فإن كل ذلك صفات الأجسام وأعراضها .

والروح ليس بجسم ولا عرض فى جسم بل هو مقدس عن هذه العوارض :

فقيل له : لم منع الرسول عليه السلام عن إفشاء هذا السر ، وكشف حقيقة الروح بقوله تعالى : « قل الروح من أمر ربى » ؟

فقال : لأن الأفهام لا تحتمله ، لأن الناس قسمان : عوام وخواص ، أما من غلب على طبعه العامية فهذا لا يقبل ولا يصدق فى صفات الله تعالى : فكيف يصدق فى حق الروح الإنسانية ؟ :

ومن ترقى عن العامية قليلا نفى الجسمية وما أطاق أن ينفى عوارض الجسمية فأثبت الجهة ، وقد ترقى عن هذه العامية الأشعرية والمعتزلة فأثبتوا موجوداً لا فى جهة :

فقيل له : ولم لا يجوز كشف السر مع هؤلاء ؟ :

فأجاب بقوله : لأنهم أحالوا أن تكون هذه الصفات لغير الله تعالى ، فإذا ذكرت هذا لبعضهم كفروك وقالوا : إنك تصف نفسك بما هو صفة الإله على الخصوص فكأنك تدعى الإلهية لنفسك :
فقيل له : فلم أحالوا أن تكون هذه الصفة لله ولغير الله تعالى أيضاً ؟
فقال : لأنهم قالوا كما يستحيل فى ذرات المكان أن يجتمع إثنان فى مكان واحد يستحيل أيضاً أن يجتمع إثنان لا فى مكان لأنه إنما استحال اجتماع جسمين فى مكان واحد ، لأنه لو اجتمعا لم يتميز أحدهما عن الآخر فكذلك لو وجد إثنان كل واحد منهما ليس فى مكان فبم يحصل التمييز والعرفان ؟ ولهذا أيضاً قالوا لا يجتمع سوادان فى محل واحد حتى قيل المثلان يتضادان . فقيل هذا إشكال قوى فما جوابه ؟ :

فقال : جوابه أنهم أخطأوا حيث ظنوا أن التحيز لا يحصل إلا بالمكان بل يحصل التمييز بثلاثة أمور : أحدها بالمكان كجسمين فى مكانين ، والثانى بالزمان كسوادين فى جوهر واحد فى زمانين ، والثالث بالحلة والحقيقة كالأعراض المختلفة فى كل واحد مثل اللون والطعم والبرودة والرطوبة فى جسم واحد . ولكن هذه معان مختلفة للذوات بحدودها وحقائقها فيتميز اللون عن الطعم بذاته لا بمكان وزمان ، ويتميز العلم عن القدرة والإرادة بذاته وإن كان الجميع شيئاً واحداً ، فاذا تصور أعراض مختلفة الحقائق فبأن يتصور أشياء مختلفة الحقائق بذواتها فى غير مكان أولى ، فقيل هنا دليل آخر على حالة ما ذكرتموه أظهر من طلب التفرقة ، وهو أن هذا تشبيه وإثبات لأخص وصف الله تعالى فى حق الروح .

فقال : هيهات . فان قولنا الإنسان حى عالم قادر سميع بصير متكلم ، وأنه تعالى كذلك ، ليس فيه تشبيه لأنه ليس ذلك أخص الوصف فكذلك البراءة عن المكان والجهة ليس أخص وصف الإله بل أخص وصفه أنه قيوم ، أى هو قائم بذاته ، وكل ما سواه قائم به ، وأنه موجود بذاته لا بغيره فكل ما سواه موجود به لا بذاته ، بل ليس للأشياء من ذواتها إلا العدم وإنما لها الوجود من غيرها على سبيل العارية . والوجود لله تعالى ذاتى ليس بمستعار وهذه الحقيقة أعنى القيومية ليست إلا لله تعالى .

فقيل له : ما ذكرت معنى التسوية والنفس والروح ولم تذكر معنى النسبة فى الروح ، وأنه لم قال من روحى ، ولم نسبه إلى نفسه ، فان

كان لأن وجوده به فجميع الأشياء كذلك . وقد نسب البشر إلى الطين ، فقال : « إني خالق بشراً من طين » ; ثم قال : « فاذا سويته ونفخت فيه من روحي » وإن كان معناه أنه جزء من الله تعالى فاض على الغالب كما يفيض المال على السائل : فيقول : أفضت عليه من مالي فهذه تجزئة لذات الله وقد أبطلتم هذا وذكرتم أن إفاضته ليست بمعنى انفصال جزء منه .

فقال : هذا كقول الشمس لو نطقت وقالت أفضت على الأرض من نوري فيكون صدقاً ، ويكون معنى النسبة أن النور الحاصل من جنس نور الشمس بوجه من الوجوه وإن كان في غاية الضعف بالإضافة إلى نور الشمس . وقد عرفت أن الروح منزه عن الجهة والمكان وفي قوته العلم بجميع الأشياء والاطلاع عليها وهذه مضاهاة ومناسبة ، فلذلك خص بالإضافة ، وهذه النسبة ليست للجسمانيات أصلا .

فقيل له : فما معنى قوله تعالى : « قل الروح من أمر ربي » وما معنى عالم الأمر وعالم الخلق ؟ .

فقال : كل ما يقع عليه مساحة وتقدير وهو عالم الأجسام وعوارضها يقال إنه من عالم الخلق . والخلق هنا بمعنى التقدير لا بمعنى الإيجاد والإحداث . يقال خلق الشيء أي قدره .

قال الشاعر :

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ـض القوم يخلق ثم لا يفري

أي يقدر ثم تقطع الأديم ما لا كمية له ولا تقدير فيقال إنه أمر رباني ، وذلك للمضاهاة التي ذكرناها . وكل ما هو من هذا الجنس

من أرواح البشر وأرواح الملائكة يقال إنه من عالم الأمر ، فعالم الأمر عبارة عن الموجودات الخارجة عن الحس والخيال والجهة والمكان والتحيز وهو مالا يدخل تحت المساحة والتقدير لانتفاء الكمية عنه ؛ فقيل له : تتوهم أن الروح ليس مخلوقاً ، وإن كان كذلك فهو قديم ؟

فقال : قد توهم هذا جماعة وهو جهل ، بل نقول إن الروح غير مخلوق بمعنى أنه غير مقدر بكمية ولا مساحة فإنه لا ينقسم ولا يتحيز ؛ ونقول إنه مخلوق لكنه بمعنى أنه حادث وليس بقديم وبرهانه طويل ومقدماته كثيرة . لكن الحق أن الروح البشرية حدثت عند استعداد النطفة للقبول ، كما حدثت الصورة فى المرآة بحدوث الصقالة ، وإن كانت الصورة سابقة الوجود على الصقالة ، وإيجاد هذا البرهان أنه إن كانت الأرواح موجودة قبل الأبدان لكانت إما كثيرة أو واحدة وباطل وحدتها وكثرتها فباطل وجودها ، وإنما استحال وحدتها بعد التعلق بالأبدان لعلمنا ضرورة بأن ما يعلمه زيد يجوز أن يجهله عمرو ؛ ولو كان الجوهر العاقل منهما واحداً لاستحال اجتماع المتضادين فيه كما يستحيل فى زيد وحده . ونعنى بالجوهر العاقل الروح ومحال كثرتها ، لأن الواحد محال أن يثنى ولا ينقسم إذا كان ذا مقدار كالأجسام ، فالجسم ينقسم فانه ذو مقدار وذو بعض فيتبعض ؛

أما لا بعض له ولا مقدار فكيف ينقسم . وأما تقدير كثرتها قبل التعلق بالبدن فمحال لأنها إما أن تكون متماثلة أو مختلفة وكل ذلك محال ؛ وإنما استحال التماثل لأن وجود المثلين محال فى الأصل ولهذا يستحيل وجود سوادين فى محل ، وجسمين فى مكان واحد ، لأن الاثنين

يستدعى مغايرة ، ولا مغايرة هنا ، وسوادان فى محلين جائز لأن هذا يفارق ذلك فى المحل إذا اختص بمحل لا يختص به الآخر ، وكذلك يجوز فى محل واحد فى زمانين إذ لهذا وصف ليس للآخر وهو الاقتران بهذا الزمان الخاص . فليس فى الوجود مثلان مطلقاً ، بل بالإضافة كقولنا زيد وعمرو هما مثلان فى الإنسانية والجسمية ، وسواء الحبر والغراب مثلان فى السوادية ، ومحال تغايرهما لأن التغاير نوعان أحدهما : باختلاف النوع والماهية كتغاير الماء والنار وتغاير السواد والبياض ؛ والثانى : بالعوارض التى لا تدخل فى الماهية كتغاير الماء الحار والماء البارد .

فاذا كان تغاير الأرواح البشرية بالنوع والماهية فمحال ، لأن الأرواح البشرية متفقة بالحد والحقيقة وهى نوع واحد ؛ وإن كانت متغايرة بالعوارض فمحال أيضاً لأن الحقيقة الواحدة إنما يتغاير عوارضها إذا كانت متعلقة بالأجسام منسوبة إليها بنوع ما ، إذ الاختلاف فى أجزاء الجسم ضرورة ولو فى القرب من السماء والبعد عنها مثلا .

أما إذا لم يكن كذلك كان الاختلاف محالا وهذا ربما يحتاجون فى تحقيقه إلى مزيد تقدير لكن هذا القدر ينبه عليه .

فقيل له : كيف يكون حال الأرواح بعد مفارقة الأجساد ولا تعلق لها بالأجسام فكيف تكثرت وتغيرت ؟ .

فقال : لأنها اكتسبت بعد التعلق بالأبدان أوصافاً مختلفة من العلم والجهل والصفاء والكدور ، وحسن الأخلاق وقبحها فبقيت منها متغايرة فعقلت كثرتها بخلاف ما قل من الأجساد فانه لا سبب لتغايرها .

فقيل له : ما معنى قوله عليه السلام : « إن الله تعالى خلق آدم على صورته » ويروى على صورة الرحمن .

فقال : الصورة اسم مشترك قد يطلق على ترتيب الأشكال ووضع بعضها من بعض ، واختلاف تركيبها وهى الصورة المحسوسة . وقد يطلق على ترتيب المعانى التى ليست محسوسة . بل للمعانى ترتيب أيضاً وتركيب وتناسب ويسمى ذلك صورة . فيقال صورة المسألة كذا وكذا صورة الواقعة وصورة المسألة الحسابية والعقلية كذا . والمراد بالتسوية فى هذه الصورة هى الصورة المعنوية ، والإشارة به إلى المضاهاة التى ذكرناها . ويرجع ذلك إلى الذات والصفات والأفعال فحقيقة ذات الروح أنه قائم بنفسه ليس بعرض ولا بجسم ولا جوهر متحيز ولا يحل المكان والجهة ولا هو متصل بالبدن والعالم ولا هو منفصل ولا هو داخل فى أجسام العالم والبدن ولا هو خارج وهذا كله فى حقيقة ذات الله تعالى . وأما الصفات فقد خلق حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكلماً ، والله تعالى كذلك . وأما الأفعال فمبدأ فعل الآدمى إرادة يظهر أثرها فى القلب أولا فيسرى منه أمر بواسطة الروح الحيوانى الذى هو بخار لطيف فى تجويف القلب فيتصاعد عنه إلى الدماغ ثم يسرى منه أثر إلى الأعصاب الخارجة من الدماغ ، ومن الأعصاب إلى الأوتار الرباطات المتعلقة بالعضل فتنجذب الأوتار فيتحرك بها الأصابع ويتحرك بالأصابع القلم ، وبالقلم المداد مثلا فيحدث منه صورة ما يريد كتبه على وجه القرطاس على الوجه المتصور فى خزانة التخيل فإنه إن لم يتصور فى خياله صورة المكتوب أولاً لا يمكن إحداثه

على البياض ثانياً ، ومن استقرأ أفعال الله تعالى وكيفية أحداثه النبات والحيوان على الأرض بواسطة تصرف الآدمى فى عالمه أعنى بدنه يشبه تصرف الخالق فى العالم الأكبر وهو مثله وانكشف له أن نسبة شكل القلب إلى تصرفه نسبة العرش والدماغ نسبة الكرسى والحواس كالملائكة الذين يطيعون الله طبعاً ولا يستطيعون خلافاً ، والأعصاب والأعضاء كالسموات والقدرة فى الأصابع كالطبيعة المسخرة المركوزة فى الأجسام والقرطاس والقلم والمداد كالعناصر التى هى أمهات المركبات فى قبول الجمع والتركيب والتفرقة ، ومرآة التخيل كاللوح المحفوظ فمن اطلع بالحقيقة على هذه الموازنة عرف معنى قوله عليه السلام « إن الله تعالى خلق آدم على صورته » ومعرفة ترتيب أفعال الله تعالى معرفة غامضة يحتاج فيها إلى تحصيل علوم كثيرة وما ذكرناه إشارة إلى جملة منها .

قيل له : فما معنى قوله عليه السلام : « من عرف نفسه فقد عرف الله » .

قال : لأن الأشياء تعرف بالأمثلة المناسبة ولولا المضاهاة المذكورة لم يقدر الإنسان على الترقى من معرفة نفسه إلى معرفة الخالق . فلولا أن الله تعالى جمع فى الآدمى ما هو مثال جملة العالم حتى كأنه نسخة مختصرة من العالم وكأنه رب فى عالمه متصرف له : عرف العالم والتصرف والربوبية والعقل والقدرية والعلم وسائر الصفات الإلهية ، فصارت النفس بمضاهاتها وموازناتها مرقاة إلى معرفة خالق النفس

وفى استكمال المعرفة بالمسئلة التى قبل هذه ما يكشف الغطاء عن وجه هذه المسئلة .

ويقول العقاد[١] : مسألة الروح أعضل مسائل العلم والفلسفة ومذاهب التفكير على التعميم منذ فكر الإنسان فى حقائق الأشياء ، بين جميع أصحاب النحل والآراء ، فى جميع العصور ... وسواء فهمنا من الروح أنها جوهر مجرد تقوم به حياة الأجساد ، أو فهمنا كما يفهم الماديون أنها ظاهرة الحياة فى تركيبة من تراكيب المادة ، فلا يزال العلم بحقيقتها قليلا أو أقل من القليل .

[يَسْأَلونكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ : الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلمِ إلا قَليلاً]

(١) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية ، ص : ١١٩ .

الفصل الرابع

يوم القيامة

— ١ —

يجب على المسلم أن يؤمن بيوم الحساب ، وقد عبر القرآن عنه باليوم الآخر ، وأرشد إلى أنه خاتمة المطاف بالإنسان ، وأن إليه تنتهى الغاية من خلق الإنسان :

«وأَنْ لَيْس لِلإنْسانِ إلَّا مَاسَعى ، وأَنَّ سعْيهُ سوْفَ يُرى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجزاء الأَوْفَى ، وأَنَّ إلَى ربِّك الْمُنْتَهَى »(١) .

والإيمان باليوم الآخر يتلو فى أهميته الإيمان بالله تعالى ، يقول القرآن المجيد :

«ومنِ النَّاسِ منْ يقُولُ آمنَّا بِاللهِ وبِالْيوم ِ الآخِرِ وماهُمْ بِمُؤْمِنِين » (٢) .

«منْ آمن بِاللهِ وَالْيَوْم ِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » (٣) .

والحياة الأخرى حياة تقدم ورقى وتبدأ بعد ممات الإنسان ، ولهذه الحياة صلة وثيقة بالحياة الدنيا ، فالأثر الذى يتخلف من عمل

---

(١) سورة النجم : ٣٩-٤٢ .   (٢) سورة البقرة : ٨ .
(٣) سورة البقرة : ٦٢

الإنسان من فساد أو صلاح فى الحياة الدنيا لا يتراءى بسبب تكوينه المادى . قال تعالى :

«لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ »[1] .

ففى هذه الآية الكريمة دليل على حياة الإنسان الروحية التى يحجبها عن الإدراك الحسى غطاء الإنسان المادى ، فهذه الحياة المحجوبة تتكشف فى اليوم الآخر لزوال ما كان يغشاها من قيود مادية .

يقول الإمام الغزالى[2] : « إن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة . ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، فان الأعضاء آلات للروح تستعملها ، حتى أنها لتبطش باليد ، وتسمع بالأذن ، وتبصر بالعين ، وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب . والقلب ههنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ، ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن ، والغم ، والكمد ، ويتنعم بأنواع الفرح والسرور ، وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء ، فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد فى القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده »

(١) سورة ق : ٢٢ .

(٢) إحياء علوم الدين ج ١٥ ، ص ٢٩١٥ – طبعة دار الشعب .

وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهى تعطل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه ، وبشدة تقع فى الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها ، فتكون الروح العالمة ، العاقلة ، المدركة ، باقية مستعملة لبعض الأعضاء ، وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات ، والروح هى المستعملة لها ، وأعنى بالروح المعنى الذى يدرك من الإنسان العلوم ، وآلام الغموم ، ولذات الأفراح ، ومهما بطل تصرفها فى الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ، ولا يطل منها الأفراح والغموم ، ولا بطل منها قبولها للآلام واللذات ، والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لا يموت ، أى لا ينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن ، وخروج البدن عن أن يكون آلة له ، كما أن معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة : فالموت زمانة مطلقة فى الأعضاء كلها : وحقيقة الإنسان نفسه وروحه ، وهى باقية .

نعم تغير حاله من جهتين :

إحداهما : أنه سلب منه عينه ، وأذنه ، ولسانه ، ويده ، ورجله ، وجميع أعضائه وسلب منه أهله :: وسلب منه أمواله .

ومعنى الموت سلب انسان عن أمواله بازعاجه إلى عالم آخر لايناسب هذا العالم ، فإن كان له فى الدنيا شىء يأنس به ويستريح إليه ، ويعتد بوجوده ، فيعظم تحسره عليه بعد الموت ، ويصعب شقاؤه فى مفارقته ، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله ، وجاهه

وعقاره وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ، ولم يأنس إلا به ، عظم نعيمه وتمت سعادته ، إذخلى بينه وبين محبوبه ، وقطعت عنه العوائق والشواغل ، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله .

والثانى : أنه ينكشف له بالموت مالم يكن مكشوفاً له فى الحياة ، كماقد ينكشف للمتيقظ مالم يكن مكشوفا فى النوم ، والناس نيام ، فاذا ماتوا انتبهوا . وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته . وقد كان ذلك مسطوراً فى كتاب مطوى فى سر قلبه ، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا . فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله . » .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« إن مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ، ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه » . وكذلك المؤمن يجزع من الموت ، فاذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا ، كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه . ويكون الإنسان بعد الموت إلى القيامة فى البرزخ . ومعنى البرزخ لغة : الحاجز والحد بين الشيئين . وقيل البرزخ فى القيامة[1] : الحائل بين الإنسان وبين بلوغ المنازل الرفيعة فى الآخرة . وذلك إشارة إلى العقبة المذكورة فى قوله تعالى : «فلا اقتحم العقبة» . «ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » . وتلك العقبة موانع من أحوال لا يصل إليها إلا الصالحون .

(١) الراغب الأصبهانى : المفردات فى غريب القرآن ، ص ٥٦ .

وفى معنى الحالة التى يكون فيها الإنسان بعد الموت إلى القيامة ، قال تعالى :

« حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »[1] .

وقد يطلق كذلك البرزخ على القبر الذى يكون فيه الإنسان بعد الموت . قال تعالى :

« ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ »[2].

وفى الآيات التالية أراد الله تعالى أن يكون البعث يوم القيامة شاملا لجميع الناس سواء منهم من كان مقبوراً أو غير مقبور . قال تعالى :

« أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ »[3] .

« وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى الْقُبُورِ »[4]

وعلى ذلك يكون القبر والبرزخ كلمتين لمدلول واحد ، وهو الحالة بعد الموت إلى يوم البعث .

— ٢ —

رقى الإنسان الروحى يبدأ فى الحياة الدنيا ، بيد أن هذه الحالة لا يدركها ولا يعرف ماهيتها إلا من راض نفسه بالعبادة ، وأعدها

---

(١) سورة المؤمنون : ٩٩ — ١٠٠ . (٢) سورة عبس : ٢١ ، ٢٢ .
(٣) سورة العاديات : ٩ . (٤) سورة الحج : ٧ .

لبلوغ المراتب الروحية العليا ، وفى البرزخ تأتى المرتبة الثانية لبلوغ هذا الرقى الروحى . والقرآن المجيد يتكلم عن تطورات الإنسان المادية ورقيها فى مراحل ثلاث : المرحلة الأولى حيث كان أديماً فى الأرض ، والثانية حيث كان فى بطن أمه ، والثالثة حيث يولد طفلا .

قال الله تعالى :

«هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ» .

وقال تعالى :

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» .

هذا التطور المادى الثلاثى للإنسان :

١ — طور وجوده فى الأرض .

٢ — طور وجوده فى بطن أمه .

٣ — طور ولادته طفلا .

يقابله تطور روحى ثلاثى أيضا :

١ — الطور الأول حيث يكون فى هذه الحياة الدنيا ، ويقابله فى الطور المادى حالة وجود الإنسان فى أديم الأرض . وقليل ما يدرك الإنسان كنه حياته الروحية فى هذا الطور ،

٢ — وعند الموت ينتقل الروح إلى البرزخ ، وهذا هو الطور الثانى للحياة الروحية ، وهنا تدرك الروح السعيدة بعض الأدراك حقيقتها ، وأنها فى حالة تدرج لمواجهة رقيها المقبل ووجود الروح فى هذا الطور ضرورى لنمو الروح بقدر ضرورة وجود الجنين فى بطن أمه ؛

وكذلك الروح الخبيثة ترى عاقبة ما قدمت من عمل سيء يهوى بها إلى درك أسفل ؛

٣ — وفى الطور الثالث : يكون البعث الذى يشبه حالة ولادة الإنسان فى تطوره المادى وفيه تعرف الروح حقيقتها وتسير فى الطريق الذى أعده الله لها ؛

قال الله تعالى :

«حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ »(١) .

تدل هذه الآية الكريمة على أنه إذا حضر الإنسان الموت استيقظ وتيقن ضلاله ، وتمنى الرجعة كى يعمل صالحا ، ويعد نفسه لحياة أرقى من حياته الأولى ؛ ففى هذه الحالة تبدأ معرفة الإنسان لحقيقة حياته الروحية ولضرورة تزكية نفسه بالعمل الصالح تمهيداً لدخولها فى حياة أرقى من الحياة الأولى . قال تعالى :

---

(١) سورة المؤمنون : ٩٩ — ١٠٠ .

«وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ »(١)

تدل هذه الآية على ما سيلاقيه المسىء فى البرزخ من عذاب جزاء عمله فى الحياة الدنيا ، حتى إذا حل يوم القيامة يوفى جزاءه ويدخل فى أشد العذاب :

إن ما ورد فى القرآن من عذاب يلاقيه المسىء فى البرزخ يقابله فى الحديث ما أورده البخارى فى عذاب القبر ، حيث أفرد له باباً خاصا ذكر فى صدره الآية القرآنية السابقة الخاصة بعذاب آل فرعون فى البرزخ ، وفى يوم القيامة ؛ وكذلك ذكر البخارى فى باب أخر الحديث التالى : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة ، فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » .

هذا الحديث يذكر فى صراحة ما تلقاه روح المحسن من خير ينعم به فى آخرته ، وما ستلقاه روح المذنب من عذاب أعد له فى الحياة الأخرى .

قال الله تعالى :

«وَلَاتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ »(٢)

(١) سورة غافر : ٤٥ — ٤٦ .   (٢) سورة آل عمران : ١٦٩ — ١٧٠ .

فى هذه الآية دلالة على أن هناك صلة بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى . وجاء فى تفسير هذه الآية (١) : أى لا تحسبنهم أمواتاً تعطلت أرواحهم « بل » هم « أحياء » فوق أحياء الدنيا لأنهم مقربون « عند ربهم » إذ بذلوا له أرواحهم ، لا بمعنى بقاء أرواحهم ورجوعها إليه ، لمشاركة أرواح غيرهم فى ذلك ، بل بمعنى أنهم « يرزقون » رزق الأحياء ، لا رزقاً معنويا ، بل حقيقيا . كما روى ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال(٢) : « لما أصيب إخوانكم بأحد، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش . فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم . وحسن منقلبهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب . فقال الله عز وجل : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هذه الآيات : « ولا تحسبن ... » الخ .. وأخرج مسلم عن مسروق قال : سألنا عبد الله عن هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا ...) الخ . فقال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال : أرواحهم فى جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعه فقال : هل تشتهون شيئا ؛ قالوا : أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من غير أن يسألوا قالوا : يا رب . نريد أن ترد

---

(١) محمد جمال الدين القاسمى : محاسن التأويل ، ج ٤ ، ص ١٠٣٢ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٦٦ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) .

أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا .

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشهداء على بارق - نهر بباب الجنة - فيه قبة خضراء ، يخرج إليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشية . - تفرد به أحمد - ورواه ابن جريج باسناد جيد .

قال ابن كثير : وكأن الشهداء أقسام : منهم من تسرح أرواحهم فى الجنة ، ومنهم من يكون على هذا النهر بباب الجنة . وقد يحتمل أن يكون منتهى سيرهم إلى هذا النهر ، فيجتمعون هنالك ، ويغدى عليهم برزقهم هناك ويراح - والله أعلم - ثم قال : وقد روينا فى مسند الإمام أحمد[1] حديثا فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون فى الجنة تسرح أيضا فيها ، وتأكل من ثمارها ، وترى ما فيها من النضرة والسرور ، وتشاهد ما أعد الله لها من الكرامة ، وهو باسناد صحيح عزيز عظيم ، اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة ، فان الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمد بن إدريس الشافعى رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحى رحمه الله عن الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إنما نسمة المؤمن طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله تبارك وتعالى إلى جسده يوم يبعثه ».

قوله : يعلق أى يأكل .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٥٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .

وفى هذا الحديث أن روح المؤمن تكون على شكل طائر فى الجنة، وأما أرواح الشهداء، فكما تقدم ، فى حواصل طير خضر ، فهى كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين فانها تطير بأنفسها .

قال الواحدى : الأصح فى حياة الشهداء ، ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، من أن أرواحهم فى أجواف طير خضر ، وأنهم يرزقون ويأكلون ويتنعمون .

وقال البيضاوى : الآية تدل على أن الإنسان غير الهيكل المحسوس، بل هو جوهر مدرك بذاته ، لا يفنى بخراب البدن ، ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه ، ويؤيد ذلك قوله سبحانه وتعالى :

«النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وعشِيًّا ، ويوْم تَقُومُ السَّاعةُ أَدْخِلُوا آل فِرْعونَ أَشَدَّ الْعذَابِ »[1] وحديث : أرواح الشهداء فى أجواف طير . . . الخ .

قال الشهاب : يعنى ليس الإنسان مجرد البدن بدون النفس المجردة ، بل هو فى الحقيقة النفس المجردة ، وإطلاقه على البدن لشدة التعلق بها ، وهى جوهر مدرك لذاته ، أى من غير إحتياج إلى هذا البدن ، لوصفه بعد مفارقته بالتنعم ونحوه .

وقال أبو السعود : فى الآية دلالة على أن روح الإنسان جسم لطيف ، لا يفنى بخراب البدن ، ولا يتوقف عليه إدراكه وتألمه والتذاذه .

---

(١) سورة غافر : ٤٦ .

لايمكن لإنسان أن يعرف كنه الحياة الآخرة ولا ما يلابسها من أمور إذ أن ذلك من أسرار الغيب التي لا يتيسر لإنسان إدراكها بحواسه المادية .

قال تعالى :

« فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جزَاءً بِما كَانُوا يعْمَلُونَ »(١) .

وورد في البخاري عن ذلك قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاقرؤا إن شئتم : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين » .ولا يمكن تحديد مدى الإقامة في البرزخ بالزمن الدنيوي المعروف لنا إذ للزمان والمكان في الحياة الآخرة اعتبارات تختلف عن إعتبارات زماننا ومكاننا .

وأما قوله تعالى : « يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا » فقد قال بعض المفسرين : إنها نومة تكون بين النفختين في الصور وذلك يوم البعث ؛ ولعل ذلك هو التفسير الصواب لأنه سبق ودللنا أن البرزخ موضع حسي للأرواح يحسون فيه ويلمسون ما أعد لهم في الدار الآخرة . ويكون هذا حال الظالمين في مرقدهم حتى يوم القيامة .

قال تعالى :

« ومِنْ ورائِهِمْ برْزَخٌ إلَى يوْمِ يُبْعَثُونَ(٢) » .

---

(١) سورة السجدة : ١٧ . (٢) سورة المؤمنون : ١٠٠ .

ولا يدرك الناس يوم القيامة مدة إقامتهم فى البرزخ ويختلفون فى تحديدها طولا وقصراً بحسب ما قد موامن عمل فى الحياة الدنيا .

قال تعالى :

«ويَوْمَ تَقُومُ السَّاعةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مالَبِثُوا غَيرَ ساعةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ والإيمانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فى كِتَابِ اللهِ إِلَى يوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبعْثِ ولَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ »(١) .

غير أنه قد يزكى بعض الناس أنفسهم ويرقوا بأرواحهم فى هذه الحياة فيجدون أنفسهم بعد الممات فى الرفعة الروحية ؛ وقد ورد فى الحديث أن أمثال هؤلاء يرتفعون إلى مرتبة أعلى بعد أربعين يوما من مماتهم ، وبذلك تكون أرواحهم فى رقى مستمر(٢) .

(٣)

ذكر البعث بأسماء كثيرة مختلفة فى القرآن المجيد :

يوم القيامة ، الساعة ، اليوم الآخر ، الآخرة ، يوم الدين ، يوم الفصل ، يوم الحساب ، يوم الفتح ، يوم التلاق ، يوم الجمع ، يوم الخلود ، يوم الخروج ، يوم البعث ، يوم الحسرة ، يوم التناد ، يوم الآزفة ، يوم التغابن .

---

(١) سورة الروم : ٥٥ — ٥٦ .

(٢) مولاى محمد على : الدين الأسلامى ، ج ١ ، ص : ١٩٧ .

وقد ذكرت الكلمات التالية دلالة على الآخرة من غير أن تضاف إلى كلمة « يوم » :

القارعة ، الغاشية ، الصاخة ، الطامة ، الحاقة ، الواقعة .

أما ما يحدث فى هذا اليوم فالأسماء نفسها تدل على أنه يوم فناء شامل ، ويقظة تامة ، وإنهاء لنظام الكون القائم ، ويحل محله نظام يختلف عنه تمام الإختلاف ، وفى هذه الآيات الكريمة بيان وتفصيل ما يكون عليه الحال يوم القيامة .

قال تعالى :

«يسْأَلُ أَيَّانَ يوْمُ الْقيامةِ . فَإِذَا بَرِقَ الْبصرُ . وخَسفَ الْقَمرُ . وجُمِعَ الشَّمْسُ والْقَمرُ . يقُولُ الإِنْسانُ يوْمئِذٍ أَيْنَ الْمفَرُّ ؟ كَلَّا لَاوزَر . (ملجأ) . إِلَى ربِّك يوْمئذ الْمسْتَقَرُّ ... وُجُوهٌ يَوْمَئِذ نَاضِرةٌ ، إِلَى ربِّهَا نَاظِرةٌ ،ووُجُوهٌ يوْمئِذٍ باسِرةٌ . تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرةٌ »[1] .

وقال تعالى :

« فَإِذَا النُّجُومُ طُمِستْ . وإِذَا السَّماءُ فُرِجتْ . وإِذَا الْجِبالُ نُسِفَتْ . وإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ »[2] .

وقال تعالى :

«إِنَّ يوْم الْفَصْلِ كَان مِيقَاتًا . يوْم يُنْفَخُ فى الصُّورِ فَتَأْتُونَ

---

(١) سورة القيامة : ٦–٢٥ . (٢) سورة المرسلات : ٨–١١ .

أفواجًا . وفُتِحتِ السَّماءُ فَكَانَت أبْوابًا . وسُيِّرتِ الْجِبالُ فَكَانَتْ سرابًا »[١]

وقال تعالى :

«يوْم تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ . تَتْبعُهَا الرَّادِفَةُ . قُلُوبٌ يوْمئِذٍ واجِفَةٌ . أبْصارُها خاشِعةٌ . يقُولُونَ أءِنَّا لَمرْدُودُونَ فى الْحافِرةِ . أءِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرةً . قالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خاسِرة . فَإِنَّما هِى زَجْرةٌ واحِدةٌ . فَإِذَاهُم بِالسَّاهِرةِ »[٢] .

وقال تعالى :

«إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أثْقَالَهَا .. يوْمئِذ يصْدُرُ النَّاسُ أشْتَاتًا لِيَرُوْا أعْمالَهمْ »[٣] .

«يوْم يَخْرُجُونَ مِن الأَجْداثِ سِراعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (يرجعون) »[٤] .

«فَإِذَا نُفِخَ فى الصُّورِ نَفْخَةٌ واحِدَةٌ . وَحُمِلَتِ الأَرْضُ والْجِبالُ فَدُكَّتَا دكَّةً واحِدةً . فَيوْمئِذٍ وقعتِ الْواقِعةُ . وانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ . وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمئِذٍ ثَمَانِيَةٌ . يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لاتَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ »[٥]

(١) سورة النبأ : ١٧—٢٠ .
(٢) سورة النازعات : ٤—١٤ .
(٣) سورة الزلزلة : ١—٦ .
(٤) سورة المعارج : ٤٣ .
(٥) سورة الحاقة : ١٣—١٨ .

وقال تعالى :

« إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ. لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ . خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ . إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا . وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا »[1] .

وقال تعالى :

« يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ »[2] .

...

كثيراً ما تستعمل الساعة للدلالة على القيامة والبعث. قال الراغب[3] :
إن الساعات التي هي القيامة ثلاثة :

الساعة الكبرى : وهي بعث الناس للمحاسبة .

والساعة الوسطى : وهي موت أهل القرن الواحد .

والساعة الصغرى : وهي موت الإنسان . فساعة كل إنسان : موته ، وهي المشار إليها بقوله تعالى .

« قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا »[4] .

ومعلوم أن هذه الحسرة تنال الإنسان عند موته .

(١) سورة الواقعة : ١-٦ .
(٢) سورة إبراهيم : ٤٨ .
(٣) المفردات في غريب القرآن : ج ١ ، ص : ٣٦٢ .
(٤) سورة الأنعام : ٣١ .

وكما أن لفظ الساعة يستعمل فى معانى متعددة وتفيد بعث الناس للمحاسبة ، كما تفيد موت أهل القرن الواحد ، وموت الإنسان ، فكذلك كلمة القيامة وكلمة بعث فانهما يستعملان فى معانى مختلفة ، فقد ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : من مات فقد قامت قيامته . عبر هذا الحديث بالقيامة عن البرزخ ، وهذا يوضح أن الإنسان يبدأ حياة جديدة عقب موته مباشرة : وقد استعار القرآن لفظ الموت : لمن مات قلبه بالكفر والجهل ، ولفظ الإحياء فى من أحيا قلبه بالإيمان وحرره من الضلال والجهل ، قال تعالى :

«أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا »(١) .

وقوله تعالى : «ميتاً فأحييناه» يعنى كافراً فهديناه للإيمان الذى هو حياة القلوب ، وقد شبه القرآن الكفار بأهل القبور فى قوله تعالى :

«وَمَا يَسْتَوِى الأَحْيَاءُ وَلَا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فى الْقُبُورِ »(٢) .

ويدل السياق : على أن الأموات هنا هم الكفار الذين لم يستمعوا إلى الرسول فماتت قلوبهم ، وشبههم القرآن بمن فى القبور . وقد استعملت كلمة القبور كذلك فى قوله تعالى :

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٢ .
(٢) سورة الفرقان : ٢٢ .

«وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَارَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى الْقُبُورِ »[١] .

فهذه الآية دليل على البعث ، فإنه سبحانه وتعالى ذكر بقوته فى إحياء الأرض بإنزال الماء عليها ليدلل على أنه قادر على إحياء الموتى؛ والساعة هى الساعة الكبرى التى يبعث فيها الناس من قبورهم للحساب، وقد سبق ذكرها .

(٤)

خلق الله تعالى الإنسان وسخر له مافى الأرض واستخلفه فيها لعمارتها ، ولم يخلقه عبثاً أويتركه سدى ، وإنما مرجعه إليه سبحانه؛ قال تعالى :

«أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَاتُرْجَعُونَ »[٢]

فكما أن الإيمان بالله يسمو بحياة الإنسان إلى أعلى درجات الكرامة والشرف ، فكذلك الإيمان باليوم الآخر يجعل للحياة البشرية شأناً يرفعها إلى المكانة اللائقة بكمالها النوعى حيث ان الله شرف الإنسان فرفعه فوق سائر مخلوقاته ، وعبد طريقه فى الحياة الدنيابما أرسل من رسل وكفله برحمته ورزقه وأنار سبيله ؛ فكان من الحق

---

(١) سورة الحج : ٥ — ٧ .
(٢) سورة المؤمنون : ١١٥ .

والعدل أن يعده سبحانه إلى حياة أرق وأسمى وأنه ليس سائمة ولا نبتاً يستوفى غرضه ثم يفنى ، بل جعل فيه كلمته وسره وهى الروح ، وأعد لها دار جزائه ومستقر رحمته . قال تعالى :

«لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ»[١] .

يقول الشيخ محمد عبده فى تفسير سورة التين[٢] : يقسم جل شأنه أنه قوم الإنسان أفضل تقويم ، وركبه أحسن تركيب ، وأكد ذلك لأن الناس بغفلتهم عما كرمهم الله به من العقل ، كأنهم ظنوا أنفسهم كسائر أنواع العجماوات : يفعلون كما تفعل ، لا يمنعهم حياء ، ولا تردهم حشمة ، خصوصاً وقد قال بعضهم : إن الإنسان خلق ميالا إلى الشر ، فيقول الله سبحانه — تبييناً لفساد هذه المزاعم — أنه فطر الإنسان أحسن فطرة نفساً وبدناً ، وكرمه بالعقل الذى سادبه على العوالم الأرضية ، واطلع به على ما شاء الله من العوالم السماوية .

وقد كان الإنسان فى سذاجته بعيداً عن الأثرة ، حى القلب بالتراحم — كما تراه فى حال الأطفال — فعاش سعيداً ، وعاش أفراده فى نعيم الطمأنينة . . . كان ذلك زمناً ما — وهو العهد الأول — وما أشبهه بثمرة التين تؤكل كلها ، ولا يرمى منها شىء .

---

(١) سورة التين : ٤ — ٦ .
(٢) تفسير جزء عم ، ص ٩١ . طبعة دار الشعب .

والإنسان كان صلاحاً كله ، لم يشذ عن الجماعة منه فرد ، تلك كانت أيام القناعة بما تيسر من العيش ، وشدة الإحساس بحاجة كل فرد إلى الآخر فى تحصيله وفى دفع العوادى عن النفس . تنبهت الشهوات بعد ذلك ، وتخالفت الرغبات ، فنبت الحسد والحقد ، وتبعه التقاطع والتقاتل ، واستشرى الفساد بالأنفس حتى صارت الأمانة عند بعض الحيوان أفضل منها عند الإنسان ، فانحطت بذلك نفسه عن مقامها الذى كان لها بمقتضى الفطرة . وقد كان ذلك — ولايزال — حال أكثر الناس .

فهذا قوله : « ثم رددناه أسفل سافلين » . أى صيرناه أسفل من كثير من الحيوانات التى كانت أسفل منه ، لأن الحيوان المفترس مثلا إنما يصدر فى عمله عن فطرته التى فطر عليها : لم ينزل عن مقامه ، ولم ينحط عن منزلته فى الوجود . أما الإنسان فانه باهماله عقله ، وجهله بما ينبغى أن يعمل لتوفير سعادته وسعادة اخوانه ، ينقلب أرذل من سائر أنواع الحى . ثم إن الذين ارتـــدوا إلى أسفل سافلين ، منهم من هلك فى زمن نوح أو فى أزمان أخر ، ومنهم من سيهلك — وهم فى تلك المنزلة من الخسة — فتدوم لهم كذلك فى الحياة الأخرى ، وللسافلين فيها منازل العذاب والخزى والهون .

« إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » استثنى الله المؤمنين الذين يؤمنون بموجد الكائنات ، وبأن الله قد وضع شريعة للخير والشر ، وميز بينهما ، وأنه يجزى القائم على الشريعة باتيان الخير وتجنب الشر بالسعادة ، فلذلك يدلون على

إيمانهم بالأعمال الصالحة — وهى معروفة عند عامة البشر — وجماعها العدل والإحسان . . فهؤلاء قد حفظوا منزلتهم من الإنسانية واستبقوا لأنفسهم ذلك الإعتدال الفطرى فلهم أجر الكرامة فى الدنيا، فاذا جاءهم الموت امتد بهم النعيم إلى الآخرة فأجرهم غير ممنون أى غير مقطوع .

وقد أورد القرآن دليلا آخر على البعث يوم القيامة ، وهو وجوب محاسبة الإنسان على ما يعمله من خير أو شر .

قال تعالى :

«أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُم مِنْ بَعْضٍ»[1] .

وقال :

«فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ»[2] .

هذه بعض آيات بينات تدل على أن كل امرىء بما كسب رهين ، وأنه محاسب على عمله خيره وشره .

والبعث على حسب نصوص القرآن مادى ، وليس بروحى فقط كما توهم بعض الفلاسفة وأن الإيمان بالقرآن ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم يوجب ذلك[3] .

(١) سورة آل عمران : ١٩٥ .
(٢) سورة الزلزلة : ٧ — ٨ .
(٣) محمد أبو زهرة : العقيدة الإسلامية ، ص ٩٢ .

وقد ذكر القرآن كلمة الميزان فى معرض الكلام عن أعمال الإنسان الحسنة والسيئة ، وقد فهم كثير من الناس هذه الكلمة على غير حقيقتها .

قال الراغب : إن الوزن هو معرفة قدر الشيء والمتعارف فى الوزن عند العامة ما يقدر بالقسط والقبان ، وأضاف الراغب : أن الوزن يعنى العدل فى محاسبة الناس فى قوله تعالى :

« الْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَق »(١) .

وقوله تعالى :

« وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَاتُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ »(٢) .

وقال تعالى :

« وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ »(٣) .

(١) سورة الأعراف : ٨

(٢) سورة الأنبياء : ٤٧ .

(٣) سورة الأعراف : ٨ — ٩ .

وقد ذكر القرآن أن من الناس من لايقام لهم وزن يوم القيامة ، وهم أولئك الذين خاب سعيهم فى الحياة الدنيا ، فعملوا بغير ما أمرهم الله به ، وظنوا أنهم بفعلهم هذا مصيبون ، وأنهم يحسنون صنعاً ؛ قال تعالى :

« قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ، أُولئكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا » [1] .

(٥)

تختلف حياة الإنسان بعد الموت باختلاف أعماله ، فان كانت أعماله صالحة كان فى الجنة ، وإن كانت سيئة كان فى النار . وقد وردت كلمة فردوس فى القرآن فى آيتين : الأولى ذكر فيها الجنة مضافة إلى الفردوس فى قوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً » [2] .

والآية الثانية ذكرت فيها كلمة الفردوس مفردة قال تعالى :

« الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » [3] .

---

(١) سورة الكهف : ١٠٣ — ١٠٥ .
(٢) سورة الكهف : ١٠٧ .
(٣) سورة المؤمنون : ١١ .

وكلمة جنة وجمعها جنات هى الشائع استعمالها للدلالة على المكان الذى يقيم فيه المتقون من عباد الله ، وهى مشتقة من الجن وهو ستر الشيء عن الحاسة ، والجنة تقال عادة عن كل بستان يستر بأشجاره الأرض .

قال الراغب[1] : سميت الجنة :

إما تشبيهاً بالجنة فى الأرض — وإن كان بينهما بون .

وإما لستره نعمها عنا — المشار إليها بقوله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » .

قال ابن عباس رضى الله عنه : إنما قال جنات بلفظ الجمع لكون الجنان سبعاً .

جنة الفردوس . وعدن . وجنة النعيم . ودار الخلد : وجنة المأوى . ودار السلام . وعليين .

وصف الله تعالى النعيم الذى يقيم فيه المتقون بأنه جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وقد جاء هذا الوصف على سبيل المثال ، فالله تعالى يمثل لنا ما غاب عنا بما نراه .

قال تعالى :

«مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا . . »[2] .

---

(١) مفرادت غريب القرآن ج ١ص ١٣٨ .

(٢) سورة الرعد : ٣٥ .

ويؤكد ذلك ماجاء فى آية أخرى من أن الإنسان فى هذه الحياة لايمكنه أن يدرك أحوال الجنة ، فهى تختلف عن أحوال الدنيا وإن سميت بأسمائها ، قال تعالى :

« فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(١)

وقد فسر ذلك ماجاء فى الحديث : من أن الله تعالى يقول : أعددت لعبادى مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء » وقد علق ابن تيمية على ذلك بقوله : « إن الله أخبر أن فى الجنة خمراً ولبناً وماء وحريراً وذهباً وفضة ، ونحن نعلم قطعاً أن تلك الحقيقة ليست مماثلة ، بل بينهما تباين عظيم مع التشابه كما فى قوله تعالى :

« وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ، وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ »(٢) .

أى يشبه ما فى الدنيا ، وليس مثله ، فأشبه اسم تلك الحقائق أسماء هذه الحقائق ، كما أشبهت الحقائق ، من بعض الوجوه ، فنحن نعلمها إذا خوطبنا بتلك الأسماء من جهة القدر المشترك بينهما ، ولكن لتلك الحقائق خاصة لاندركها فى الدنيا ، ولاسبيل إلى إدراكنا لها لعدم وجود عينها أونظيرها من كل وجه(٣) » .

(١) سورة السجدة : ١٧ .
(٢) سورة البقرة : ٢٥ .
(٣) التدمرية فى المتشابه والتاويل ، ص : ١٢ .

ومثل ذلك ماجاء عن اقتران الرجال بالنساء فى الجنة ، وقد فهم بعض الناس خطأ أن لهذا الاقتران معنى جنسى .

قال الراغب : إن قوله تعالى : «وزوجناهم بحور عين» أى قرناهم بهن . ولم يجىء فى القرآن زوجناهم حوراً ، كما يقال زوجته امرأة — تنبيهاً أن ذلك لايكون على حسب المتعارف فيما بيننا من أمر الزواج .

وإن فى الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة فى هذه الحياة استجابة لداعى الطبيعة واستعمار الأرض وحفظ النوع بالإستيلاد ، وليس هذا هو المقصود فى الآخرة حيث لاضرورة له هناك . وعلى ذلك فاقتران الرجال بالنساء فى الجنة له معنى آخر يختلف عن المعنى المتعارف بيننا .

جاء فى أوصاف نساء الجنة كلمة حور ، وقد ذكرت فى القرآن فى أربع آيات : سورة الدخان الآية ٤٤ ، سورة الطور الآية ٢٠ ، سورة الرحمن الآية ٧٢ ، سورة الواقعة الآية ٢٣ . قال الراغب : وكلمة حور جمع أحور للذكر وحوراء للإناث ، وهى ماكان فى عينها حور ، وقيل إن الحوراء : البيضاء . وقيل : الحوراء : المرأة الشديدة سواد العين وبياضها . ونورد فيما يلى الآيات الأربع التى جاء فيها ذكر الحور :

قال تعالى :

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ . فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ . كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحورعين »[١]

جاء فى تفسير[٢] هذه الآية : «كذلك وزوجناهم بحور عين» أى قرناهم بما فيه قرة أعينهم واستئناس قلوبهم ، لوصولهم بمحبوبهم ، وحصولهم على كمال مرادهم .

وقال تعالى :

« إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ . فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍعِينٍ »[٣]

وقال تعالى :

« فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ . فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِى الْخِيَامِ »[٤] .

وقال تعالى :

« وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِى جَنَّاتِ

---

(١) سورة الدخان : ٥١–٥٤ .
(٢) تفسير القاسمى : ج ١٤ ، ص : ٥٣١٥ .
(٣) سورة الطور : ١٧ – ٢٠ .
(٤) سورة الرحمن : ٧٠ – ٧٢ .

النَّعِيم . ثُلَّةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِنَ الآخِرِينَ . عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ . مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ . يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ . لَايُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَايُنْزِفُونَ . وَفَاكِهَةٍ مِمَّايَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ . وَحُورٌ عِينٌ . كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ . جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ »(١)

وقد اختلف العلماء فى الحور فعن الحسن هن عجائزكم ينشئهن الله خلقاً آخر ، وقال أبو هريرة لسن من نساء الدنيا(٢) .

وما قيل عن الحور يقال عن الغلمان ، وقد جاء ذكرهم فى القرآن فى آية واحدة ، والولدان ورد ذكرهم فى آيتين . قال تعالى :

« وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ »(٣).

وقال تعالى :

« يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدانٌ مُخَلَّدُونَ »(٤).

وقيل فى تفسير الآية الأولى : أن الغلمان هم أولاد المؤمنين فى الجنة وعبر عنهم بقوله تعالى « غلمان لهم » أى أولادهم ، ويدل على ذلك ماجاء فى آية سابقة لها من أن الله تعالى يلحق بالذين آمنوا ذريتهم فى الجنة . قال تعالى :

(١) سورة الواقعة : ١٠ — ٢٤ .
(٢) النيسابورى: غرائب القرآن ، ج ٢٥ ، ص ٨٧ .
(٣) سورة الطور : ٢٤ .
(٤) سورة الواقعة : ١٧ ، سورة الإنسان : ١٩ .

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » .

وقال تعالى :

« رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ . . »

وقد يجوز أن المقصود بالغلمان والولدان أنهم من نعيم الجنة ، على أنهم رمز للطهر ونعيم الروح .

* * *

ذكر القرآن سبعة أسماء للنار ، وقال بعض العلماء : إن هذه الأسماء هي عبارة عن سبع درجات بها : « وجهنم » هو أكثر الأسماء شيوعاً للنار ، وسميت نار الآخرة لبعد قعرها . والإسم الثانى للنار هو الهاوية ، وقد وردت فى القرآن مرة واحدة فى قوله تعالى : « وأما من خفت موازينه . فأمه هاوية » .

قال الأستاذ الإمام محمد عبده : أى مهواة سحيقة يهوى فيها ، وسميت هاوية مع أنها يهوى فيها ، كما سميت العيشة راضية مع أنها يرضى بها .

والإسم الثالث للنار هو الجحيم من الجحمة ، وهى شدة تأجج النار ، وجحم وجهه من شدة الغضب استعارة من جحمة النار ، وذلك من ثوران حرارة القلب .

والإسم الرابع للنار « سعير » ، والسعر : التهاب النار : والسعار : حر النار . وسعر الرجل : أصابه حر .

والإسم الخامس للنار هو سقر ، « يقال سقرته الشمس أى لوحته وأذابته » .

والإسم السادس للنار هو « لظى » ، وهى اللهب الخالص و« تلظى » يعنى تتوقد وتلتهب .

والإسم السابع للنار هو « الحطمة » .

قال تعالى : « كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ »(١)

الحطمة : مشتقة من الحطم ، وهو كسر الشىء ، مثل الهشم ونحوه ، ثم استعمل لكل كسر متناه ، والحطام : ما يتكسر من اليبس(٢) ، كما جاء فى قوله تعالى :

« ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا »(٣) .

يتضح مما تقدم أن النار تحمل ثلاثة معان مختلفة ، الأولى : السقوط إلى هوة سحيقة ، والثانى : الإحتراق ، والثالث : التحطيم .

فاذا أتبع الإنسان هوى نفسه وشهواتها فانه يؤدى بنفسه إلى السقوط فى الهاوية ، وإن فى أتباعه لهوى نفسه احتراقاً لفؤاده فى الدنيا يتبعه احتراق بلهيب النار فى الآخرة ، وإنه بأعماله السيئة يخرج من الدنيا صفر اليدين ليس له عمل صالح يجنى ثمره فى الآخرة .

---

(١) سورة الهمزة : ٤ — ٥ .

(٢) المفردات : ص ١٧٦ .

(٣) سورة الحديد : ٢٠ .

وفى يوم القيامة تبلى سرائر الناس وتتصفح ضمائرهم . ويظهر الطيب والخبيث ، فلا يبقى فى سريرة سربل تنقلب كل خفية إلى الجهر .

وقد جاء فى القرآن وصف للنار فى قوله تعالى :

« كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فى الْحُطَمَةِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةِ . الَّتى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ »(١) .

قال الأستاذ الإمام محمد عبده(٢) فى تفسير هذه الآية : إن الفؤاد إنما يطلق على القلب وهو موضع الوجدان والشعور ، فكأنه قال التى تعلو مشاعرهم ومداركهم ومواطن الوجدان من نفوسهم ، أى أن سلطان هذه النار على قوى الوجدان والشعور التى هى مواطن النيات والمقاصد ومساكن الفضائل والرذائل .

وقد جاء فى القرآن أن جهنم جزاء لمن كانت أعمالهم فى هذه الدنيا باطلة وخاسرة فى قوله تعالى :

«قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنونَ صُنْعًا . أُولٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا . ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ »(٣) .

---

(١) سورة الهمزة : ٤ — ٧ .

(٢) تفسير جزء عم : ص ١١٨ — طبعة دار الشعب .

(٣) سورة الكهف : ١٠٣ — ١٠٦ .

ولايقتصر العقاب على الأعمال السيئة على العذاب بالنار وحدها ، فقد ذكر القرآن أنواعاً أخرى للعذاب مع النار كما جاء فى قوله تعالى :

«لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَاذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَالَهُم مِنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ »(١) .

وجاء فى القرآن كذلك : أن المسىء يسود وجهه يوم القيامة ، قال الله تعالى :

«يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ »(٢) .

إن الإنسان يلقى جزاء أعماله السيئة فى النار ، ونضيف إلى ذلك : أن الغرض منها إصلاح ما أفسده العمل السىء بحيث يطهر الإنسان مما علق به من آثار أعماله الفاسدة ، ويصبح أهلا للترقى فى مدارج الكمال الروحى .

---

(١) سورة يونس : ٢٦ — ٢٧ .

(٢) سورة آل عمران : ١٠٦ .

قال ابن القيم : إن النار(١) خلقت تخويفاً للمؤمنين وتطهيراً للخاطئين والمجرمين فهى طهرة من الخبث الذى اكتسبته النفس فى هذا العالم ، فان تطهرت ههنا بالتوبة النصوح والحسنات الماحية والمصائب المكفرة ، لم تحتج إلى تطهيرها هناك ، وقيل لها مع جملة الطيبين (سلام عليكم ، فادخلوها « أى أدخلوا الجنة » خالدين) وإن لم تتطهر فى هذه الدار ووافت الدار الأخرى بدرنها ونجسها وخبثها ، أدخلت النار طهرة لها ، ويكون مكثها فى النار بحسب زوال الدرن والخبث والنجاسة التى لايغسلها الماء ، فاذا تطهرت الطهر التام ، أخرجت من النار .

ذكر الله تعالى وصف الخلود مقروناً بالثواب والعقاب فى القرآن أكثر من ثمانين مرة . .

والخلود معناه البقاء الدائم وقد وصف النعيم بالدوام صراحة فى مثل قوله تعالى :

« أُكُلُهَا دَائِمٌ »(٢) .

« والدوام والخلود : البقاء إلى غير زمن محدود ، وهو الذى لانعرف له نهاية ، وما دمنا نسير على مبدأ الأخذ بظاهر القرآن من غير محاولة لتأويله بأى نوع من التأويل ، فانه لابد من الأخذبظاهر القرآن فى الخلود ، وعلى ذلك تضافرت أقوال كل المفسرين ،

(١) حادى الأرواح : المجلد الثانى ، ص ١٩٢ .
(٢) سورة الرعد : ٣٥ .

وبذلك فهم الصحابة فى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يرد مايعارض هذا الظاهر مطلقاً .

وقد يقول قائل : إن الله تعالى يقول :

«فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ . وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَاشَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ»[1]

هذا الخلود والدوام مادامت السموات والأرض إلا ماشاء ربك يومىء إلى احتمال انتهاء زمن الشقاء ، ونقول[2] : إن كل شيء يتعلق بمشيئة الله تعالى ، وهذا لايمنع الخلود ، ومشيئة الله تعالى قد تتعلق بالبعض دون الكل ، وإن الله تعالى بعد ذكر المشيئة الإلهية أكد البقاء الدائم فقال سبحانه وتعالى : « عطاء غير مجذوذ » ، أى غير مقطوع وذكر المشيئة فى هذا المقام للإشارة إلى أن ذلك بارادته هو ومشيئته ، ولهذا قال بعد المشيئة فى عذاب الكفار : « إن ربك فعال لما يريد » .

وقد قال بعض العلماء : إن الخلود فى أوصاف الجنة والنار ليس معناه البقاء الدائم ، بل معناه البقاء الطويل ، وقد ذكر ذلك الرأى فى كتاب « حادى الأرواح» المنسوب لابن القيم ، ومهما يكن سند هذا الرأى من العقل ، فانا لانقبله لأنه يخالف ظاهر القرآن ، وحتى

(١) سورة هود : ١٠٦ — ١٠٨ .

(٢) الأستاذ محمد أبو زهرة : العقيدة الإسلامية ، ص : ٩٧ — ٩٨ .

الآية التي ذكرت فيها المشيئة كان فيها ما يؤكد الخلود بمعنى الدوام الذى لاحد له، إذ قال سبحانه وتعالى: «ماذامت السموات والأرض»

وذكر المشيئة فى أمور اليوم الآخر فى موضعه ، لأن اليوم الآخر لانعلم ما فيه إلا باعلام الله تعالى ، ونحن فى ظل إرادته ومشيئته ، وستبدولنا المشيئة عياناً لاخفاء معه ، فهو يوم التجلى الذى لايخفى فيه شيء ، وأمورنا إليه .

ولكن نحن فى هذه الدنيا يجب أن نعتقد بما يخبرنا به فى كتابه الكريم الذى هو نوره الذى يهتدى به » .

(٦)

وردت فى القرآن المجيد ، نصوص تثبت الشفاعة ، قال الله تعالى :

«مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ »وقال[1] : «وَلَايَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ، وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ[2] » .

قال الأستاذ رشيد رضا فى تفسيره : « من ذا الذى يشفع عنده » فيحمله على ترك مقتضى مانصت به سنته ، وقضت به حكمته وأوعدت به شريعته ، من تعذيب من دس نفسه بالعقائد الباطلة ، ودنسها بالأخلاق السافلة ، وأفسد فى الأرض ، من ذا الذى يقدم على هذا من عبيده (إلا باذنه) والأمر كله له صورة وحقيقة ، وليس هذا الاستثناء نصاً فى أن الإذن سيقع ، وإنما هو كقوله :

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٥ . (٢) سورة الأنبياء : ٢٨ .

«يَوْمَ يَأْتِ لَاتَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ »(١)

فهو تمثيل لانفراده بالسلطان والملك فى ذلك اليوم .

وقال الأستاذ الإمام : إن فى هذا الاستثناء قطعاً لأمل الشافعين والمتكلمين على الشفاعة التى كان يقول بها المشركون وأهل الكتاب عامة ببيان انفراده تعالى بالسلطان والملك ، وعدم جرأة أحد من عبيده على الشفاعة أو التكلم بدون إذنه ، وإذنه غير معروف لأحد من خلقه وقد نفى الله تعالى زعم المشركين بأن آلهتهم تشفع لهم ويجيرونهم من عذاب الله فى قوله تعالى :

« وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ »(٢) .

وتكلم الحديث عن شفاعة الله والملائكة والرسل والمتقين ، فقد جاء فى البخارى ومسلم فى حديث طويل عن أبى سعيد الخدرى فحواه : أن الأنبياء يشفعون بعد أن يأذن الله لهم فى أممهم فيخرجون من النار من يرونهم أنهم أهل للعفو عنهم ، ثم يلونهم الملائكة فيشفعون لطبقات من الناس ألموا فى حياتهم الدنيا بأعمال من الخير قليلة . ثم يتبعهم المؤمنون أيضاً فيشفعون لقوم أوتوا حظاً من الخير قليلا جداً كمثقال الذرة . فعند هذا يقول الله تعالى شفع النبيون وشفع الملائكة وشفع

---

(١) سورة هود : ١٠٥ .   (٢) سورة الروم : ١٣ .

المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط ».

والمتأمل فى هذا الحديث يرى أن الله يتقبل الشفاعة بعد إذنه فى قوم طهرهم العذاب فاستحقوا رحمته وجازاهم عن خيرهم القليل بالطويل العريض من رضوانه ؛ بل زاد جلت عظمته فشمل أقواماً لم يباشروا عملا طيباً فى حياتهم ، واستنقذهم هو بغير شفاعة أحد ؛ والحديث فى مدلوله يجمع بين الشفاعة ورحمة الله التى وسعت كل شىء .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها » .

وقال أبوذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرض لى جبريل فى جانب الحرة فقال : بشر أمتك أنه من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة . فقلت : ياجبريل ، وإن سرق وإن زنى . قال : نعم ، وإن سرق وإن زنى . فقلت : وإن سرق وإن زنى . قال : وإن سرق وإن زنى . قلت : وإن سرق وإن زنى . قال : وإن سرق وإن زنى وإن شرب الخمر .

فهذه الأحاديث تبشرنا بسعة رحمة الله تعالى ، فنرجو من الله تعالى أن لايعاملنا بما نستحقه ويتفضل علينا بما هو أهله ، بمنه وسعة جوده ورحمته .

— ٧ —

وردت نصوص قرآنية تثبت رؤية المؤمنين لربهم بظاهرها ، مثل قوله تعالى :

« وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (١) » .

وهى صريحة فى إثبات الرؤية للمؤمنين ونفى الرؤية عن المشركين والكافرين بقوله تعالى :

« كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (٢) » .

وهذان نصان صريحان فى أن الله تعالى كرم المؤمنين برؤيته ، وأبعد الكافرين ، فجعلهم عنه محجوبين ، ولكن قرر بعض العلماء أن رؤية الله تعالى غير ممكنة ، لأن الرؤية تقتضى مكاناً ، تقتضى جسماً يتجه إليه البصر ، وزكوا ذلك بقوله تعالى : لاتدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير (٣) . وقالوا : قال الله تعالى :

« وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ : رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ . قَالَ : لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ

---

(١) سورة القيامة : ٢٢ — ٢٣ .
(٢) سورة المطففين : ١٥ .
(٣) سورة الأنعام : ١٠٣ .

مُوسَى صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ : سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ . وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ » .

نصت هذه الآية على أن موسى عليه السلام طلب أن يرى الله فأجابه بقوله : لن ترانى وأمره أن ينظر إلى الجبل ، وأن يرى هل يستقر مكانه إذا تجلى عليه فلما تجلى الله على الجبل إندك الجبل وخر موسى صعقاً مغمى عليه فاقداً لرشده من شدة ما ألم به من الهول ؛

روى عن السدى أنه قال : إن موسى عليه السلام لما كلمه ربه أحب أن ينظر إليه ، قال : رب أرنى أنظر إليك ، قال : لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى . فحف الجبل ، وحف حول الملائكة بنار ، وحف حول النار بملائكة ، وحول الملائكة بنار ثم تجلى ربه للجبل .

ومعنى قوله جعله دكاً ، جعله تراباً . وقوله تعالى « لن ترانى » نص صريح على عدم إمكان البشر النظر إليه ؛ ولكن جمهور أهل السنة ذهبوا إلى أن معنى لن ترانى أى فى الدنيا .

وقالت عائشة رضى الله عنها : من قال إن أحداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله ؛ قال الله :

« لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » .

قال الطبرى : فقال قائلوا هذه المقالة معنى الإدراك فى هذا الموضع الرؤية وأنكروا أن يكون الله يرى بالأبصار فى الدنيا والآخرة ، وتأولوا قوله : « وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة » بمعنى انتظارها

رحمة الله وثوابه . وتأول بعضهم فى الأخبار[1] التى رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتصحيح القول بروئية أهل الجنة ربهم يوم القيامة تأويلات ، وأنكر بعضهم مجيئها ودافعوا أن يكون ذلك من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم . وردوا القول فيه إلى عقولهم فزعموا أن عقولهم تحيل جواز الروئية على الله تعالى بالأبصار وأتوا فى ذلك بضروب من التمويهات وأكثروا القول فيه من جهة الاستخراجات وكان من أجل مازعموا أنهم عملوا به صحة قولهم ذلك من الدليل أنهم لم يجدوا أبصارهم ترى شيئاً إلا ما يأتيها دون مالاصقها فانها لاترى مالاصقها ، قال فماكان للأبعاد مباينآ مما عاينته فان بينها وبينه فضاء وفرجة . قالوا فان كانت الأبصار ترى ربها يوم القيامة على نحو مانرى الأشخاص اليوم فقد وجب أن يكون الصانع محدوداً ومن وصفه بذلك فقد وصفه بصفات الأجسام التى يجوز عليها الزيادة والنقصان وأخرى أن من شأن الأبصار أن تدرك الألوان كما من شأن الأسماع أن تدرك الأصوات ، ومن شأن المنتشم أن تدرك الأعراف قالوا فمن الوجه الذى فسد أن يكون جائزاً انقضاء البصر إلا بابدال الألوان . قالوا : ولما كان غير جائز أن يكون الله تعالى ذكره موصوفاً بأنه ذو لون صح أنه غير جائز أن يكون موصوفاً بأنه مرئى .

---

(١) ونص الحديث هو : عن صهيب رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة — قال : يقول الله تبارك وتعالى : « تريدون شيئاً أزيدكم » . فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة ، وتنجنا من النار ؟ قال : فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل » . رواه مسلم ، والترمذى .

وقال آخرون: معنى ذلك لاتدركه أبصار الخلائق فى الدنيا وأما فى الآخرة فانها تدركه .

وقال أهل هذه المقالة الإدراك فى هذا الموضع الرؤية . واعتل أهل هذه المقالة بقولهم هذا بأن قالوا الإدراك وإن كان قد يكون فى بعض الأحوال بغير معنى الرؤية فان الرؤية من أحد معانيه وذلك غير جائز أن يلحق بصره شيئاً فيراه . وهو لما أبصر وعاينه غير مدرك وإن لم يحط بأجزائه كلها رؤية . قالوا فرؤية ما عينه الرائى إدراك له دون مالم يره .

قالوا : وقد أخبر الله أن وجوهاً يوم القيامة إليه ناظرة قالوا فمحال أن تكون إليه ناظرة وهى غير مدركة له رؤية. قالوا وإذا كان ذلك كذلك وكان غير جائز أن يكون فى أخبار الله تضاد وتعارض وجب وصح أن لاتدركه الأبصار[1] على الخصوص لا على العموم ؛ وأن معناه لاتدركه الأبصار فى الدنيا وهو يدرك الأبصار فى الدنيا والآخرة إذا كان الله قد استثنى منه بقوله «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة»

(١) جاء فى تفسير القاسمى : « لا تدركه الأبصار » إنما نفى الإدراك الذى هو الإحاطة كما قاله أكثر العلماء ، ولم ينف مجرد الرؤية . لأن المعدوم لا يرى ، وليس فى كونه لا يرى مدح . إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحاً . وإنما المدح فى كونه لا يحاط به ، وإن رؤى . كما أنه لا يحاط به وإن علم ، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علماً فكذلك إذا رؤى لا يحاط به رؤية . فكان فى نفى الإدراك من إثبات عظمته ، ما يكون مدحاً وصفة كمال . وكان ذلك دليلا على إثبات الرؤية لا على نفيها . لكنه دليل على إثبات الرؤية مع عدم الإحاطة . وهذا هو الحق الذى اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها . (تفسير القاسمى ، ج ١٤ ، ص ٥٢٢٩) .

وقال آخرون من أهل هذه المقالة الآية على الخصوص إلا أنه جائز أن يكون المعنى لاتدركه أبصار الظالمين فى الدنيا والآخرة ، وتدركه أبصار المؤمنين وأولياء الله [١] .

قالوا وجائز أن يكون معناها لاتدركه الأبصار بالنهاية والإحاطة ولو بالرؤية .

قالوا وجائز أن يكون معناها لاتدركه الأبصار فى الدنيا وتدركه فى الآخرة . وجائز أن يكون معناها لاتدركه الأبصار من يراه بالمعنى الذى يدرك به القديم أبصار خلقه فيكون الذى نفى عن خلقه من إدراك أبصارهم إياه هو الذى أثبته لنفسه إذ كانت أبصارهم ضعيفة لاتنفذ إلا فيما قواها جل ثناؤه على النفوذ فيه وكانت كلها متجلية لبصره لايخفى عليه منها شىء .

قالوا ولاشك فى خصوص قوله « لاتدركه الأبصار » وأن أولياء الله سيرونه يوم القيامة بأبصارهم غير أنا لاندرى أى معانى الخصوص الأربعة أريد بالآية . وأعتلوا لتصحيح القول بأن الله يرى فى الآخرة بنحو علل الذين ذكرنا قبل .

وقال آخرون الآية على العموم ولن يدرك الله بصر أحد فى الدنيا والآخرة ولكن الله يحدث لأوليائه حاسة سادسة سوى حواسهم

(١) قال جرير بن عبد الله البجلى : كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرأى القمر ليلة البدر ، فقال : (إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا) ثم قرأ : « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » .

الخمس فيرونه بها : واعتلوا لقولهم هذا بأن الله تعالى ذكره نفى عن الأبصار أن تدركه من غير أن يدل فيها أو بآية غيرها على خصوصها .

قالوا وكذلك أخبر فى آية أخرى أن وجوهاً إليه يوم القيامة ناظرة قالوا فاخبار الله لايتباين ولايتعارض وكلا الخبرين صحيح معناه على ماجاء به التنزيل : واعتلوا أيضاً من جهة العقل بأن قالوا إن كان جائزاً أن تراه فى الآخرة أبصارنا وأن زيد فى قواها أوجب أن نراه فى الدنيا وإن ضعفت كل الضعف فقد تدرك مع ضعفها ماخلقت لإدراكه ، وإن ضعف إدراكها إياه مالم تعدم .

قالوا فلو كان فى البصر أن يدرك صانعه فى حال من الأحوال أووقت من الأوقات ويراه وجب أن يكون يدركه فى الدنيا ويراه فيها وإن ضعف إدراكه إياه .

قالوا فلما كان غير ذلك موجود فى أبصارنا كان غير جائز أن تكون فى الآخرة إلا بهيئتها فى الدنيا فى أنها لاتدرك إلا ماكان من شأنها إدراكه فى الدنيا .

قالوا فلما كان ذلك كذلك وكان الله تعالى ذكره قد أخبر أن وجوهاً فى الآخرة تراه أعلم أنها تراه بغير حاسة البصر إذا كان غير جائز أن يكون خبره إلا حقاً .

قال الطبرى بعد ذلك : والصواب من القول فى ذلك عندنا ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر ، وكما ترون الشمس ليس دونها سحابة ; فالمؤمنون يرونه والكافرون عنه يومئذ

محجوبون كما قال جل شأنه : «كلا ، إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون»
ثم قال : فأما مااعتل به منكرو رؤية الله يوم القيامة بالأبصار ، لما كانت لاترى إلا ما بينها وكان ما بينه وبينه فضاء وفرجا ، وكان ذلك عندهم غير جائز أن تكون رؤية الله بالأبصار كذلك لأن فى ذلك اثبات حد له ونهاية فبطل عندهم لذلك جواز الرؤية عليه وأنه يقال لهم هل علمتم موصوفاً بالتدبير سوى صانعكم إلا مماسالكم أومبايناً فان زعموا أنهم يعلمون ذلك كلفوا تبيينه ولاسبيل إلى ذلك وإن قالوا لانعلم ذلك قيل بالتدبير والفعل ، ولم يجب عندكم إذ كنتم لم تعلموا موصوفاً بالتدبير والفعل لامماس ولامباين . فان قالوا ذلك كذلك ، قيل لهم فما تنكرون أن تكون الأبصار كذلك لاترى إلامابينها ، وكانت بينه وبينها فرجة وقد تراه وهو غير مباين لها ولا فرجة بينها وبينه ولافضاء ، كما لاتعلم القلوب موصوفاً بالتدبير إلامماساً لها أومبايناً وقد علمته عندكم لاكذلك . وهل بينكم وبين من أنكر أن يكون موصوفاًبالتدبير معلوماً إلا مماساً للعلم به أومبايناً وأجاز أن يكون موصوفاً برؤية الأبصار لامماساً لها ولامبايناً فرق . ثم يسألون الفرق بين ذلك فلن يقولوا فى شىء من ذلك قولا إلا الزموا فى الآخر مثله ، وكذلك يسألون فيما اعتلوا به فى ذلك أن من شأن الأبصار إدراك الألوان كما أن من شأن الأسماع إدراك الأصوات ومن شأن الشم إدراك الأعراف فمن الوجه الذى فسد أن يقتضى السمع لغير درك الأصوات ، فسد أن تقتضى الأبصار لغير درك الألوان . فيقال لهم : ألستم لم تعلموا فيما شاهدتم وعاينتم موصوفاً بالتدبير والفعل إلا ذا لون وقد

علمتموه موصوفاً بالتدبير لا ذا لون فان قالوا نعم لم يجدوا فى الإقرار به بدأ ، إلا أن يكذبوا فيزعموا أنهم قد رأوا وعاينوا موصوفاً بالتدبير والفعل غير ذى لون ، فيدلقوا ببيان ذلك ولاسبيل إليه فيقال لهم فاذا كان ذلك كذلك فما أنكرتم أنّ تكون الأبصار فيما شاهدتم وعاينتم لم تجدوها تدرك إلا الألوان كما لم تجدوا أنفسكم تعلم موصوفاً بالتدبير غير ذى لون ثم يسألون الفرق بين ذلك فلن يقال فى أحدهما شىء إلا الزموا فى الآخر مثله .

وقال الإمام الغزالى(١) : الرؤية حق بشرط أن لايفهم من الرؤية استكمال الخيال فى متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان ، فان ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علواً كبيراً ، بل كما عرفته فى الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة فتراه فى الآخرة كذلك بل أقول المعرفة الحاصلة فى الدنيا بعينها هى التى تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتنقلب مشاهدة ، ولايكون بين المشاهدة فى الآخرة والمعلوم فى الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح ، كما ضربنا من المثال فى استكمال الخيال بالرؤية فاذا لم يكن فى معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة ، فلايكون فى استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيها فى الوضوح إلى غاية الكشف كما أن الصورة المرئية هى المتخيلة بعينها إلا فى زيادة الكشف ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

---

(١) الغزالى : إحياء علوم الدين ، جـ ١٥ ، ص ٢٦٠٢ — طبعة دار الشعب ٠

« يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا [١] » .

إذ تمام النور لايؤثر إلا فى زيادة الكشف ، ولهذا لايفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون فى الدنيا ، لأن المعرفة هى البذر الذى ينقلب فى الآخرة مشاهدة ، كما تنقلب النواة شجرة ، والحب زرعا ومن لانواة فى أرضه كيف يحصل له نخل . ومن لم يزرع الحب فكيف يحصد الزرع . فكذلك من لم يعرف الله تعالى فى الدنيا فكيف يراه فى الآخرة .

قال مالك[٢] رضى الله عنه لولم ير المؤمنون ربهم يوم القيامة لم يعير الله الكفار بالحجاب . وقرأ النبى صلى الله عليه وسلم : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وفسره بالنظر إلى وجه الله عز وجل . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنكم سترون ربكم عياناً » . وأما قوله : « لاتدركه الأبصار» علم أن الإدراك غير الرؤية ، لأن الإدراك هو الوقوف على كنه الشيء والإحاطة به . والرؤية المعاينة ، وقد تكون الرؤية بلا إدراك . قال الله تعالى فى قصة موسى عليه السلام : « فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا . وقال « لاتخاف دركاً ولاتخشى » فنفى الإدراك مع إثبات الرؤية . فالله عزوجل

---

(١) سورة الحديد : ٢٢ .

(٢) تفسير البغوى : ج ٢ ، ص ١٦٦ .

يجوز أن يرى من غير إدراك وإحاطة كما يعرف فى الدنيا ولايحاط به قال الله تعالى : « ولايحيطون به علماً » فنفى الإحاطة مع ثبوت العلم ؛

قال سعيد بن المسيب : لاتحيط به الأبصار ؛ وقال عطاء : كلت أبصار المخلوقين عن الإحاطة به ؛ وقال ابن عباس ومقاتل : لاتدركه الأبصار فى الدنيا وهو يرى فى الآخرة ؛ قوله : « وهو يدرك الأبصار » أى لايخفى على الله شىء ولايفوته « وهو اللطيف الخبير » ؛

الكتاب الثالث

الإنسان في القرآن

الفصل الأول

آدم

— ١ —

قصة آدم فى القرآن المجيد هى قصة الإنسان الأول . .

خلق من تراب . .

وارتقى بالخلق السوى إلى منزلة العقل والإرادة . .

وقصة هذه النشأة الآدمية يستوفيها القرآن فى هذه الآيات :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ [1] » .

« خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ [2] » .

« إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ [3] » .

« إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ [4] ... » .

« الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ [5] »

« وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً ، فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ

(١) سورة الحجر : ٢٦
(٢) سورة الرحمن : ١٤
(٣) سورة ص ٧١
(٤) سورة الصافات : ١١
(٥) سورة السجدة : ٧

مُضْغَةً ، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا ، فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ... ثُم أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١) » .

« مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلهِ وَقَارًا ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (٢) » .

فالطين كما تصرح الآيات هنا هو الأصل الذى نشأ منه الإنسان ، وإن يكن هذا الطين قد تقلب فى أطوار عديدة ، حتى ظهر منه هذا الإنسان .

فالحمأ المسنون هو الطين بعد آن يتخمر ويتعفن ، وبين طور الطين والحمأ المسنون طور آخر هو الصلصال ، الذى يتحول فيه الطين إلى مادة من الزبد يشبه الفخار . وبلغة العلم الحديث : يكون الطين ، فالصلصال ، فالحمأ المسنون — وهو الطين المتعفن — ثلاثة أطوار تنقلت فيها بذرة الحياة ، وأن هذا التعفن الذى أصاب الطين هو بشائر الحياة ، إذ هو « البكتريا » التى نضجت فيها خمائر الحياة ، وظهرت فيها جرثومتها .

لقد تعرض القرآن لبدء الحياة فى هذه الأرض فقال : « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شىء قدير (٣) » .

---

(١) سورة المؤمنون : ١٢–١٤ .
(٢) سورة نوح ١٣–١٤ .
(٣) سورة النور : ٤٥ .

وهذا الذى قرره القرآن منذ قرون وأجيال أصبح من مقررات العلم الحديث ، يقول العلماء إن أول حيوان وجد فى هذه الأرض ، إنما وجد فى الماء فى صورة خلية ضئيلة جداً تحمل سر الحياة القابلة للنمو والتكاثر والتطور .. وبتكاثر هذه الخلية الضئيلة كثر ما يعيش فى الماء من الأحياء .. وتطورت هذه الأحياء فصارت أنواعاً وأجناساً وفصائل ، وظلت تعيش فى الماء إلى ماشاء لها الله .. ثم بدأ بعضها يدرج منه إلى وجه الأرض ويعيش عليها ، وتأقلم ذلك الذى درج إلى سطح اليابس ، وتكاثر وتطور ، فكان منه ما نعرف من أنواع الحيوان ، وما لانعرف مما انقرض نسله وغبر عهده .

ذلك ما يقرره القرآن ، ويقرره العلم عن بدء الحياة فى هذه الأرض ، وهو تقرير يدل على أن الأرض عرفت كثيراً من أنواع الأحياء المائية والبرية قبل أن تعرف هذا الإنسان الذى يسكنها الآن بما لايحصيه إلا الله من الدهور .

فلما خلق الله تعالى آدم كانت الأرض حافلة بأصناف النبات والطير والدواب ، ولم يأمره سبحانه وتعالى بالهبوط إليها إلا بعد أن علمه أسماءها وخواصها وسر تذليلها والانتفاع بها وإليه الإشارة بقوله عزوجل :

« وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا »[1] .

وليس فى نصوص القرآن التى وردت عن نشأة الحياة فى هذه الأرض وتطورها نص قطعى يدل على أن الإنسان الحالى انحدر من

(١) سورة البقرة : ٣١ .

سلالات تلك الأحياء القديمة وتطور حتى صار إلى ما هو عليه الآن ، وليس فى العلم كذلك نص يقينى يقرر ذلك . وكل ما هنالك أن لدى علماء الجيولوجيا علماً عن بقايا عظام قديمة لأمم سكنت هذه الأرض منذ عصور موغلة فى القدم تخالف عظام الآدميين الموجودين عليها الآن :

وقد رأى بعض الباحثين فى قصة آدم أن يناقشوا نظرية داروين . يقول داروين فى حديثه عن أصل مذهبه : (إن المشابهة وأسباباً أخرى تدعونا ضرورة إلى الاعتقاد بأن الأحياء أصلها واحد ، وألا فاصل جوهرى بين العالمين ، عالم النبات وعالم الحيوان) :

ثم يقول : « إنى أرى فيما يظهر لى أن الأحياء عاشت على هذه الأرض جميعها من صورة واحدة أولية ، نفخ الخالق فيها نسمة الحياة [1]» :

إن داروين[2] لم يقل أبداً أن القردة هم أصل الإنسان ، أو أن القردة إذا ارتقوا صاروا بشراً . ولكن هذا الكلام مدسوس عليه وعلى جميع علماء التطور المخلصين . ولن يتجرأ أحد متمكن من دراسة التاريخ الجيولوجى للحياة أن يقول إن القردة هم أصل الإنسان الحديث لكن هذه ما هى إلا تعبيرات سطحية لمن لم يمعنوا النظر فى تاريخ الحياة :

---

(١) إسماعيل مظهر : مذهب النشوء والإرتقاء ، الكتاب الأول – الجزء الأول ص : ٤٧ .

(٢) دكتور جمال الدين الفندى وزميله : قصة السموات والأرض ، ص ١٠٢ – طبعة دار الشعب .

إن آدم خلق من طين أو تراب وذلك ما يؤيده الواقع ، ويقره العلم ، وتثبته التحاليل الكيماوية . فلو أننا أخذنا قبضة من تراب الأرض الخصبة ، وأجرينا عليها عمليات التحليل الكيماوية لوجدناها تتركب من ستة عشر عنصراً .

ولو أخذنا قطعة من جسم الإنسان وأجرينا عليها عمليات هذا التحليل لوجدناها كذلك تتركب من ستة عشر عنصراً ، هي نفس العناصر التي تتركب منها تربة الأرض .

وهذه العناصر هي ما يأتي ، مرتبة بحسب نسبة وجودها في جسم الإنسان :

الأكسجين ٦٣,٠٣٪ — الكربون ٢٠,٢٠٪ — الأيدروجين ٩,٩٠٪ — النتروجين ٢,٥ ٪ الكالسيوم ٢,٤٥٪ — الفسفور ١,٠١٪ الكلور ٠,٦٪ — الفلور ٠,١٤٪ — الكبريت ٠,١٤٪ — البوتاسيوم ٠,١١٪ — الصوديوم ٠,١٠ ٪ — المغنسيوم ٠,٠٧٪ — الحديد ٠,٠١٪ — وآثار ضئيلة من كل من اليود — والسليكون — والمنجنيز .

وتنتقل هذه العناصر من تربة الأرض إلى جسم الإنسان بما يتناوله المرء من الأطعمة والمأكولات . والأطعمة إما نباتية أو حيوانية .

فالنباتية مؤلفة من العناصر التي ذكرناها ، فلو أنك أخذت كمية من القمح — مثلا — وحللتها كيمائياً لوجدتها مؤلفة من العناصر المذكورة إذ النبات إنما يستمد غذاءه من تربة الأرض : أي من نفس هذه العناصر .

والأطعمة الحيوانية مؤلفة من العناصر التى تتألف منها الأطعمة النباتية ، إذ الحيوان يعتمد فى بناء جسمه على النبات .

وعندما يموت الإنسان والحيوان والنبات تبلى أجسامهم وتتحلل إلى عناصرها الأولى ، وتعود إلى الأرض . قال الله تعالى :

« مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى[1] »

قال الإمام الرازى[2] : « قال الطبائعيون أن بدن الإنسان مخلوق من المنى ومن دم الطمث : والمنى والدم جوهران حاران رطبان ، والحرارة إذا عملت فى الجسم الرطب قللت رطوبته وأفادته نوع يبس وهذا مشاهد معلوم . قالوا فلا يزال ما فى هذين الجوهرين من قوة الحرارة يقلل ما فيه من الرطوبة حتى تتصلب الأعضاء ، ويظهر فيه الانعقاد ويحدث العظم والغضروف والعصب والوتر والرباط وسائر الأعضاء ، فاذا تم تكون البدن وكمل فعند ذلك ينفصل الجنين من رحم الأم ، ومع ذلك فالرطوبات زائدة والدليل عليه أنك ترى أعضاء الطفل بعد انفصاله من الأم لينة لطيفة وعظامه لينة قريبة الطبع من الغضاريف ثم إن ما فى البدن من الحرارة يعمل فى تلك الرطوبات ويقللها . قالوا ويحصل للبدن ثلاثة أحوال :

الحالة الأولى : أن تكون رطوبة البدن زائدة على حرارته ، وحينئذ تكون الأعضاء قابلة للتمدد والإزدياد والنماء ، وذلك هو سن النشوء والنماء ونهايته إلى ثلاثين سنة أو خمسة وثلاثين سنة .

---

(١) سورة طه : ٥٥ .

(٢) الرازى : التفسير الكبير ، جـ ٥ ، ص ٣٣٢ .

الحالة الثانية : أن تصير رطوبات البدن أقل مما كانت فتكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية الأصلية إلا أنها لاتكون زائدة على هذا القدر وهذا هو سن الوقوف وسن الشباب وغايته خمس سنين وعند تمامه يتم الأربعون ؛

والحالة الثالثة : أن تقل الرطوبات وتصير بحيث لاتكون وافية بحفظ الحرارة الغريزية وعند ذلك يظهر النقصان . ثم إن هذا النقصان قد يكون خفياً وهو سن الكهولة وتمامه إلى ستين سنة ، وقد يكون ظاهراً وهو سن الشيخوخة وتمامه إلى مائة وعشرين سنة . فهذا هو الذى حصله الأطباء فى هذا الباب . وعندى أن هذا التعليل ضعيف ويدل على ضعفه وجوه ؛

الأول : أنا نقول إن فى أول ماكان المنى منياً ، وكان الدم ، وماكانت الرطوبات غالبة وكانت الحرارة الغريزية مغمورة وكانت ضعيفة بهذا السبب ثم إنها مع ضعفها قويت على تحليل أكثر تلك الرطوبات وأبانتها من حد الدموية والمنوية إلى أن صارت عظماً وغضروفاً وعصباً ورباطاً وعندما تولدت الأعضاء وكمل البدن ، قلت الرطوبات فوجب أن تكون للحرارة الغريزية قوة أزيد مما كانت قبل ذلك فوجب أن يكون تحليل الرطوبات بعد تولد البدن وكماله أزيد من تحللها قبل تولد البدن . ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك لأن قبل تولد البدن انتقل جسم المنى والدم إلى أن صار عظماً وعصباً وأما بعد تولد البدن فلم يحصل مثل هذا الإنتقال ولا عشر عشره ، فلوكان تولد هذه الأعضاء بسبب تأثير الحرارة فى الرطوبة لوجب أن

يكون تحلل الرطوبات بعد كمال البدن أكثر من تحللها قبل تكون البدن ، ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أن تولد البدن إنما كان بتدبير قادر حكيم يدبر أبدان الحيوانات على وفق مصالحها ؛ وأنه ماكان تولد البدن لأجل ماقالوه من تأثير الحرارة فى الرطوبة .

(والوجه الثانى فى أبطال هذا الكلام) : أن نقول إن الحرارة الغريزية الحاصلة فى بدن الإنسان الكامل إما أن تكون هى عين ماكان حاصلا فى جوهر النطفة ، أوصارت أزيد مما كانت والأول باطل لأن الحار الغريزى فى جوهر النطفة كان بمقدار جرم النطفة . ولاشك أن جرم النطفة كان قليلا صغيراً فهذا البدن بعد كبره لو لم يحصل فيه من الحرارة الغريزية إلا ذلك القدر كان فى غاية القلة ولم يظهر منه فى هذا البدن أثراً أصلا .

وأما الثانى : ففيه تسليم أن الحرارة الغريزية تتزايد بحسب تزايد الجثة والبدن ، وإذا تزايدت الحرارة الغريزية ساعة فساعة وثبت أن تزايدها يوجب تزايد القوة والصحة ساعة فساعة ، فوجب أن يبقى البدن الحيوانى أبداً فى التزايد والتكامل . وحيث لم يكن الأمر كذلك . علمنا أن ازدياد حال البدل الحيوانى وانتقاصه ليس بحسب الطبيعة بل بسبب تدبير الفاعل المختار .

(والوجه الثالث) : وهو الذى أوردناه على الأطباء فى كتابنا الكبير فى الطب ، فقلناهب أن الرطوبة الغريزية صارت معادلة للحرارة الغريزية فلم قلتم أن الحرارة الغريزية يجب أن تصير أقل مما كانت وأن ينتقل الإنسان من سن الشباب إلى سن النقصان . قالوا :

السبب فيه أنه إذا حصل هذا الاستواء فالحرارة الغريزية بعد ذلك تؤثر فى تخفيف الرطوبة الغريزية ، فتقل الرطوبات الغريزية حتى صارت بحيث لاتفى بحفظ الحرارة الغريزية ، وإذا حصلت هذه الحالة ضعفت الحرارة الغريزية أيضاً لأن الرطوبة الغريزية كالغذاء للحرارة الغريزية ، فاذا قل الغذاء ضعف المغتذى فالحاصل أن الحرارة الغريزية توجب قلة الرطوبة الغريزية ، وقلتها توجب ضعف الحرارة الغريزية ، ويلزم من ضعف أحداهما ضعف الأخرى إلى أن تنتهى إلى حيث لايبقى من الرطوبة الغريزية شىء وحينئذ تنطفىء الحرارة الغريزية ويحصل الموت . هذا منتهى ماقالوه فى هذا الباب ، وهو ضعيف لأنا نقول إن الحرارة الغريزية إذا أثرت فى تجفيف الرطوبة الغريزية وقلتها فلم لايجوز أن يقال أن القوة الغاذية تورد بدلها فعند هذا قالوا : القوة الغاذية إنما تقوى على إيراد بدلها لوكانت الحرارة الغريزية قوية ، فأما عند ضعفها فلا نقول فههنا لزم الدور لأن الرطوبة الغريزية إنما تقل وتنقص لولم تكن القوة الغاذية وافية بايراد بدلها وإنما تعجز القوة الغاذية عن هذا الإيراد إذا كانت الحرارة الغريزية ضعيفة . وإنما تكون الحرارة الغريزية ضعيفة لو قلت الرطوبة الغريزية . وإنما تحصل هذه القلة إذا عجزت الغاذية عن إيراد البدل فثبت أن على القول الذى قالوه يلزم الدور وأنه باطل فثبت أن تعليل انتقال الإنسان من سن إلى سن بما ذكروه من اعتبار الطبائع يوجب عليهم هذه المحاولات المذكورة ، فكان القول به باطلا ولما بطل هذا القول وجب القطع باسناد هذه الأحوال إلى الإله القادر المختار الحكيم الرحيم » .

والمنهى من هذا كله إلى قول واحد فى قصة خلق آدم ، فآدم مخلوق من طين ، أو من حمأ مسنون ، أو من طين لازب ، أو من سلالة من طين ، ، فهذا هو الذى يقوله القرآن فى خلق آدم . .

— ٢ —

أخبر الله تعالى ملائكته أنه سيخلق بشراً من طين وأمرهم إذا سواه ونفخ فيه من روحه أن يقعوا له ساجدين سجود تكريم ، وسجد الملائكة إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين وقال : أنا خير منه خلقتنى من نار ، وخلقته من طين ، فطرده الله من الجنة : فطلب من الله تعالى أن ينظره إلى يوم الدين ، وتوعد آدم الذى طرد بسببه من الجنة بأن يغوى ذريته ويفسدهم على الله وأن يسعى فى أن يجعل أكثرهم غير شاكرين لله إلا عباد الله المخلصين فوعده الله هو وكل من أطاعه من ذرية آدم بالنار .

إن جواب إبليس يتضمن ضروباً من الجهل الفاضح(١) :

الأول : الاعتراض على ربه وخالقه كما تضمنه جوابه ومثله فى هذا كل من يعترض على كلام الله تعالى لايوافق هواه ، وهذا كفر لايقع مثله من مؤمن بالله وبكتابه ، فان المؤمن إذا خفيت عليه حقيقة أوحكمة لله فى شىء من كلامه بحث عنها بالتفكر والبحث وسؤال العلماء وصبر إلى أن يهتدى إلى ما يطمئن به قلبه مكتفياً قبل ذلك بأن الله تعالى يعلم مالا يعلم من حقائق خلقه ، وحكم شرعه ، وفوائد أمره ونهيه .

(١) تفسير المنار : ج ٨ ، ص ٣٣٦ .

الثانى : الاحتجاج عليه بما يؤيد به اعتراضه والمؤمن المذعن لايحتج على ربه بل يعلم بأن لله الحجة البالغة .

الثالث : جعل امتثال أمر الرب تعالى مشروطاً باستحسان العبد له وموافقته لرأيه وهواه ، وهو رفض لطاعة الرب ، وترفع عن مرتبة العبد ، وتعال منه إلى وضع نفسه موضع الند ، وهو فى حكم الدين كفر وفى العقل حماقة وجهل ، فان الرئيس لأية حكومة أوجيش أوجمعية أوشركة إذا كان لايطيعه المرءوسون له إلا فيما يوافق أهواءهم وآراءهم لايلبث أمرهم أن يفسد بأن تختل الحكومة وتسقط ، وينكسر الجيش ويهلك ، وتنحل الشركة وتفلس ، وهكذا يقال فى كل مصلحة يقوم بادارتها كثرة ، يرجع نظامها إلى جهة واحدة . فاذا كان الصلاح والنظام فى كل أمر يتوقف على طاعة الرئيس وهو ليس رباً تجب طاعته لذاته ولالنعمه ، ولا معصوماً من الخطأ فيما يأمر به ، فما القول فى وجوب طاعة رب العالمين على عبيده ؟

روى أبو نعيم فى الحلية والديلمى عن جعفر الصادق عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس قال الله تعالى له : اسجد لآدم . فقال : أنا خير منه» قال جعفر فمن قاس أمر الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس .

الرابع : الاستدلال على الخيرية بالمادة التى كان منها التكوين ، وهذا جهل ظاهر من وجوه : (أحدها) أن خيرية المواد بعضها على بعض ليس من الحقائق التى يمكن إثباتها بالبرهان ، وإنما هى أمور

اعتبارية تختلف فيها الآراء والأهواء ، وأصول المخلوقات المختلفة التركيب عناصر بسيطة قليلة يرجح أنها متحولة عن أصل واحد كما يعلم من فن الكيمياء .

(ثانيها) : أن بعض الأشياء النفيسة أصلها خسيس فالمسك من الدم ، وجوهر الماس من الكربون الذى هو أصل الفحم ، والأقذار التى تعاف من مادة الطعام الذى يشتهى ويحب .

(ثالثها) : أن الملائكة خلقوا من النور ، وهو قد خلق من مارج من نار وهو اللهب المختلط بالدخان ، فما فوقه دخان وما تحته لهب صاف . فان مادة المرج معناها الخلط والاضطراب . ولاشك أن النور خير من النار . والنار الصافية خير من اللهب المختلط بالدخان ، وقد سجد الملائكة المخلوقون من النور امتثالا لأمر الله تعالى فكان هو أولى ، بل أولى أن يقال له : أولى لك فأولى .

الخامس : إذا سلمنا جدلا أن خيرية الشىء ليست فى ذاته وصفاته الخاصة التى تفصلها عن غيرها من مقومات نوعه ومشخصات نفسه وصفاته التى يمتاز بها عن غيره ، وإنما هى تابعة للمادة التى هى أصل جنسه ، فلا نسلم أن النار خير من الطين فان جميع الأحياء النباتية والحيوانية فى هذه الأرض مخلوقة من الطين بالذات أوبالواسطة وهى خير ما فيها بكل نوع من أنواع الإعتبارات التى تعرفها العقول ، وليست للنار أولمارجها مثل هذه المزايا ولاما يقرب منها .

السادس : أن إبليس غفل عما خص الله تعالى به آدم من خلقه بيده ، والنفخ فيه من روحه ، وجعل استعداده العلمى والعملى فوق

استعداد غيره من خلقه ، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له ، وجعله تلك المزايا أفضل من أولئك الملائكة ، وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة وبالطاعة » .

أخبر الله تعالى ملائكته أنه سيجعل آدم خليفة[1] فى الأرض فقالوا :

« أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ؟ » .

قال : « إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ » .

« وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ : أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين .

قَالُوا : سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ .

قَالَ : يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ .

فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ .....

قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتِمُونَ ؟ » .

---

(١) قال الراغب : الخلافة : النيابة عن الغير — إما لغيبة المنوب عنه ، وإما لموته ، وإما لعجزه ، وإما لتشريف المستخلف . وعلى هذا الوجه الأخير استخلف الله أولياءه فى الأرض . قال تعالى : « وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض » .. والخلائف : جمع خليفة . وخلفاء : جمع خليف .

للمفسرين فى «الخليفة» مذهبين[1] : ذهب بعضهم إلى أن اللفظ يشعر بأنه كان فى الأرض صنف أو أكثر من نوع الحيوان الناطق ، وأنه انقرض ، وأن هذا الصنف الذى أخبر الله الملائكة بأنه سيجعله خليفة فى الأرض سيحل محله ويخلفه ، كما قال بعد ذكر إهلاك القرون «ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم» . وقالوا إن ذلك الصنف البائد قد أفسد فى الأرض وسفك الدماء ، وأن الملائكة استنبطوا سؤالهم بالقياس عليه ، لأن الخليفة لابد أن يناسب من يخلفه ويكون من قبيله كما يتبادر إلى الفهم ، ولكن لما لم يكن دليل على أنه يكون مثله من كل وجه وليس ذلك من مقتضى الخلافة أجاب الملائكة بأنه يعلم مالايعلمون مما يمتاز به هذا الخليفة على من قبله ، وماله سبحانه فى ذلك من الحكمة البالغة .

(قال الأستاذ الإمام) وإذا صح هذا القول فليس آدم أول الصنف العاقل من الحيوان على هذه الأرض وإنما كان أول طائفة جديدة من الحيوان الناطق تماثل الطائفة أو الطوائف البائدة منه فى الذات والمادة ، وتخالفها فى بعض الأخلاق والسجايا .

أما المذهب الثانى : أن المراد هو إنى جاعل فى الأرض خليفة عنى ولهذا شاع أن الإنسان خليفة الله فى أرضه ، قال تعالى :

« يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ » .

والظاهر والله أعلم أن المراد بالخليفة آدم ومجموع ذريته : ولكن ما معنى

---

(١) تفسير المنار : ج ١ ، ص : ٢٥٧ .

هذه الخلافة ؟ وما المراد من هذا الاستخلاف ؟ هل هو استخلاف بعض الإنسان على بعض ، أم استخلاف النوع على غيره ؟ جرت سنة الله في خلقه بأن تعلم أحكامه للناس وتنفذ فيهم على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه فى ذلك وكما أن الإنسان أظهر أحكام الله وسننه الوضعية (أى غير الشرعية لأن الشرع وضع إلهى) كذلك أظهر حكمه وسنة الخلقة الطبيعية فيصح أن يكون معنى الخلافة عاماً فى كل ما ميز الله به الإنسان على سائر المخلوقات : نطق الوحى ودل العيان والإختبار على أن الله تعالى تعالى خلق العالم أنواعاً مختلفة ، وخص كل نوع غير نوع الإنسان بشىء محدود معين لايتعداه ، فأما مالا نعرفه إلا من طريق الوحى كالملائكة فقد ورد فى الآيات والأحاديث مايدل على أن وظائفه محدودة قال تعالى : « يسبحون الليل والنهار لايفترون » وإنا لنحن الصافون ، وإنا لنحن المسبحون . والصافات صفاً . فالسابقات سبقا ، فالمدبرات أمراً » على قول من قال إن المراد بها الملائكة إلى غير ذلك مما يدل على أنهم طوائف لكل طائفة وظيفة محدودة ، وورد فى الأحاديث أن منهم الساجد دائماً والراكع دائماً إلى يوم القيامة .

وأما ما نعرفه بالنظر والإختبار فهو حال المعدن والجماد ولاعلم له ولاعمل ، وحال النبات وإنما تأثير حياته فى نفسه فلو فرض أن له علماً وإرادة فهما لاأثر لهما فى جعل عمل النبات مبيناً لحكم الله وسننه فى الخلق ، ولاوسيلة لبيان أحكامه وتنفيذها ، فكل حى من الأحياء المحسوسة والغيبية فان له استعداداً محدوداً ، وعلماً إلهامياً محدوداً ،

وعملا محدوداً ، وماكان كذلك لايصلح أن يكون خليفة عن الذى لاحد لعلمه وإرادته ، ولاحصر لإحكامه وسننه ، ولانهاية لأعماله وتصرفه ،

وأما الإنسان فقد خلقه الله ضعيفا كما قال فى كتابه :

« وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا » وخلقه جاهلًا كما قال : « وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا » .

ولكنه على ضعفه وجهله عبرة لمن يعتبر ، وموضع لعجب المتعجب ، لأنه مع ضعفه يتصرف فى الأقوياء ، ومع جهله فى نشأته يعلم جميع الأسماء . يولد الحيوان عالماً بالهام ما ينفعه وما يضره ، وتكمل له قواه فى زمن قليل ويولد الإنسان وليس له من الإلهام إلا الصراخ والبكاء ، ثم يحس ويشعر بالتدريج البطىء بالنسبة إلى غيره من الحيوان ويعطى قوة أخرى تتصرف بشعوره وإحساسه تصرفاً يكون له به السلطان على هذه الكائنات فيسخرها ويذللها بعد ذلك كما تشاء تلك القوة الغريبة التى يسمونها العقل ولايعقلون سرها ، ولايدركون حقيقتها وكنهها ، فهى التى تغنى الإنسان عن كل ما وهب للحيوان فى أصل الفطرة من الكساء الذى يقيه البرد والحر ، والأعضاء التى يتناول بها غذاءه والتى يدافع بها عن نفسه ويسطو بها على عدوه ، وغير ذلك من المواهب التى يعطاها الحيوان بلاكسب حتى كان له بها من الاختراعات العجيبة ماكان ، وسيكون له من ذلك مالايصل إليه

التقدير والحسبان . فالإنسان بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولامحدود الرغائب ولامحدود العلم ولامحدود العمل ، فهو على ضعف أفراده يتصرف بمجموعه فى الكون تصرفاً لاحد له بإذن الله وتصريفه ، وكما أعطاه الله تعالى هذه المواهب والأحكام الطبيعية ليظهر بها أسرار خليقته ، وملكه الأرض وسخر له عوالمها — أعطاه أحكاماً وشرائع حد فيها لأعماله وأخلاقه حداً يحول دون بغى أفراده وطوائفه بعضهم على بعض ، فهى تساعده على بلوغ كماله لأنها مرشد ومرب للعقل الذى كان له كل تلك المزايا فلهذا كله جعله خليفته فى الأرض وهو أخلق المخلوقات بهذه الخلافة .

— ٣ —

أمر الله آدم أن يسكن الجنة بعد أن خلق له حواء يسكن إليها ، وأباح لهما كل شىء فى الجنة إلا شجرة عينها لهما بيد أن إبليس وسوس لهما بالأكل منها وأغراهما بكل أنواع المغريات . وقال لهما : إن ربكما لم ينهكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أوتكونا من الخالدين ؛

وقال لآدم : هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى؟ « وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين» ولم يزل يمنيه معسول الأمانى حتى نسى آدم أنه عدوه وأن الله حذره منه أشد الحذر بقوله : « إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى» فأكل آدم وحواء من الشجرة « بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » ليسترا عورتيهما ويجعلان ورق الشجر على هيئة الثوب الساترة وعاتب الله آدم على مخالفته أمره والأكل من الشجرة فندم آدم وأخذ يعتذر

فطرده هو وحواء من الجنة وطرد إبليس قائلا : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » ؛ « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » ؛ وهداه واجتباه وبقى فى الأرض هو وبنوه الذين أتى بهم من حواء .

جاء فى التوراة(١) : وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فى جنة عدن ليعملها ويحفظها . وأوصى الرب الإله آدم قائلا : من جميع شجر الجنة تأكل أكلا . وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها . لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت .. وبعد أن تحدثت التوراة عن خلق حواء .. قالت(٢) : وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله . فقالت للمرأة : أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة . فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا . فقالت الحية للمرأة لن تموتا . بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر . فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر . فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل . فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان ، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر . وسمعا صوت الرب الإله ماشياً فى الجنة عند هبوب ريح النهار . فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة. فنادى الرب الإله آدم

(١) تكوين ، الاصحاح الثانى ، ١٥ – ٢٥ .
(٢) تكوين ، الإصحاح الثالث : ١ – ١٩ .

وقال له : أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فإختبأت . فقال : من أعلمك أنك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك أن لاتأكل منها ؟ فقال آدم : المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت . فقال الرب الإله للمرأة : ما هذا الذى فعلت . فقالت المرأة : الحية غرتنى فأكلت . فقال الرب الإله للحية : لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ؛ على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها . هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه . وقال للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حبلك : بالوجع تلدين أولاداً ، وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك ، وقال لآدم : لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا لاتأكل منها ملعونة الأرض بسببك ؛ بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ، وشوكاً وحسكاً تنبت لك وتأكل عشب الحقل ، بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها ، لأنك تراب وإلى تراب تعود » .

أكل آدم من الشجرة ولم يمت يوم أكلها — كما جاء فى التوراة — والقرآن(١) المجيد قد علل النهى بأنه يترتب على مخالفته أن يكونا من الظالمين لأنفسهما أى بفعلهما ما يعاقبان عليه ولو بالحرمان من ذلك الرغد من العيش وما يعقبه من التعب فى المعيشة .

فلما ذاق آدم وحواء ثمر الشجرة ظهرت لكل منهما سوأته

(١) تفسير المنار ، ج ٨ ، ص ٤٣٧ — ٣٥٠ .

وسوأة صاحبه وكانت مواراة عنهما ، قيل بلباس من الظفر كان يسترهما فسقط عنهما ، وبقيت له بقية فى رءوس أصابعهما ، وقيل بلباس مجهول كان الله تعالى ألبسهما إياه ، وقيل بنور كان يحجبهما ولا دليل على شيء من ذلك . والأقرب عندى أن ظهورها لهما أن شهوة التناسل دبت فيهما بتأثير الأكل من الشجرة فنبهتهما إلى ماكان خفياً عنهما من أمرها ، فخجلا من ظهورها ، وشعراً بالحاجة إلى سترها ، وشرعاً يخصفان أى يلزقان أويضعان ويربطان على أبدانهما من ورق أشجار الجنة العريض ما يسترها . فالمواراة كانت معنوية ، فلو كانت حسية فما ثم إلا الشعر ساتر خلقى ، وقد تظهر الشهوة ما أخفاه الشعر ، وإن لم يسقط بتأثير ذلك الأكل ، ويدل على كل من هذين الوجهين فطرة الإنسان التى نزلت الآيات فى شرح حقيقتها وغرائزها . قال الله تعالى :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيس لَمْ يَكُنْ مِن السَّاجِدِين . قَال ما مَنَعكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَال أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِى مِنْ نَارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ . قَال فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّر فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِن الصَّاغِرِين . قَال أَنْظِرْنِى إِلَى يوْمِ يُبْعَثُونَ . قَال إِنَّكَ مِن الْمُنْظَرِين . قَال فَبِما أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدنَّ لَهُمْ صِراطَكَ الْمُسْتَقِيم . ثُمَّ لَآتِينَّهُمْ مِنْ بيْن أَيْدِيهِمْ ومِنْ خَلْفِهِمْ وعنْ أَيْمانِهِمْ وعنْ شَمائِلِهِمْ ولَا تَجِدُ أَكْثَرهُمْ شَاكِرِين . قَال اخْرُجْ مِنْها

مذْمُومًا مدْحُورًا لَمن تَبِعكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جهنَّم مِنْكُمْ أَجْمعِين . ويا آدمُ اسْكُنْ أَنْتَ وزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حيْثُ شِئْتُما ولَا تَقْربا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا لَمِن الظَّالِمِين . فَوسْوس لَهُما الشيْطَانُ لِيُبْدِى لَهُما ما وُورِى عنْهُما مِنْ سوْءاتِها وقَال ما نَهاكُما ربُّكما عنْ هٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا ملَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِن الْخَالِدِين . وقَاسمهُما إِنِّى لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِين . فَدلَّاهُما بِغرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بدتْ لَهُمَا سوْءاتُهُما وطَفِقَا يخْصِفَان علَيْهِما مِنْ ورق الْجَنَّةِ ، ونَاداهُما ربُّهُما أَلَمْ أَنْهكُما عنْ تِلْكُما الشَّجَرَةِ وأَقُلْ لَكما إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُما عدُوٌّ مُبِين . قَالَا ربَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسنا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحمْنَا لَنَكُونَنَّ مِن الْخَاسِرِين . قَال اهْبِطوا بعْضكمْ لِبعْض عدُوٌّ ولَكُمْ فِى الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ ومتَاعٌ إِلَى حِينٍ . قَال فِيها تَحْيَونَ وفِيها تَمُوتُونَ ومِنْها تُخْرجُونَ . يابنِى آدم قَدْ أَنْزَلْنَا علَيْكُمْ لِباسًا يُوارِى سَوْءاتِكمْ وريشا ، ولِبَاسُ التَّقْوَى ذٰلِك خيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ . يَابَنِى آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءاتِهِمَا . إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ . إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِين أَوْلِيَاءَ لِلَّذِين لَا يُؤْمِنونَ[1] » .

---

(١) سورة الأعراف : ١١ — ٢٧ .

يقول العقاد : لا يخفى[1] على الناظر فى القصة أن ثمرات هذه الشجرة هى ثمرات « التكليف » بجميع لوازمه ونتائجه ، وما كان الفارق بين آدم قبل الأكل منها وبعد الأكل منها إلا الفارق بين الحياة فى دعة وبراءة والحياة المكلفة التى لاتخلو من المشقة والشقاق والإمتحان بالفتنة ومعالجة النقائص والعيوب .

ومن تمام التوكيد لحدود التكليف فى هذه القصة أن خطاب آدم به لا يغنى عن خطاب بنيه وأعقابه ، فهو مكلف وهم مكلفون ، وخطيئته لا تلزمهم وتوبته لا تغنى عنهم ، ومولدهم منه يخرجهم على سنة الأحياء المولودين حيث يحيون وحيث يكدحون ويموتون .

يقول الفيلسوف محمد إقبال : إننا نجد قصة هبوط آدم من الجنة فى آداب العالم القديم على صور مختلفة . ومن المستحيل حقاً أن نحدد مراحل نموها . وأن نرسم فى وضوح البواعث الإنسانية المختلفة التى لا بد أن تكون قد أثرت فى تحديدها البطئ . ولكنا إذا قصرنا بحثنا على صورة القصة كما جاءت عند الساميين فان المرجح جداً أنها نشأت عن رغبة الإنسان البدائى فى أن يفسر لنفسه تعاسته البالغة وسوء حاله فى بيئة غير مواتية له ، تفيض بالمرض والموت ، وتعوقه من كل ناحية فى سعيه لاستبقاء حياته . ولما لم يكن للإنسان أى سلطان على قوى الطبيعة ، فان نظره إلى الحياة نظرة متشائمة كان طبيعياً ، وعلى هذا نجد فى نقش بابلى ثعباناً « رمز عضو التذكير » وشجرة ، وإمرأة تقدم إلى رجل تفاحة (رمز البكارة) . ومعنى هذه الأسطورة واضح

---

(١) عباس محمود العقاد : كتاب « إبليس » ص : ١٤٣ .

هو أن سقوط الرجل من حال مفترضة من حالات السعادة كان سببه الإختلاط الجنسي بين الرجل والمرأة لأول مرة .

ويتضح لنا أسلوب القرآن فى عرض هذه القصة عندما نقرنه بما ورد فى سفر التكوين . ونقط الخلاف الظاهرة بين رواية القرآن ورواية التوراة تشير إلى غرض القرآن إشارة لا تقبل الخطأ .

١ — فالقرآن يسقط من روايته إسقاطاً تاماً ذكر الحية ، وحكاية خلق حواء من ضلع من ضلوع آدم . وحذف حكاية الحية تجريد للقصة من طابعها الجنسى ومما توحى به أصلا من نظر إلى الحياة نظر متشائمة وحذف حكاية الضلع يقصد به الإشارة إلى أن غرض القرآن من رواية القصة ليس السرد التاريخى ، كما هو الحال فى كتاب العهد القديم الذى يعطينا وصفاً لأصل الرجل والمرأة تمهيداً لبيان تاريخ إسرائيل . نعم ورد فى آيات القرآن التى تتحدث عن أصل الأنسان بوصفه كائناً حيا ، لفظ « بشر » أو « إنسان » لا لفظ آدم ، الذى احتفظ به للإنسان من حيث هو خليفة الله فى الأرض . ويزداد غرض القرآن تحققاً بحذفه أسماء الأعلام مثل آدم وحواء الذين ورد ذكرهما فى رواية التوراة ، واستبقاء القرآن للفظ آدم ، واستعماله له إنما هو للدلالة على معنى أكثر مما هو للدلالة على إسم فرد معين من البشر . واستعمال اللفظ على هذا الوجه لا يعوزه الدليل من القرآن نفسه ، فالآية الآتية واضحة تماماً فى هذا المعنى :

« وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ[1] » .

(١) سورة الأعراف : ١١ .

٢ — يقسم القرآن القصة إلى حادثتين متمايزتين : إحداهما تتعلق بما يصفة بالشجرة فقط ، والأخرى خاصة بشجرة الخلد وملك لا يبلى .

وردت الأولى فى سورة الأعراف[1] ، والثانية فى سورة طه[2] . وآيات القرآن تحدثنا أن آدم وزوجته أزلهما الشيطان الذى يوسوس فى صدور الناس . فذاقا من ثمار الشجرتين كلتيهما ، على حين تقوم رواية العهد القديم على أن الإنسان طرد من جنة عدن فور عصيانه الأول ، وأن الله أقام فى الجانب الشرقى ملائكة وسيفاً من لهب يتحرك فى جميع الجهات لحراسة طريق شجرة الحياة .

٣ — يلعن العهد القديم الأرض لعصيان آدم . أما القرآن فيجعل الأرض مستقراً ومتاعاً للإنسان ينبغى أن يشكر الله عليه . « ولقد مكناكم فى الأرض ، وجعلنا لكم فيها معايش ، قليلا ما تشكرون » [3].

إن قصة هبوط آدم كما جاءت فى القرآن لا صلة لها بظهور الإنسان الأول على هذا الكوكب ، وإنما أريد بها بالأحرى بيان ارتقاء الإنسان من بدائية الشهوة الغريزية إلى الشعور بأن له نفساً حرة قادرة على الشك والعصيان ، وليس يعنى الهبوط أى فساد أخلاقى ، بل هو انتقال الإنسان من الشعور البسيط إلى ظهور أول بارقة مو بوارق الشعور بالنفس وهو نوع من اليقظة من حلم الطبيعة أحدثتها خفقة من الشعور

---

(١) سورة الأعراف : ٢٠ (وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة ...) .
(٢) سورة طه : ١٢٠ (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) .
(٣) سورة الأعراف : ١٠ .

بأن للإنسان صلة علية شخصية بوجوده . هذا إلى أن القرآن لا يعتبر الأرض ساحة للعذاب سجنت فيه إنسانية شريرة العنصر بسبب إرتكابها خطيئة أصلية .

فالمعصية الأولى للإنسان كانت أول فعل له تتمثل فيه حرية الإختيار ، ولهذا تاب الله على آدم ، كما جاء فى القرآن وغفر له ؛ وعمل الخير لا يمكن أن يكون قسرا : بل هو خضوع عن طواعية للمثل الأخلاقى الأعلى خضوعاً ينشأ عن تعاون الذات الحرة المختارة عن رغبة ورضى . والكائن الذى قدرت عليه حركاته كلها كما قدرت حركات الآلة لا يقدر على فعل الخير . وعلى هذا فان الحرية شرط فى عمل الخير . ولكن السماح بظهور ذات متناهية لها القدرة على أن تختار ما تفعل بعد تقرير القيم النسبية للأفعال الممكنة لها هو فى الحق مغامرة كبرى ، لأن حريه إختبار عكسه . وكون المشيئة الإلهية إقتضت ذلك دليل على ما لله من ثقة فى الإنسان . ولقد بقى على الإنسان أن يبرهن على أنه أهل الثقة . وربما كانت مغامرة كهذه هى وحدها التى تيسر الإبتلاء والتنمية للقوى الممكنة لوجود خلق على « أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين(١) » . وكما يقول القرآن :

«ونبلوكم بالشر والخير فتنة»(٢) . فالشر والخير إذن كانا متضادين يجب أن يكون كلاهما جزءا من نفس الكل . وليست هناك حقيقة

(١) سورة التين : ٤ — ٥ .
(٢) سورة الأنبياء : ٣٥ .

منعزلة عن غيرها ، لأن الحقائق أمور كلية يجب أن تفهم عناصرها بما بينها من نسب وإضافات .

والحكم المنطقى إنما يفرق بين عناصر الحقيقة الواحدة لكى يكشف عن توقف كل منها على الآخر وفضلا عن هذا فان طبيعة النفس هى أن تبقى على ذاتها من حيث هى نفس ، وبسبب هذا تنشد المعرفة ، والتكاثر ، والقوة أو كما جاء فى القرآن تسعى وراء « ملك لا يبلى » .

والحادثة الأولى فى رواية القرآن للقصة تتعلق برغبة الإنسان فى المعرفة و الثانية تتعلق برغبته فى التكاثر والقوة .

وفيما يتصل بالحادثة الأولى لا بد من إيضاح أمرين :

الأول هو أنها ذكرت مباشرة بعد الآيات التى وصفت تفوق آدم على الملائكة فى معرفة أسماء الأشياء وإعادة ذكرها . والمقصود من هذه الآيات — كما بينت — بيان أن المقصود طبيعة المعرفة الإنسانية .

وفيما يتعلق بالأمر الثانى تحدثنا مدام بالفاتسكى التى كانت على حظ كبير من العلم بالرمزية القديمة فتقول فى كتابها « المذهب السرى » : إن الشجرة كانت عند القدماء رمزاً خفياً على علم الغيب . وواضح أن آدم حرم عليه أن يذوق ثمر هذه الشجرة ، لأنه تناهيه من حيث هو نفس ولأن عتاده الحسى ، وقواه العاقلة — كل ذلك كان ، بصفة عامة ، مهيئاً لنوع آخر من أنواع المعرفة ، هو النوع الذى يقتضى الكد فى معاناة الملاحظة ، ولا يقوى إلا على التجمع البطئ .

ولكن الشيطان أغوى آدم على أن يأكل الثمرة المحرمة من شجرة المعرفة وانقاد له آدم ، لا لأن الشر كان متأصلا فى نفسه ، ولكن لأنه كان عجولا بطبعه أراد أن يحصل المعرفة عن أقرب طريق . وكان السبيل الوحيد لتقويم

هذا الميل فيه أن يوضع فى بيئة، مهما تكن مؤلمة له، فانها كانت أكثر ملاءمة لإبراز قواه العاقلة . وعلى هذا فان إدخال آدم فى بيئة مادية مؤلمة له لم يكن القصد منه عقابه ، بل كان المراد به بالأحرى القضاء على صد الشيطان الذى احتال — بسبب عداوته للإنسان — بلين القول على أن يبقيه جاهلا للنعيم الذى ينشأ عن النمو والإمتداد الخالدين . ولكن بقاء ذات متناهية فى بيئة كنود يتوقف على التزايد المستمر للمعرفة القائمة على التجربة الواقعة . وتجارب هذه الذات المتناهية التى تنفسح أمامها إمكانيات عدة . إنما تزداد وتتسع ، بطريق المحاولة والخطأ ؛ وعلى هذا فان الخطأ الذى قد يوصف بأنه نوع من الشر العقلى عامل لا محيص عنه فى بناء التجربة .

ويروى القرآن الحادثة الثانية فى قصة الهبوط من الجنة على النحو التالى :

« فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ : يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى . فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى[1] » .

فالفكرة الأساسية هنا تشير إلى رغبة الحياة رغبة لا تقاوم فى الحصول على ملك لا يبلى ، وفى حصول الإنسان على ملك لا نهائى من حيث هو فرد ذو وجود متحقق . ولكن لما كان الإنسان كائناً

(١) سورة طه ١٢٠ — ١٢٢ .

فانياً يخشى انقضاء سيرته بموته ، لم يكن أمامه من سبيل إلا أن يحقق نوعاً من الخلود الجماعى بالتكاثر والتوالد .

وأكل الثمرة المحرمة من شجرة الخلد كان الوسيلة التى لجأ إليها للتمييز بين الذكر والأنثى ، وهو التمييز الذى به يتكاثر لكى ينجو من الفناء الكلى . كما لو كانت الحياة تقول للموت كلما أكتسحت جيلا من الأحياء ، أخرجت جيلا آخر .

القرآن يستبعد الرمز لعضو التذكير الذى جاء فى العهد القديم ، ولكنه يشير إلى أول اختلاط جنسى بما اعترى آدم من الخجل الذى يبدو فى حرصه على ستر عريه .

وبعد ، فان الحياة معناها أن يكون للإنسان شكل معين ، وفردية متحققة الوجود فى الخارج ، وهذه الفردية المتحققة ، مشاهدة فيما لايحصى من مختلف الصور الحية — وهى التى يتكشف فيها مالله من وجود غير متناه . على أن ظهور الفرديات وتكاثرها ، وكل منها جاعل نصب عينيه الكشف عن إمكانياته هو ، باحث عن أسباب ملكه (دائرة اختصاصه) ، لابد من أن يعقب الكفاح المرير بين الناس . يقول القرآن (قال اهبطوا بعضكم لبعض) . وهذا الصراع المتبادل بين الأفراد المتعارضين هو مصدر ألم الدنيا الذى يبعث فى الحياة الفانية النور والظلمة كليهما ، وفى الإنسان الذى تتعمق فرديته فتصبح شخصية . يهيء له إمكان ارتكاب الشر ، يصبح الشعور بمأساة الحياة عنده أكثر حدة وشدة . على أن رضى الإنسان بوحدة الشخصية بوصفها صورة من صور الحياة ، يتضمن الرضى بجميع العيوب التى تنشأ عن تناهيها ، ويصف القرآن الإنسان بأنه أخذ

على عاتقه عبء الأمانة التى أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها[1] فيقول :

«إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا[2] ».

والمقصود بالأمانة هنا التكاليف . قال الإمام الفخر الرازى : « إنا عرضنا الأمانة أى التكليف وهو الأمر بخلاف ما فى الطبيعة ، واعلم أن هذا النوع من التكاليف ليس فى السموات ولا فى الأرض لأن الأرض والجبل والسموات كلها على ماخلقت عليه : الجبل لايطلب منه السير ، والأرض لايطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ، ولا من الملائكة ، لأن الملائكة وإن كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالأكل والشرب لنا فيسبحون الليل والنهار لايفترون كما يشتغل الإنسان بأمر موافق لطبعه » .

قال الإمام الرازى فى تفسير حمل الأمانة : « لم يكن أباؤهن كأباء إبليس فى قوله تعالى : « أبى أن يكون مع الساجدين » من وجهين أحدهما أن هناك السجود كان فرضاً ، وها هنا الأمانة كانت عرضاً ، وثانيهما أن الأباء كان هناك استكباراً وها هنا استصغاراً : أستصغرن أنفسهن ، بدليل قوله : « وأشفقن منها » .

وقال بعضهم فى تفسير الآية أن المخلوق على قسمين : مدرك وغير مدرك ، والمدرك منه من يدرك الكلى والجزئى مثل الآدمى ، ومنه من

---

(١) الدكتور محمد إسماعيل الندوى : نظرات جديدة فى شعر إقبال ، ص ١٣٣–١٤٠

(٢) سورة الأحزاب : ٧٢ .

يدرك الجزئى كالبهائم تدرك الشعير الذى تأكله ولاتفكر فى عواقب الأمور ولاتنظر فى الدلائل والبراهين ، ومنه من يدرك الكلى ولا يدرك الجزئى كالملك يدرك الكليات ولايدرك لذة الجماع والأكل .
قالوا : وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله : « ثم عرضهم على الملائكة فقال : « انبئونى بأسماء هؤلاء » فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات ، والتكليف لم يكن إلا على مدرك الأمرين . إذ له لذات بأمور جزئية فمنع منها لتحصيل لذات حقيقية هى مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته . وأما غيره فان كان مكلفاً يكون مكلفاً لا بمعنى الأمر بما فيه عليهم كلفة ومشقة ، بل بمعنى الخطاب . فان المخاطب يسمى مكلفاً كما أن المخاطب مكلف» . .

وقال الإمام ابن كثير : « ... عن ابن عباس : يعنى بالأمانة الطاعة ، عرضها قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقها ، فقال لآدم : إنى قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها . . . فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يارب . وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فتحملها » .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : الأمانة الفرائض ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، إن أدوها أثابهم وإن ضيعوها عذبهم . فكرهوا ذلك وأشفقوا من غير معصية ، ولكن تعظيماً لدين الله ألايقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها .

وأورد ابن كثير أقوالا أخرى مروية بأسماء أصحابها ، وعقب عليها قائلا : إنها كلها ... لا اختلاف بينها ، بل هى متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهى بشرطها .

وقال الإمام محمد جمال الدين القاسمي : « ... عبر عنها بالأمانة تنبيهاً إلى أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين ، وائتمنهم عليها ، وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد ، وأمرهم بمراعاتها والمحافظة عليها وأدائها من غير اخلال بشيء من حقوقها ، ومعنى الآية : أن تلك الأمانة من عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام — التي هي مثل في القوة والشدة — مراعاتها ، وكانت ذات شعور وإدراك ، لأبين قبولها وأشفقن منها . . أما قوله تعالى : وحملها الإنسان أي عند عرضها عليه ، أما باعتبارها بالإضافة إلى استعداده ، أو بتكليفه إياها يوم الميثاق — أي تكلفها والتزمها مع ما فيه من ضعف البنية ورخاوة القوة ، وهو إما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى ، أو من اعترافه بقوله : بلى . . وقوله تعالى : « إنه كان ظلوماً جهولا » اعتراض وسط بين الجمل وغايته للإيذان من أول الأمر بعدم وفائه بما عهده وتحمله ، أي أنه كان مفرطاً في الظلم مبالغاً في الجهل ، أي بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السليمة . . »

لقد عرضت الطاعة والقيام بأعباء التكليف على السموات والأرض والجبال ، فاستعفين من حملها وخفن من تبعاتها ، وحملها الإنسان بما منحه الله من القوة الأدبية للوفاء بها إنه كان كثير الظلم والجهل إذ لم يف بحقوقها ، ولم يقم بواجباتها . ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيما .

الفصل الثانى

روح وجسد

الروح والجسد فى القرآن المجيد ملاك الذات الإنسانية[1]، تتم بهما الحياة ولاتتنكر إحداهما فى سبيل الآخر ، فلا يجوز للإنسان أن يبخس للجسد حقاً ليوفى حقوق الروح ، ولايجوز له أن يبخس للروح حقاً ليوفى حقوق الجسد . فان الإسلام اهتم بالجسد قدر اهتمامه بالروح تحقيقاً لهدف خلق الإنسان .

قال تعالى :

« يَاأَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ ، الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ[2] » .

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ[3] » .

وفى أحسن صورة :

« وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ[4] » .

ووجه القرآن نظر الإنسان إلى ضرورة اهتمامه بجسده والمحافظة عليه . قال تعالى : « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » .

---

(١) العقاد : الأنسان فى القرآن الكريم : ص ٣١ (٢) سورة الانفطار : ٧٦ .
(٣) سورة التين : ٤ . (٤) سورة غافر : ٦٤ .

وينهى القرآن الإنسان عن قتل نفسه أوقتل غيره .. والقتل هلاك للجسم شأنه شأن الموت .. أما الروح فانها باقية . . قال تعالى :

« وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا(١) » .

« وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ(٢) » .

كما دعت آيات القرآن المجيد الإنسان إلى أن يتزود روحياً بالتقوى يقول الزمخشرى فى الكشاف عند تفسير :

« الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ . هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » .

إن المتقى فى اللغة اسم فاعل من قولهم وقاه فاتقى والوقاية فرط الصيانة ، والمتقى فى الشريعة الذى يقى نفسه تعاطى ما يستحق به العقوبة من فعل أو ترك . المتقى لايطلق إلا عن خبرة ، ولايجوز اطلاق العدل إلا على الخبير .

التقوى معنى إيجابى ، إنه الحفظ والصيانة والوقاية التى تنشأ ثمرة الأعمال الصالحة ، فتكون بذلك رداء يقى المرء السوء ويحصنه من الشقاء فى الدنيا والعذاب فى الآخرة .

ودعت آيات القرآن الإنسان إلى أن يهتم بزاد جسمه . قال تعالى :

« كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ(٣) »

---

(١) سورة النساء : ٢٩ .   (٢) سورة الأنعام : ١٥١ .
(٣) سورة البقرة : ٦٠ .

ونهى القرآن الإنسان عن الإسراف فى الأكل والشرب . قال تعالى :
« وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا[١] » .

وقد تبين بعد أن تقدم العلم أن القرآن يستهدف من هذه الآية المحافظة على الجسم وسلامته . ولنفس الهدف حرم القرآن على الإنسان أن يأكل ما قد يصاب من جراء تناوله بأمراض خطيرة ، كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ولحوم المواشى المصابة بجروح أو المخنوقة . قال تعالى :

« حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ، وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ[٢] » .

« والميتة[٣] هنا هى الحيوان غير المذبوح الذى يموت من تلقاء نفسه بأى مرض من الأمراض ، أو بالشيخوخة أو بحادثة من الحوادث كالخنق والوأد والتردى وغيرها وبعد الوفاة بفترة قصيرة تبدأ عملية التعفن وتتكاثر أول الأمر الجراثيم غير الهوائية التى توجد طبيعية فى أمعاء الحيوان فتغزو الجسم عن طريق الأغشية والأوعية الدموية والليمفاوية . ومن المواد التى تنتج من التعفن ما هو سام فى مفعوله .

وقد حرمت الأمم « المتمدينة » أكل هذه اللحوم ولهذا الغرض أنشئت السلخانات وذلك لما تنقله من أمراض قد تكون هى السبب فى

---

(١) سورة الأعراف : ٣١ .
(٢) سورة المائدة : ٣ .
(٣) محمد منير شهوان : الإسلام يدعو إلى العلم ، ص ٤٦ .

وفاة الحيوان أولما تحدثه من حالات التسمم الغذائى Food Poisoning الذى ينتج من مخلفات عملية التعفن Putre Aaction ومن الأمراض الكثيرة الفتاكة التى لا يتسع المجال لتفصيلها مرض السل وهو كثير الانتشار وينتقل إلى الإنسان من جراء تناول اللحوم الميتة فى أغلب الأحيان .

« من المقرر طبياً أن الدم هو أصلح الأوساط لنوشئى الجراثيم كما أنه أيضاً يحمل مخلفات الجسم الذى تنتج عن الفعل الهدمى Catabolion فى الأنسجة المختلفة ويحتوى الدم إلى جانب ذلك على الكثير من المواد السامة التى يعمل الكبد على تخليص الجسم منها .

« الخنزير هو العائل الوسيط لدودة التينياسوليم وهى تنتقل إلى الإنسان بأكل لحم الخنزير وهذه الدودة من أشد الديدان فتكاً بالإنسان

وينقل الخنزير أيضاً مرض التريخينا ولا يمكن الكشف عنه إلا إذا فحصت جميع ألياف عضلات الخنزير قطعة قطعة بواسطة المجهر وهذا طبعاً أمر غير ممكن . كما ينقل الخنزير عن طريق تناول لحمه مرض الباراتيفويد وغير ذلك من الأمراض الكثيرة الفتاكة . . »

وحرم القرآن شرب الخمر . قال تعالى :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ : فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا » .

كشف العلم النقاب عن الكثير من الأضرار التى لحقت وما زالت تلحق بالبشرية ، من جراء تناول الخمر ، وكان تحريم الخمر فى القرآن ليس فقط معجزة فى الطب بل أيضاً معجزة فى علم الإجتماع ومعجزة فى علم النفس .

لقد أثبت الطب أن خلايا الكبد الحية تتحول إلى ألياف ميتة لافائدة للجسم منها فيؤدى ذلك إلى استسقاء فى البطن يورد المريض فى النهاية موارد الهلاك والفناء . كما يؤدى أدمان الخمر إلى تصلب الشرايين وما يتبع ذلك من أمراض القلب والكلى والنزيف المخى ، كما يؤثر على الجهاز العصبى تأثيراً بالغاً إذ يزول حكم المخ على الأشياء زوالاً تدريجياً فينتقل الشخص من المرتبة الإنسانية إلى حضيض البهيمية . وإذا استمر الإدمان ضعفت المدارك الحسية والعقلية إلى أن يصل إلى دور الجنون أو الشلل .

ويكفى أن العلم قد كشف النقاب عن قتل الخمر للعواطف الإنسانية السامية كالحنان والعطف والأبوة والواجب .

وتعتبر الخمر كذلك من أهم الأشياء التى تؤدى إلى الإجهاض»

والقرآن المجيد ينهى عن تحريم المباح ، كما ينهى عن إباحة المحرم :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ » .

والقرآن يعلم المؤمن به أن يكسب الطيبات من صنع يده ، وأن ينفق منها غير مسرف فى انفاقه ، وأن ينعم بالطيبات من ثمرات الأرض وخيراتها لأنها نعمة مشكورة لايحل له أن يجتنبها :

« يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » .

والآيات التى تدعو إلى العناية بالجسم غذاء ولباساً واسترواحاً كثيرة واردة فى القرآن المجيد ، ومن ذلك قوله تعالى :

« يَابَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ[١] » .

قال الإمام المراغى[٢] : طلب الله سبحانه التزين للمساجد حسبما يعرفه الناس فى عباداتهم وزمانهم ، كل حسبما يقدر عليه . وروى عن الحسن « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قام للصلاة لبس أجود ثيابه ، وكان يقول : إن الله جميل يحب الجمال » .

(١) سورة الأعراف : ٣١ — ٣٣ .
(٢) محمد مصطفى المراغى : حديث رمضان ، ص ٣٢ .

وطلب سبحانه الأكل والشرب من غير إسراف وتجاوز للحد ، بل مع التزام حدود القصد والاعتدال ، فان الإسراف فى الطعام والشراب مضر بالبدن ، والإسراف فيهما وفى غيرهما مضيعة للمال .

وبين الله سبحانه أن الزينة فى الدنيا والطيبات من الرزق للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويشاركهم غيرهم فيها ، ولكنها فى الآخرة خالصة لهم لايشاركهم غيرهم فيها .

وقد نهى الله سبحانه عن ترك الطيبات تنسكا وعبادة ، وطلب عدم تجاوز الحد إلى الإسراف الضار بالجسد ، والإسراف الضار بالمال ، وطلب عدم الاسترسال فى الشهوات من مطعم ومشرب وغيرهما ، حتى لاتكون اللذات هى الهم الأكبر من الحياة ، فان للمؤمن فى الحياة قصداً أسمى : هو العلم ، والمعرفة ، والعبادة ، واكتناه سر الوجود ، والإحسان إلى الناس ، والنفع العام للجماعة . وإذا كانت اللذات مشغولا بها إلى حد البحث والطلب والانتظار والألم عند فقدها ، كان ذلك صارفاً عن المقاصد السامية للمؤمن . والعزوف عن الدنيا ، ومسلك التهتل والانقطاع لايقره الإسلام[١] لأن فيه تعطيل ما كرم الله به الإنسان ، من قوى التفكير والإرادة والعمل . وبقاء أسرار الكون ومنافعه كامنة فى أطباق الأرض وأجواء السماء ، وقد سخرها الله جميعاً للإنسان وسلطه عليها ومهد له طريق إظهارها ، وعمارة الكون بها ، وأكثر من الإرشاد إلى ذلك فى كتابه الكريم . قال تعالى :

---

(١) محمود شلتوت : من توجيهات الإسلام ، ص ١١٢ .

« هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ، يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(١) » .

وقال تعالى : « وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢) » .

وقال تعالى : « هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (٣) » .

وما خلق الله الإنسان على هذا النحو ، وسخر له الكون على هذا النحو ، وأرشد فى كتابه إلى هذا الخلق وهذا التسخير ، ثم يرضى منه بعد ذلك أن يعطل قواه التى منحه إياها ، ويعطل أسراره التى أودعها فى خلقه ، ويهمل إرشاداته وينحاز بكل ذلك إلى زاوية أو كهف ، منقطعاً عن الدنيا التى جعله الله خليفة فيها ، يعمرها وينميها ، ويجعلها مظهراً لرحمته بعباده .

إن عبادة الله التى خلق لأجلها الجن والإنس ، لم يكن سبيلها فى هذه الحياة التبتل والإمتناع عن الدنيا ، إنما سبيلها ، تحقيق إرادة الله

---

(١) سورة النحل : ١٠–١١ .
(٢) سورة النحل : ١٤ .
(٣) سورة الملك : ١٥ .

فى كونه عن طريق العمل فى عمارة هذا الكون ، وإظهار أسرار الله الدالة على عظمته ووحدانيته وإستحقاقه وحده للعبادة والتقديس .

وإذا كان الإسلام قد حارب فكرة التبتل والانقطاع عن الدنيا بنصوصه الكثيرة التى حثت على العمل والسعى ، وطلبت إلى الناس أن يضربوا فى الأرض وأن يعملوا بقواهم فيما سخر لهم ، من أرض للزراعة ، وأدوات للصناعة ، وبحار للتجارة ، فانه قد حارب كذلك، بل أشد ، فكرة التكالب على الدنيا والعمل فى تحصيلها لخاصة النفس واعتبر هذا الغرض من دلائل التكذيب بيوم القيامة .

« أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ . ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (١) » .

إن الإسلام يدعو إلى المزاوجة بين حظوظ الجسم المعتدلة ، وحظوظ الروح المعتدلة ويبنى منهجه فى ذلك على الواقع الطبيعى للإنسان .

« إن القرآن الكريم (٢) بهذا الإلهام الصادق، ينقذ العقل من نقائض التفكير ، ولا ينجيه من نقائض التكليف وحسب ، أو من نقائض الحيرة بين العالمين فى حقائق الدين ، ولا مزيد . فمن ضلال التفكير قديماً ، أنه ساق كبار العقول إلى ذلك الفاصل المعتسف ، بين عالم النور والفلك الأعلى ، وعالم التراب والأرض السفلى .. »

(١) سورة التكاثر : ١ — ٨ .

(٢) عباس محمود العقاد : الإنسان فى القرآن ، ص ٣٤ .

« كل ما فوق القمر فهو صفاء وطهارة ، وكل ما دون القمر فهو كدر ودنس ، وكل ما هنالك فهو جوهر خالص ، وكل مادونه فهو عرض مشوب أو أعراض لا يصفو لها وجود ولو أشرق عليها عالم النور .

« وعلى مثل هذا « التفاضل » المسلم بين النور والتراب ، وبين الجوهر والعرض ، قد دار كل ما دار قديماً وحديثاً - فى الدين والعلم - من عزل أصيل بين الصفاء والكدرة ، وبين العقل والمادة ، وبين الروح والجسد ، وبين النقيضين من النور والظلام .

« إن هذا الإعتساف فى التفريق بين هذين الوجودين المتقابلين ، قد عطل العقل طويلا عن فهم حقائق الحس كما عطله ولا يزال يعطله عن فهم حقائق التكليف وحقائق الأديان : إن العلم ليعلم اليوم أن ذرات التراب وذرات الضياء من معدن واحد ، وأن الحجر اليابس يتفتت فإذا هو شعاع ، وأن الشعاع المطلق يتعقد ويتقابل فإذا هو حجر ، وأن الفيصل بين ضياء الفلك وضياء العقل قائم لا شك فيه ، ولكن لا شك كذلك فى خفاء هذا الأمر على العلم كخفائه على الإيمان؟

فماذا يقول العالمون بالذرة من « المؤمنين » ، بالمادة دون الروح؟

ماذا يقولون عن عقل « الدماغ » كيف يرى مالا تراه العين بشعاع الضياء؟ سيقولون علما ما قال به «قارئ الكتاب» . إيمانا حين قيل له عن الروح فسمع وصدق وقلبه مطمئن بالإيمان » :

« قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .

الفصل الثالث

أسرة واحدة

وضع القرآن الإنسان - علماً وديناً - فى موضعه الصحيح ، حين جعل تقسيمه أنه « ابن ذكر وأنثى » وأنه ينتمى بشعوبه وقبائله إلى الأسرة البشرية التى لا تفاضل بين الأخوة فيها بغير التقوى :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١) » .

إن اختلاف الشعوب له غاية سامية أرادها الله تعالى وهو التعارف ، وهذا التعارف له ظواهر :

الأولى : اللقاء على مودة وتراحم فى أمن وسلام .

والثانية : التعاون على أن ينتفع الإنسان بكل خيرات الأرض ، بحيث ينتفع كل إقليم بما هو فى الأقاليم الأخرى من خير ، ويمده بما عنده من فائض فى مقابل أن ينتفع هو بما عنده ، فاذا كانت الأرض مختلفة فيما ينتج فالإنتاج كله للإنسانية كلها .

والثالثة : تكريم الإنسان فى هذه الأرض ، فلا يوجد تعارف إذا كان إقليم يحتقر إقليما ؛ لأن ذلك يكون تناكراً ولا يكون تعارفاً ، ولابد أن يحترم أهل الأرض حرية أهلها ، وإلا فلا يكون

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

تعارف ، لأنه إذا كان أساس العلاقات الإرهاق النفسى وعدم احترام الحرية الشخصية لا يكون ذلك تعارفاً ، بل يكون استعباداً أو استرقاقاً ، أو إستعماراً بلغة العصر الحديث .

إن الإسلام [1] لم يدل فقط على أنه أعظم قوة تؤلف بين الإنسانية بل دل أيضاً على أنه القوة الوحيدة ، ففى حين لم تنجح الأديان الأخرى إلا فى لم شمل جنس واحد أو شعب واحد ، نجح الإسلام فى التأليف بين أجناس متباينة وشعوب مختلفة ، وفى تشذيب العناصر الإنسانية غير المتناسقة ، ولم يجعل الإسلام من الأجناس المتباينة جنساً واحداً ولا من الشعوب المختلفة شعباً إنسانياً فحسب ، ولكنه إستطاع بهذه الأسس المدعمة للمدنية أن يعيد للإنسان مدنيته المفقودة ... »

وشريعة الإسلام لا تقرر المساواة الإنسانية والمدنية للإنسان فقط ولكنها كذلك تقرر حقوقه الروحية . قال تعالى :

« كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً [2] » هذه هى عقيدتها الأساسية ، ولهذا فإن تبليغ الرسالة الروحية اعتبر للناس ، للشعوب كافة : « وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ [3] » .

جمع الإسلام الانسانية حول القرآن وفيه خلاصة كل الأديان السماوية ، فدعا الناس جميعاً دعوة عامة للخضوع لخالق الناس وعبادته وحده ، ولذلك خاطب الناس أجمعين بقوله :

---

(١) مولاى محمد على : الإسلام والنظام العالمى الجديد – ترجمة أحمد جودة السحار ، ص ١٤ . (٢) سورة البقرة : ٢١٣ . (٣) سورة فاطر : ٢٤ .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ[١] » .

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ[٢] » .

وهكذا نجد النصوص القرآنية الكثيرة تخاطب الإنسانية بأحكام الإسلام ، لا فرق بين أبيض وأسود ولا أحمر وأصفر ، بل الجميع مخاطبون بتلك الأحكام الإسلامية . ولقد قرر المفسرون أن كل نص قرآنى ابتدأ نداء فيه « بيأيها الناس يكون الخطاب فيه للناس جميعاً غير مختص بقبيل دون قبيل ؛ لأن العنوان فيه للإنسانية كلها ، فكل من يتصف بها داخل فى الخطاب[٣] » ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم عندما صدع بأمر ربه وخاطب قومه بدعوته : « إنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة ، وإنى لنذير لكم بين يدى عذاب شديد » .

جاء الإسلام بالتكليف العام للبشرية ، وإذا كانت بعض الرسالات السابقة إقليمية كرسالة شعيب ولوط مثلا ، فان رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عامة لا تختص بمكان ولا بقوم كما قال تعالى :

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا[٤] »

وذلك لأنها تلائم كل الناس ، إذ هى مشتقة من الفطرة الإنسانية ، وجاءت لتوجيهها نحو الخير والعدل .

---

(١) سورة البقرة : ٢١ . (٢) سورة النساء : ١٧٠ .

(٣) محمد أبو زهرة : المجتمع الإسلامى فى ظل الإسلام . (٤) سورة سبأ : ٢٨ .

وإذا تفرق الناس فى كل ركن من أركان الأرض، فإنهم يتلاقون على الاتحاد كما ابتدءوا به :

قال الله تعالى :

« يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا[1] ».

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى) .

وعن أبى مالك الأشعرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه عليه وسلم : (إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه ، وإنما أنتم بنو آدم وأحبكم إليه أتقاكم) .

وعن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أن الله تعالى يقول يوم القيامة : إنى جعلت نسباً ، فجعلت أكرمكم أتقاكم ، وأبيتم إلا أن تقولوا : فلان بن فلان . وأنا اليوم أرفع نسبى وأضع أنسابكم، أين المتقون ؟ أين المتقون ؟ » .

إن عقيدة المسلم فى الإنسانية هى أنها أسرة واحدة ، بغض النظر عن فروق الألوان واللغات والعقائد ، وأن الله هو ربها الأعلى ، وقد يتشاحن أفراد الأسرة الواحدة من وقت لآخر ، ولكن لن تبلغ هذه

(١) سورة النساء : ١

المشاحنات حد الكراهية الدائمة ، فان هذه الفكرة الإنسانية فى الحقيقة هى الدرع الوحيدة الواقية من طغيان الجنسية والألوان والتفرقة العنصرية ، ولا يمكن أن يستقر السلام فى الأرض إلا إذا قامت هذه الأسس الإسلامية القويمة .

يقول الدكتور دهالا Dhala فى كتابه « عالمنا فى طريقه إلى الكمال(١) » :

« إن دين محمد وحده بين أديان العالم هو الذى ظل متحرراً من الحاجز اللونى .. إنه يفتح ذراعيه على وسعها ترحيباً بمعتنقيه أيا كانوا : زنوجاً أو منبوذين .. وهو يمنح الجميع حقوقهم وميزاتهم دون تحفظ ، ويحتضنهم فى نطاق المجتمع مثلما يحتضنهم فى نطاق العقيدة .. والإسلام يستبعد كل حواجز المولد واللون ، ويقبل شتى معتنقيه ضمن جماعة المسلمين على أساس المساواة الاجتماعية التامة .. »

إن الله هو رب العالمين ...

والناس كلهم بنو آدم ، وخلق الله آدم من تراب ..

ولا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ، أن أكرمكم عند الله أتقاكم ..

بهذه المبادئ وجد الرباط القوى بين الأمم والأجناس ، وقضى على النزعة الهادمة ، بالتفاخر بالأنساب .. وبهذه القاعدة مهد الإسلام للعامل المجد ، أن يفتح أمامه طريق المجد ، وأن ينال فى الدنيا ما يصل

(١) عن كتاب الإسلام وتوازن المجتمع تأليف ميرزا حسين ، وترجمة فتحى عثمان ، ص : ٥٩ .

إليه جهده ، وفى الآخرة ما تعده له تقواه . والتقوى تنال بالأعمال الصالحة ، وليست الأعمال الصالحة صلاة وصوماً وحجاً فحسب ، بل هى هذه وحماية الإسلام ، والجهاد فى سبيله وفى سبيل الحق . فمن الممكن أن يكون أى شخص هو الأكرم عند الله العلى القدير .

هذا هو السمو بالنفس الإنسانية إلى أعلى الدرجات ، وهذا ما جاء به الإسلام ، وكان الناس إذ ذاك فى ظلمة العبودية وتقديس الطغيان ، فهدم مزايا الأجناس ، وعول على العمل الصالح والتقوى .

إن القرآن يشجب التفرقة العنصرية ، فلا تفرقة بالجنس ولا بالعنصر ولا باللغة ، والناس يتفاضلون فيما بينهم بالأعمال لا بالأنساب ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم مخاطباً عشيرته بنى هاشم : « يامعشر بنى هاشم لا يجيئنى الناس بالأعمال ، وتجيئونى بالأنساب » .

حارب الرسول صلى الله عليه وسلم العصبية الجاهلية ، وقال : « ليس منا من دعا إلى عصبية »

ولقد فرق بين العصبية الجاهلية والوطنية العادلة . فقد سئل عليه السلام من رجل : « أمن العصبية أن يحب الرجل قومه » فقال عليه السلام مفرقاً بين المحبة والتعصب الجنسى : « ليس من العصبية أن يحب الرجل قومه ، إنما العصبية أن يعين قومه على الظلم » . فالوطنية الصادقة التى لا تمنع المحبة للغير ولا تدفع إلى الظلم أمر محمود ، وبذلك أقر الإسلام الوطنية بشرط ألا يكون فيها إعانة على الظلم ، ومن الظلم أن نوصد الأبواب دون طالب الرزق ، ولقد شدد النبى صلى الله عليه وسلم فى النهى عن الإعانة على الظلم ، وقال عليه السلام : « مثل

الذى يعين قومه على الظلم مثل البعير المتردى فى الركى ، فهو ينزع بذنبه » أى أن الذى يعين قومه على الظلم كمثل بعير يحمل حملا فيتردى فى هاوية من الأرض ، فينزع بذنبه يريد رفع نفسه ليحمل حمله فلا يستطيع أن يرتفع ولا أن ينقل الحمل الذى يحمله[١] .

إن أفضل الناس عند الله أتقاهم وأصلحهم وأسبقهم إلى الخيرات ، وما التقوى ؟

يقول العقاد[٢] : « التقوى كلمة واحدة تجمع كل وازع يزع الضمير ...

وأقدر الناس على أمانة التقوى ، أقدرهم على النهوض بالتبعة وأعرفهم بمواضع المعروف والمنكر والمباح والمحظور ...

والإنسان التقى هو الإنسان « الإنسان » .

ما هذه التقوى التى يتعلق بها كل فضل الإنسان عند رب العالمين؟

لو شاء فلاسفة الأخلاق لعلموا ما هى هذه التقوى وعلموا حقا أن موازينهم جميعاً لا تحسن الترجيح بين فضل وفضل وبين قدرة وقدرة كما تحسنه هذه «التقوى» التى يحسبونها «تسبيحة» من تسابيح المعابد ويخيل إليهم أنها أفشل من أن تنفع العالم المحقق فى مقام الموازنة والتفضيل .

فليس بين فاضل ومفضول قط من رجحان غير رجحان الأفضل فى القدرة على التبعة ، بما طاب لهم من ألوان التبعات هى موضع الرجحان للعالم على الجاهل ، وللرشيد على القاصر وللذكى على الغبى وللقادر على العاجز ، وللمهذب على الفدم وللمجدود على المحروم ، وللغنى

---

(١) الأستاذ محمد أبو زهرة : المجتمع الإسلامى فى ظل الإسلام » بحث مقدم لمجمع البحوث الإسلامية : ١٩٦٦ » .

(٢) عباس محمود العقاد : الإنسان فى القرآن الكريم ، ص ٦٣ .

على الفقير ، وللسيد على العبد وللحاكم على المحكوم ، ولصاحب الخلق المكين على صاحب الخلق المزيل ، ولكل فاضل — بالايجاز — على كل مفضول »

« وما من ميزان يتفع فلاسفة الأخلاق فى طائفة من هذه الخصال ، إلا خذلهم فى طائفة غيرها .. بل فى أكثرها وأحوجها إلى الموازنة والتفضيل » .

فليست « جملة » الإنسان ماثلة فى تفضيل العلماء على الجهلاء ، أو الراشدين على القصر ، أو الأذكياء على الأغبياء ، أو غير هؤلاء على غير هؤلاء : من الفاضلين على المفضولين . فان العالم يفضل الجاهل بالعلم ولامراء ، ولكنه قد يؤوب مفضولا عند المقابلة بينهما فى باب من أبواب الخبرة أو نزعة من نزعات الفطرة ، وهكذا كل راجح وكل مرجوح بميزان المال أو النسب أو الخلائق والعادات ، ولكننا إذا حكمنا بأن إنساناً يفضل إنساناً بالقدرة على التبعات ، فهو الراجح لامراء فى كل ميزان من موازين المفاضلة بين بنى الإنسان ، وكل قيمة تحسب للإنسان بعدها أهلا للرجحان بالتبعات فهى مهملة حقا ولو كان لها شأنها فى غير هذا الإنسان ...

« إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » .

صدق الله العظيم ...

إنه لهو القسطاس الذى ينشىء « للإنسانية » حقوق المساواة بين أبنائها ديناً وعلما وفلسفة وشريعة وإلهاماً من الوحى الإلهى وتمحيصا البديهة الإنسانية »

« ومكان الوحى الإلهى فى هذه المساواة إنها قد شرعت للإنسان شريعتها حقاً من حقوق الخلق والتكوين ، ولم تشرعها له وسيلة من

وسائل الحكم وإجراء من «إجراءات» السياسة فى إبان الخطر المطبق، خيفة من ثورة النفوس وتنافساً على عدد الأصوات فى معارك الانتخاب فان أحداً ممن خوطهم القرآن تلك المساواة لم يطلبها، ولم يكن لينالها قبل أن تتنزل عليه من وحى رب العالمين . ولكنها لم تنشأ فى حضارة من حضارات العالم القديم أو الحديث إلا كان وراءها حيلة دولة أو وسيلة سياسة أو مراوغة تمليق وتسكين ، ولولا حروب أثينا وأسبرطه ، وحروب روما وفارس ، وحروب الأمم فى القرن العشرين ، لما سمع « ديموس » بشيء يسمى الديمقراطية ولا رضح « الديمقراطيون » المتأخرون بشيء لذوى المعاول والمناجل أو لذوى الألوان المجندين للمصانع والمعسكرات ، ولا سمع العالم بمساواة بين بنى آدم لا فضل فيها لأحد منهم على أحد بغير العمل الصالح وتقوى الله العلى العظيم ...

« ونعيدها كلمات موجزة فى ختام هذه الصفحات عن الإنسان فى عقيدة القرآن وفى عقائد الأقدمين والمحدثين :

« إن القرن العشرين لم يضع الإنسان فى موضع أكرم له وأصدق فى وضعه من موضعه عند أهل القرآن بين خلائق الأرض والسماء وبين أمثاله من أبناء آدم وحواء : موضعه بين خلائق الأرض والسماء إنه المخلوق المميز الذى يهتدى بالعقل فيما علم وبالإيمان فيما خفى عليه.

وموضعه بين بنى آدم وحواء أنهم أخوة من عشيرة واحدة ، أكرمها من كرم بما يعمل من حسن ويجتلب من سوء ، وأفضلها من له فضل بما كسبه وما أتقاه ، لا يدان بعمل غيره ولا ينجو من وزره بغير عمله : « تلك أمة خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » .

فهرس

صفحة

مقدمة ٥

الكتاب الأول : عن القرآن ١١

الفصل الأول : معنى القرآن ١٣

الفصل الثانى : نزول القرآن ٢٥

الفصل الثالث : جمع القرآن وتدوينه ٥٧

الفصل الرابع : نظرات فى القرآن ٦٦

الفصل الخامس : اعجاز القرآن ٨٥

الكتاب الثانى : العقائد فى القرآن ١٢٣

الفصل الأول : العقيدة الالهية ١٢٥

الفصل الثانى : الايمان بالرسالات الالهية ... ١٥٢

الفصل الثالث : عوالم الغيب ١٦٤

١ ـ الملائكة ١٦٤

٢ ـ الجن ١٧٧

٣ ـ الروح ١٨٧

الفصل الرابع : يوم القيامة ٢٠٤

الكتاب الثالث : الانسان فى القرآن ٢٥١

الفصل الأول : آدم ١٥٣

الفصل الثانى : روح وجسد ٢٨٤

الفصل الثالث : اسرة واحدة ٢٩٤

رقم الايداع ٥٨٢٩/١٩٧٠

دار الشعب
٩٢ شارع قصر العيني بالقاهرة
تليفون ٣١٨١٠